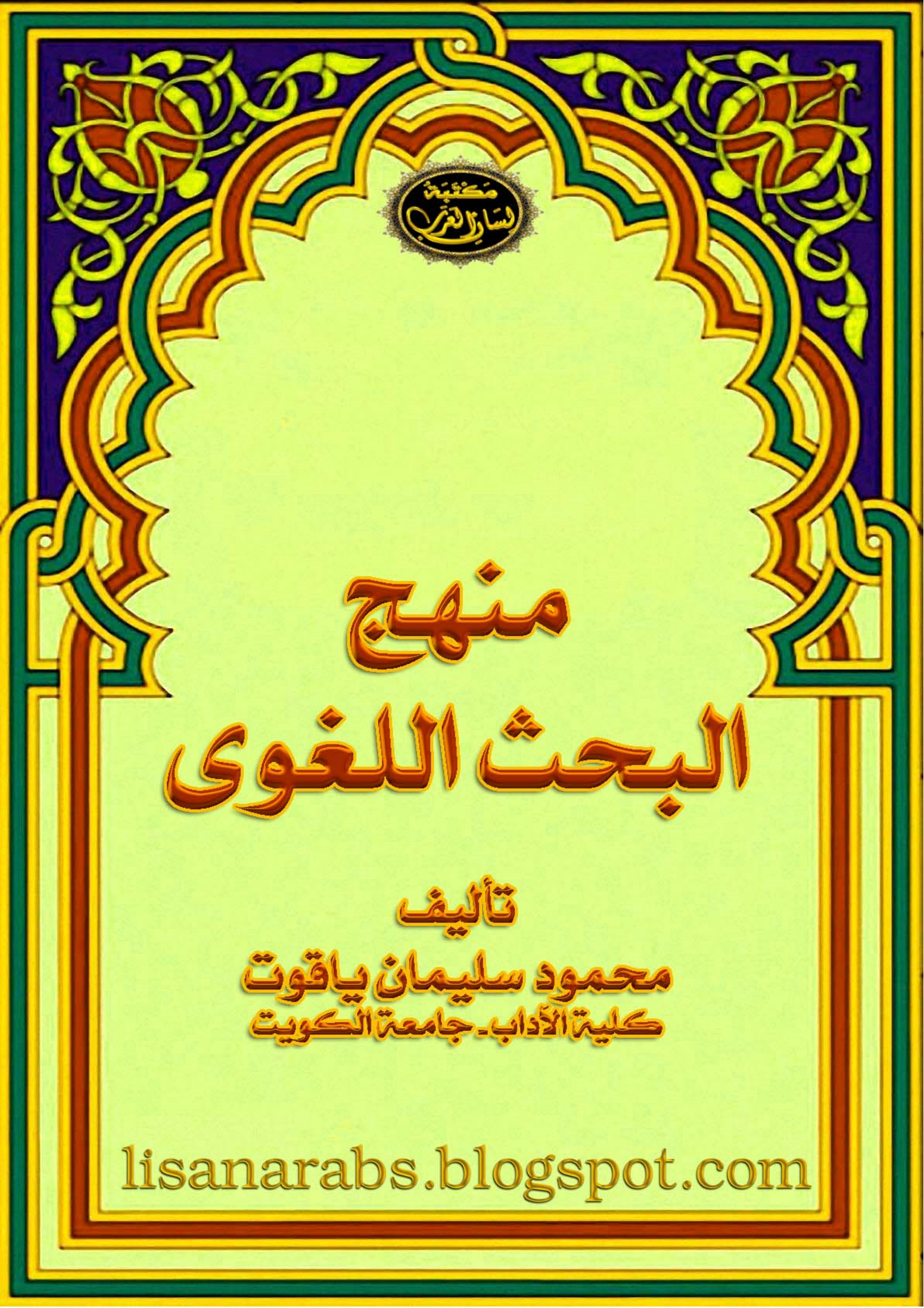

مكتبة لسان العرب
منهج
البحث اللغوى
تأليف
محمود سليمان ياقوت
كلية الآداب - جامعة الكويت
lisanarabs.blogspot.com

مَنْهَجُ البَحْثِ اللُّغَوي

تأليف

الدكتور محمود سليمان ياقوت
كلية الآداب - جامعة الكويت


مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com
أ. علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

صدق الله العظيم





lisanarabs.blogspot.com
أ. علاء الدين شوقى
lisanarabs.blogspot.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وبعد...

فإن «التفكير اللغوي» من الأمور التي نالت عناية الشعوب القديمة واهتمامها، وظهر ذلك في محاولة وضع تعريف للغة، والبحث في نشأتها، وتعليل تعدد اللغات وما بينها من اختلاف، والنظر في الأصوات، واشتقاق الألفاظ، ووضع الشروح الميسرة للقواعد النحوية وغير ذلك. ومن أرقى أنواع هذا التفكير محاولة الإنسان الأول تمثيل الكلمات الملفوظة برموز كتابية، وقد نتج عن ذلك اختراع «الكتابة» التي تعد الوسيلة الأساسية في حفظ المعارف والتراث الإنساني من الفقدان والضياع.

وتعد جهود القدماء من الهنود في مجال الدراسات اللغوية أقدم ما وصل إلينا؛ لأنها تعود إلى الفترة التي تبدأ بالقرن السابع قبل الميلاد. أما جهود القدماء من العلماء العرب في مجال البحث اللغوي الذي بدأ مع قيام الحركة العلمية في القرن الثاني للهجرة فهي أدق ما عرفته البشرية في عصورها القديمة وأرقاه، والدليل على ذلك هذا التراث اللغوي العملاق الذي ما زلنا نعيش على فضله حتى الآن، وهو تراث يمتاز بالأصالة في التفكير، والغزارة في الإنتاج، والتنوع في الاتجاهات، والعمق في التحليل، والدقة في «المنهج» Method؛ لذلك ليس مستغرباً أن نجد كتاب سيبويه، وآراء عبد القاهر الجرجاني في النظم

تخضع منذ سنوات بعيدة للمقارنة بآراء دي سوسير وتشومسكي وسواهما.

وقد بدأ «البحث اللغوي» في العصر الحديث مع عصر النهضة، وكان الاهتمام منصباً على النظر في بعض المسائل الصوتية؛ فقد كتب الرسام والنحات والموسيقي والمهندس الإيطالي ليوناردو دا فينشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) الكثير من الملاحظات والأفكار حول تكوين الجهاز الصوتي، وعملية الكلام، وانتقال الصوت من المتكلم إلى السامع، وطريقة انتشار الصوت. وقد حدث تطور خطير في تاريخ الدرس اللغوي حين تم اكتشاف اللغة السنسكريتية (لغة الهند المقدسة) على يد سير وليم جونز **Sir William Jones** الذي كان يعمل قاضياً في المحكمة العليا بالبنغال سنة ١٧٨٦م، ووجد الأوربيون في التراث الهندي الكثير من الدراسات العلمية الدقيقة المنظمة، وهي دراسات تعتمد على «المنهج الوصفي» **Descriptive Method** الذي لم يُبْنَ على أسس من المنطق، وإنما اهتم بالنظر في الاستعمال اللغوي وتسجيله وتحليله على نحو ما ورد في النص، دون الإغراق في الجدل، وبدأت الدراسات اللغوية الحديثة بمقارنة اللغة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية؛ لذلك من الطبيعي أن نقول إن «علم اللغة» بدأ عمله العلمي بالدراسة المقارنة باللغات الهندية الأوربية **Indo-European** في القرن التاسع عشر.

وقد أشار دي سوسير في دروسه إلى أن «الدرس اللغوي» مر بعدة مراحل قبل أن يحدد موضوعه الحقيقي الذي هو «دراسة اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها»، وتلك المراحل ثلاث هي:

١ ـ دراسة ما يندرج تحت مصطلح Grammar، وقد نشأت تلك الدراسة مع اليونان، وسيطر عليها التفكير المنطقي، وكان هدفها تقديم القواعد التي تفرق بين الصواب والخطأ من الاستعمال اللغوي؛ لذلك

يقال إنها دراسة «معيارية» لم تعبأ بالملاحظة الفعلية للواقع اللغوي.

٢ ـ ظهور مصطلح Philology في مرحلة مبكرة، وهي يهتم بالدراسة اللغوية للنصوص في ضوء بعض الأصول والتقاليد العتيقة التي تعود إلى مدرسة الإسكندرية القديمة، وقد أخذت تلك الدراسة في الازدهار في أوربا في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين.

٣ ـ اكتشاف اللغويين لإمكان مقارنة اللغات فيما بينها، وكان ذلك بداية جديدة في البحث اللغوي، تعد الأصل أو الأساس لما يسمى بـ«فقه اللغة المقارن».

وإذا كان دي سوسير قد أرّخ للدرس اللغوي بالمراحل الثلاث السابقة، فإن «علم اللغة» Linguistics بدأ يأخذ مكانته باعتباره «عِلْماً» Science على يد دي سوسير نفسه؛ وذلك في دروسه التي ألقاها بالفرنسية في جامعة جنيف بسويسرا في السنوات (١٩٠٦ ـ ١٩١١م) والتي نشرها تلاميذه بعد وفاته سنة ١٩١٦.

وقد استمر «البحث اللغوي» في طريقه نحو التطور والازدهار بفضل جهود مجموعة من كبار علماء اللغة من أمثال سابير Sapir وبلومفيلد Bloomfield وفيرث Firth وتشومسكي Chomsky الذي أحدث ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية يعرفها الكثيرون ممن لهم اتصال بتاريخ الدرس اللغوي في العصر الحديث. ومن الأمور التي ساعدت في تطور البحث اللغوي وازدهاره اتصال المشتغلين باللغة ببعض العلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة وسواها، وأدى هذا الاتصال إلى ظهور فروع جديدة لعلم اللغة مثل علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة البراجماتي، وأصبحت تلك العلوم من المقررات الأساسية التي يدرسها طلاب العلم والمعرفة في المراحل الجامعية المختلفة.

ويعود الاهتمام بالدراسات اللغوية في الوطن العربي إلى فترة

إنشاء «الجامعة الأهلية» في مصر سنة ١٩٠٨، وزاد هذا الاهتمام به سنة ١٩٢٥ حين تولت الدولة أمر الجامعة وجعلتها حكومية، ويعد «علم اللغة المقارن» للغات السامية أول فروع الدراسات اللغوية التي عرفها الباحثون؛ لأنه كان أحد المقررات الأساسية التي تدرس في «قسم اللغة العربية واللغات الشرقية» في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً)، ويعود السبب في ذلك إلى أن عمالقة الدراسات السامية في أوربا من أمثال برجشتراسر Bergsträsser وشاده Schaade وليتمان Littmann كانوا يعملون في الوقت نفسه في الجامعة المصرية.

وقد استمر البحث اللغوي في الوطن العربي في طريقه نحو التطور والرقي والازدهار بفضل جهود جيل من كبار علماء اللغة الذين درسوا في «جامعات الغرب»، وقدموا الكثير من الأعمال العلمية التي ساعدت في التعريف بعلم اللغة، وتوضيح مناهجه، وطرق التحليل اللغوي؛ لذلك يمكن القول بأن الدرس اللغوي في الوطن العربي يمتاز بالدقة، ووضوح المنهج، وقد أدى هذا إلى إقبال الكثيرين من طلاب العلم والمعرفة على التخصص في «العلوم اللغوية» التي تشمل النحو والصرف وفقه اللغة وعلم اللغة في مرحلة «الدراسات العليا»، وأصبح هناك الكثير من «البرامج الممتازة» التي تطرحها الجامعات العربية لطلاب هذه المرحلة، ويدرس الطلاب فيها عدة علوم من بينها ما يأتي:

١ - موضوع خاص في اللغة
٢ - موضوع خاص في النحو
٣ - علم اللغة.
٤ - نصوص بلغة أجنبية.
٥ - التفكير اللغوي عند العرب.

٦ ـ حلقة بحث في اللغة والنحو.

٧ ـ مناهج بحث في اللغة.

٨ ـ علم الأصوات.

٩ ـ المصطلحية وعلم المصطلح.

١٠ ـ اللهجات العربية.

وسواها من المقررات التي تساعد في إعداد الطلاب إعداداً سليماً؛ حتى يمكنهم، بعد ذلك، من التسجيل لبحوث الماجستير والدكتوراه.

ويدور هذا الكتاب حول (منهج البحث اللغوي) خلال التعريف ببعض الموضوعات التي تعد الأساس في دراسة «اللغة» بطريقة علمية منظمة، والتي نرجو أن تساعد الطلاب حين يشرعون في إعداد بعض البحوث اللغوية.

ويضم هذا الكتاب مجموعة من الفصول، بلغت أحد عشر فصلاً، عالجنا فيها الموضوعات الآتية:

١ ـ التعرف على التفكير اللغوي عند غير العرب كالهنود واليونان والرومان والسريان؛ حتى نبين أن النظر في اللغة قد نال اهتمام الإنسان وعنايته منذ قديم الزمان.

٢ ـ الإشارة إلى معارف العرب في العصر الجاهلي؛ وذلك لبيان مكانة اللغة والاهتمام بها في هذا العصر.

٣ ـ التوقف أمام نشأة الدراسات اللغوية عند العرب في رحاب القرآن الكريم، مع الإشارة إلى ثلاثة أمور تنبه إليها العرب في القرن الأول للهجرة هي نشأة النحو، ورسم العربية، ونقط الإعجام.

٤ ـ بيان الصلة بين «المنهج» و«التفكير العلمي»، وقد تطلب ذلك الحديث عن تعريف المنهج، وتطور المناهج، وتعريف العلم، وتحديد السمات الأساسية للتفكير العلمي مع التطبيق في «علم اللغة».

٥ - دراسة مناهج البحث في اللغة، وقد عرضنا فيه لثلاثة مناهج أساسية هي المقارن والتاريخي والوصفي، مع الاهتمام ببيان «الجانب الإحصائي» في المنهج الوصفي، ثم عرضنا لمستويات التحليل اللغوي الذي يفيد من تلك المناهج.

٦ - العرض للخطوط الرئيسية لما يسمى بـ«علم اللغة التحويلي»، وقد أفردناه بالدراسة دون ضمه في فصل «مناهج البحث في اللغة» للمكانة المتميزة التي احتلها «النحو التحويلي التوليدي» ورائده تشومسكي في تاريخ الدراسات اللغوية.

٧ - الصلة بين البحث اللغوي والعلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، وقد درسنا ثلاثة علوم لغوية نتجت عن تلك الصلة هي علم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة البراجماتي.

٨ - توضيح النقاط الرئيسية التي تتصل بـ«البحث» خلال العرض لتعريف البحث، ومادة البحث اللغوي، وطريقة اختياره، وخطة البحث والأجزاء التي يتكون منها.

٩ - بيان ما يتصل بالباحث خلال العرض لصفاته، وآداب البحث والباحث عند القدماء، وطريقة استخدام «علامات الترقيم» التي يحتاج إليها الباحث حين كتابة بحثه.

١٠ - دراسة ما يتصل بمصادر البحث اللغوي ومراجعه، مع الإشارة إلى أهمية قراءة الباحث لمراجع علم اللغة - في بعض الأحيان - في لغتها الأصلية المؤلفة بها.

١١ - التعرف على اتجاهات البحوث اللغوية في الجامعات العربية، وبداية الاهتمام بالبحث اللغوي في الوطن العربي، وبعض الموضوعات التي كانت بحوثاً للماجستير والدكتوراه.

هذه هي الموضوعات التي حاولنا دراستها والتعرف عليها بالتفصيل خلال فصول الكتاب المختلفة.

وبعد فهذه محاولة قمتُ بها جاداً مخلصاً، فإن كانت نافعة فبها ونعمت، وإن كانت الأخرى فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والله وحده ولي التوفيق.

محمود سليمان ياقوت
كلية الآداب - جامعة الكويت
العام الجامعي ١٩٩٧/٩٦

الفصل الأول

التفكير اللغوي عند غير العرب

التفكير اللغوي عند غير العرب

النظر في اللغة، والاهتمام بقضاياها، والتفكير في مشكلاتها من الأمور التي انشغل بها الإنسان منذ قديم الزمان، وهو يبغي من وراء ذلك الوقوف على أسرارها، والكشف عن طبيعتها، والتعرف على كنهها. وكلما مر الزمن اتسعت معارف الإنسان وتعددت اهتماماته، وهذا بدوره ينعكس على تفكيره اللغوي الذي يتطور بمرور الزمان. ونشير إلى أن هذا التفكير نابع من إحساس الإنسان بوجود صلة تسب بينه وبين لغته التي تؤدي إلى خلق مجتمع إنساني متجانس، والتي يتعامل بها في حياته اليومية، وربما يصل يوماً إلى الكشف عن عقله وسلوكه وملامحه الإنسانية وصفاته الخلقية وأسس حياته الروحية والفكرية والمادية في ضوء تفكيره اللغوي.

ونستطيع ربط التفكير في اللغة عند الأمم والشعوب القديمة بالوقت الذي اهتدت فيه الجماعات البشرية إلى الكلام، ومن أرقى أنواع هذا التفكير محاولة الإنسان الأول تمثيل الكلمات الملفوظة برموز كتابية، وقد أدى هذا إلى اختراع «الكتابة» التي تعد الوسيلة الأساسية في حفظ معارف البشرية، وصيانة التراث الإنساني من الضياع.

وقد ارتبط تصور الشعوب والأمم القديمة للغة بتراثهم الثقافي وعقيدتهم الدينية؛ لذلك رأى المصريون القدماء أن الإله «تحوت» هو قلب «رع» ولسانه، وعن طريقه نطقت وصية الله في الأرض، فوجدت

الخليقة، وتخيل اليونانيون وجود خالق للغة والكتابة، وخلع الهنود على لغتهم السنسكريتية صفة القداسة... وهكذا.

واهتم القدماء بالبحث في نشأة اللغة، وتعدّد اللغات وما بينها من اختلاف؛ ففي التوراة: «وجبل الربُّ الإلهُ من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها، فسمى آدم جميع البهائم وطيور السماء وجمع حيوانات البرية»[1].

وهناك «قصة بابل» التي تفسر تعدد اللغات؛ فقد ورد في بعض المعجمات اللغوية: «والبلبلة: بلبلة الألسنة، وقيل سميت أرض بابل؛ لأن الله تعالى حين أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحاً فحشرهم من كل أفق إلى بابل، فبلبل الله بها ألسنتهم، ثم فرقتهم تلك الريح في البلاد»[2].

ولم يكن التفكير اللغوي وقفاً على أمة دون أخرى، وإنما وجدنا الاهتمام باللغة موجوداً عند الشعوب القديمة، ونحاول التعرف على ذلك.

❁ ❁ ❁

أولاً: التفكير اللغوي عند الهنود:

تعد جهود القدماء من الهنود في الدراسات اللغوية أقدم ما وصل إلينا؛ لأنها تعود إلى الفترة التي تبدأ بالقرن السابع قبل الميلاد. وقد اهتموا باللغة السنسكريتية **Sanskrit** لغة الهند الكلاسيكية، وقدموا لها الكثير من الدراسات العلمية الدقيقة المنظمة، وهي دراسات تعتمد على المنهج الوصفي الذي لم يُبْنَ على أسس من المنطق، وإنما اهتم بالنظر

---

(١) سفر التكوين: ٢/ ١٩ و ٢٠.

(٢) لسان العرب: مادة (بلل).

في الاستعمال اللغوي وتسجيله وتحليله على نحو ما ورد في النص، دون الإغراق في الجدل، أو الخوض في التعقيدات والتعليلات الفلسفية والمنطقية، وظهرت بحوث تدور حول تحليل الفروع اللغوية المختلفة كالأصوات، واشتقاق الكلمات والنحو والدلالة والمعجمات؛ لذلك نستطيع أن نقول إن الباحثين الهنود غطوا ما يتصل بحقل الدراسة اللغوية الوصفية Synchronic في الفترة الزمنية التي بدأوا فيها.

وهناك الكثير من الملاحظات الصوتية التي أثرت عن الهنود القدماء، ومن ذلك اهتمامهم بدراسة الصوت المفرد وما يندرج تحته من تقسيمات، وعرفوا أنواع الأصوات حسب خروجها من الحلق إلى الشفتين، مع الإشارة إلى الأصوات الأنفية، وفطنوا إلى تقسيم أصوات لغتهم إلى القسمين الرئيسيين وهما «الأصوات المهموسة» و«الأصوات المجهورة»[١].

وتوقف الهنود أمام السنسكريتية التي كتبت بها «الفيدا» Veda[٢] وتوصلوا إلى وجود ثلاث طبقات صوتية لها: عالية High ومنخفضة Low وهابطة Falling.

وقد أشاد المحدثون من علماء اللغة بما قدمه الهنود من آراء في الأصوات، وتعد المعلومات التي قدمها سير وليم جونز Sir William Jones عن علماء الأصوات الهنود، وما قدموه من بحوث ودراسات الأساس الذي قامت عليه المدرسة الأصواتية في إنجلترا على نحو ما

(١) الصوت المهموس voiceless هو الصوت الذي لا يتذبذب الوتران الصوتيان حين النطق به، وعندما نصفه نجد أن الوترين الصوتيين ينفرجان مفسحين مجالاً للنفس للمرور خلالهما دون أي اعتراض؛ لذلك لا يتذبذب الوتران الصوتيان، ويسمى الصوت في تلك الحال مهموساً. وهناك ما يسمى بالصوت المجهور، وهو الصوت الذي يقترب الوتران الصوتيان من بعضهما؛ بحيث يؤدي الهواء الخارج من الرئتين إلى ذبذبتهما محدثاً بذلك نغمة موسيقية، وينتج ما يسمى بالجهر، ويسمى الصوت اللغوي المنطوق به في تلك الحال مجهوراً voiced.

(٢) الفيدا: كتب الهندوس الدينية الأربعة، أو واحد منها.

أشار اللغوي المعروف فيرث (١٨٩٠ ـ ١٩٦٠م) J.R.Firth.

ونالت الدراسات النحوية عناية علماء الهند واهتمامهم، ويأتي على رأسهم بانيني Panini الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد أشار المحدثون من علماء اللغة إلى المكانة الفريدة المتميزة التي احتلها بين نحاة الهند، حتى إنهم اصطلحوا على وجود ما يسمى بـ«نحو بانيني»، ويعود السبب في ذلك إلى خوضه في الكثير من الموضوعات كحديثه عن القوانين التي يمكن تطبيقها حين تحليل الجمل، وبيان طرق الربط فيما بينها، وتوقفه أمام الجذور الفعلية، والكلمات المتشابهة حين الإعراب، وتحليله لبعض الكلمات من وجهة نظر الصرف، وإيضاح العناصر التي تتكون منها؛ لذلك يرى اللغوي الأمريكي ليونارد بلومفيلد (ت١٩٤٩م) Leonard Bloomfield أن نحو بانيني يقف شاهداً على تقدم العقل البشري، وتطور الفكر الإنساني.

وقد سيطر على بانيني هدف ديني حين تعرض لدرس لغة بني قومه، وهو أن ييسر لهم فهم كتاب الهند المقدس الفيدا، وقد ألف كتاباً عنوانه Astadhyayi (الكتب الثمانية Eight Books) حاول فيه تقديم القواعد النحوية بطريقة ميسرة، مع الاهتمام ببعض القضايا اللغوية والعرض لها باختصار؛ حتى يتمكن معاصروه من بني قومه فهمها، وسيطر عليه المنهج الوصفي الذي أشرنا إليه من قبل؛ بل نستطيع أن نقول إنه هو الذي أسسه، وظهر ذلك في حرصه على تسجيل الواقع اللغوي ووصفه بعيداً عن العلل الفلسفية والتعقيدات المنطقية.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الذين كتبوا عن تاريخ الدراسات اللغوية في العصور القديمة حاولوا ربط ما عند الهنود من نظرات في النحو بما في الدرس الحديث، وليس من شأننا الخوض في هذا، ولكن هناك بعض المميزات التي امتاز بها هذا النحو في هذا الوقت المبكر من الحياة اللغوية، ومن أهمها ما يأتي:

١ ـ تحدث النحو الهندي عن الفعل وطريقة استخدامه في الجملة، مع ربطه بالعدد، والزمن الذي ينقسم إلى الماضي والحاضر والمستقبل.

٢ ـ أشار النحو الهندي إلى العلاقة بين الأسماء والأفعال في ضوء مصطلح يسمى Karaka (ومعناه بالإنجليزية doing أو acting) وهو يقترب من العامل النحوي، أو الفاعل الذي يقوم بالفعل.

٣ ـ توقف النحو الهندي أمام تعدد استخدام الكلمة في الجملة، وأوضح أنها عبارة عن أسماء وأفعال وأدوات وحروف جر؛ لذلك يرى هذا النحو أن أقسام الكلمة أو أنواعها هي الأربعة السابقة.

٤ ـ أثر عن الهنود أصحاب الخط الدافناجري Davenagri Script الذي يمتاز بالدقة والجمال نحو وصفي يدور حول السنسكريتية، لا يعتمد على المنطق.

ونال التأليف المعجمي عناية الهنود القدماء واهتمامهم، وظهر ذلك في وضع بعض القوائم التي ضمت مجموعة من الألفاظ الصعبة أو الغريبة في استعمالها، وهي مأخوذة من النصوص المقدسة لديهم، وقدموا شرحاً لها مع بيان دلالتها، كما ظهرت أعمال معجمية تحرص على تسجيل الألفاظ المترادفة وبيان الاشتراك اللفظي وإيضاح ما يتصل بالتذكير والتأنيث لبعض الكلمات. وهناك بعض الموضوعات المتصلة بعلم الدلالة عرض لها القدماء من علماء الهند، ومن بينها ما يأتي:

١ ـ محاولة معرفة طبيعة الكلمات، ومعاني الجمل، والعلاقات التي تنشأ بين الكلمة والصيغة.

٢ ـ النظر في الألفاظ ذات الجرس المعبر Onomatopoeia[1]

---

(١) الألفاظ ذات الجرس المعبر عبارة عن تلحين موسيقى يحاول تقليد الضوضاء الأصلية في الطبيعة، ومن بينها: قاقت الدجاجة قوقاً؛ أي صوتت، وهمهم =

ومحاولة معرفة دورها في إيجاد علاقة بين الكلمة والشيء، أو بين الكلمة وما ترمز إليه.

٣ ـ التعرف على الاتساع في معاني الكلمات خلال استعمالها في المواقف المختلفة، وكذلك التعرف على الاستعمال المباشر، والاستعمال المجازي للكلمات.

❁ ❁ ❁

ثانياً: التفكير اللغوي عند اليونان:

اهتم القدماء من علماء اليونان باللغة، وكانت نظرتهم إليها يطبعها الاعتماد على مقولات المنطق ومبادئه، ويعود السبب في ذلك إلى أن أولئك كانوا فلاسفة أكثر من كونهم علماء دين؛ لذلك نجد حقلًا واسعاً من المعرفة، يغطي كل اهتمامات القدماء، والكثير من المعارف الإنسانية، اندرجت تحت الدراسات اللغوية ضمن غيرها هو Philosophia، ومن هنا يقال إن الفلاسفة في نهاية القرن السادس قبل الميلاد درسوا اللغة ضمن علوم الرياضيات والفيزياء وغيرهما، وكان اهتمامهم يدور في إطار الاشتقاق والأصوات والنحو؛ لذلك نظروا في أصل اللغة وتطورها واشتقاق بعض الكلمات وبيان صيغتها، وتوقفوا أمام النطق للأصوات، وأشاروا إلى بعض القواعد بطريقة ميسرة.

ومن أهم الموضوعات التي سيطرت على تفكير علماء اليونان ونالت عنايتهم تعريف اللغة ونشأتها وأصلها، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما يرويه هيرودت Herodouts من أن فرعون مصر المسمى

= الرجل؛ أي تكلم كلاماً خفيًا يسمع ولا يفهم محصوله. ويقال: فحيح الثعبان، وعواء الذئب، ومواء القط، وخوار البقر، ونهيق الحمار، وزئير الأسد، وهديل الحمام، وشحيج الحمار، وخرير الماء، وأزيز الجراد وأزيز الطائرة، وهزيم الرعد، ونقيق الضفدع، ودوي الريح.

أبسماتيك Pasmmethikus أراد أن يعرف أي الأمم أكثر أصالة وعراقة، فلجأ إلى عزل طفلين حديثي الولادة بعيداً عن الناس، ووضعهما في إحدى الحدائق، وحين أخذا في الكلام نطقا بكلمة «بيكوس» Bekos وهي كلمة في اللغة الفريجية Phrygian معناها «الخبز».

ولم تكن لسقراط Socrates كتابات مباشرة في اللغة، وإنما نستطيع التعرف على بعض آرائه اللغوية في ضوء ما سجله أفلاطون في محاوراته الشهيرة التي ضمت بعض التعليقات عن اللغة وتحليلها، وكان سقراط هو المصدر الأساسي فيها.

وهناك بعض الآراء اللغوية الخاصة بأفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م) نجدها في محاورته المسماة «كراتيلوس» Cratyllus وقد توقف فيها أمام أصل اللغة، والعلاقة بين الكلمات ومعانيها، والعلاقة بين الكلمات والأشياء التي ترمز إليها، وهل تلك العلاقة طبيعية أو اصطلاحية. وناقش بلومفيلد تلك المحاورة[١]، وقد ترجم الدكتور محمود السعران ذلك[٢]، ونقدم هذا العرض.

إن هذه المحاورة تعطينا لمحة أولى عن مسألة طال الخلاف فيها بين أصحاب القياس Analogists وبين أصحاب التشذيذ Anomalists؛ فأصحاب القياس كان يعتقدون أن اللغة في أساسها «طبيعية» Natural وهي لذلك منتظمة؛ أي مطردة القواعد Regular ومنطقية Logical، أما أصحاب التشذيذ فكانوا ينكرون هذه الأمور، ويشيرون إلى الشواذ الملحوظة في التركيب اللغوي.

كان القياسيون يعتقدون أنه من الممكن تتبع أصل الكلمات ومعناها بالنظر في أشكالها، وسموا البحث في هذا «الاشتقاق»

---

(١) Language, P.P. 4, 5.

(٢) علم اللغة: ص٣٢٠ وما بعدها (الهامش).

Etymology، ومثل بلومفيلد هذه النظرية مصطنعاً أمثلة إنجليزية. قال: من الواضح أن كلمة blackbird تتكون من black وbird؛ فهذا النوع من الطير إذن قد سمي بهذا الاسم من أجل لونه الأسود، وهذه التسمية صادقة حقّاً على هذه الطيور، فهي طيور وهي سوداء. وعلى هذا المنوال كان من الممكن أن يستنتج اليونان أن ثمة علاقة بين gooseberry (وهي ثمرة من فصيلة التوت) وبين goose (=إوزة) لأن الكلمة الثانية هي صدر الكلمة الأولى، والواقع ألا علاقة بينهما إطلاقاً سوى هذا الشبه.

وأيّاً ما كان فإن كثيراً من الكلمات الإغريقية، كما هو الحال في الإنجليزية، تستعصي على هذا النوع من التحليل؛ فكلمة early (=مبكراً) تنتهي بمثل ما تنتهي به كلمة manly (=رجولي) ولكن من الواضح أن الكلمة الثانية مكونة من man (= رجل) مضافاً إليها اللاحقة ly، أما ما يتبقى من الكلمة الأولى بعد تجريدها من اللاحقة ly فهي بقية غامضة لا تعين في تفسير معنى هذه الكلمة.

ولذلك كلمة woman (=امرأة) تشبه كلمة man، ولكن المقطع الأول وهو wo غامض لا يعين في تحديد معنى الكلمة. في هذه الأحوال وما إليها كان اليونان وتلامذتهم الرومان يلجأون إلى الحدس والتخمين، ومن ذلك أنهم قالوا إن الكلمة اليونانية lithos (=حجر) مشتقة من العبارة Lian theein (=الجري الكثير)؛ لأن هذا هو ما لا تفعله الحجرة.

ثم قال بلومفيلد: إن هذه الاشتقاقات، على أي حال، ترينا أن اليونان أدركوا أن الصور الكلامية تتغير على مر العصور.

وقد عرف أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) Aristotle أعمال أفلاطون واستطاع خلالها تطوير فكره الخاص به، ومن آرائه اللغوية قوله: إن الكلام ناتج عن تجربة العقل، في حين أن الكتابة ناتجة عن الكلام.

وهناك بعض الآراء الصوتية التي أُثرت عن اليونان القدماء، وهي عبارة عن أقوال متناثرة موجودة في محاورات أفلاطون، وفي الشعر

والخطابة لأرسطو، وتشير تلك الآراء في مجملها إلى اهتمام القدماء من علماء اليونان بالنظر في حروف الهجاء، وبيان قيمها الصوتية، والاختلاف فيما بينها حين النطق، والمقاطع باعتبارها وحدات صوتية يمكن وصفها، والطبقة الصوتية التي تختلف من كلمة إلى أخرى، والاهتمام بالأثر السمعي الذي يحدثه الصوت في الأذن، وتقسيم الأصوات حسب المخارج أو موضع النطق، ولكنهم لم يهتموا بالتوقف أمام الأسس الفسيولوجية المتصلة بتكوين الأصوات المختلفة.

ولم يفطن اليونان إلى تقسيم أصوات لغتهم إلى القسمين الرئيسيين وهما الأصوات المهموسة والأصوات المجهورة كما فطن إلى ذلك الهنود. إن الذي صنعه اليونان هو أنهم صنفوا جانباً من أصوات اللغة اليونانية، وهو الأصوات «المغلقة» Mutes[1] على أساس «شدة النَّفَس»، وهكذا أصبحت الأصوات التي يصدق عليها أنها مهموسة مقابلة في تصنيفهم للأصوات الانفجارية النَّفَسية بدلاً من أن تكون مقابلة لما يصدق عليها أنها مجهورة، واعتبروا الأصوات التي نسميها مجهورة متوسطة بين المهموسة وبين الانفجارية النفسية[2].

ونالت الألفاظ عناية علماء اليونان، وظهر ذلك في الأعمال المعجمية التي دارت حول اشتقاق الكلمات وأصولها، وما اتفق لفظه واختلف معناه من الكلمات، والمعجمات المرتبة حسب المعاني أو الموضوعات، وتلك التي اهتمت بالألفاظ الخاصة ببعض الشعراء، وما دار حول اللهجات المحلية وسواها. واهتموا بالكلمة من الجانب النحوي، وقد أشار أفلاطون إلى أنها قسمان هما الاسم والفعل، وجاء بعده أرسطو وأضاف قسماً ثالثاً هو «الرابطة».

---

(١) يطلق هذا المصطلح على طبقة «الصوامت الانفجارية» Plosives لا سيما المهموس منها مثل K-p-t كما تطلق على مجهورها g-b-d.

(٢) الدكتور محمود السعران: علم اللغة ص٨٩.

ويعود الفضل إلى الرواقيين Stoics[1] في فصل الدراسات اللغوية عن غيرها، بعد أن كانت مندرجة تحت الحقل الواسع المسمى Philosophia. وقد اهتم الرواقيون بالأصوات والنحو واشتقاق الألفاظ ومعاني الكلمات والفرق بين الصيغة والمعنى، ولكن أثرهم الحقيقي كان في مجال النحو دون غيره من فروع اللغة، يدلنا على ذلك ما يأتي:

١ - يرى الرواقيون أن كل شيء يجب رده إلى المنطق، ومن ذلك «النحو» الذي ينبغي أن يطابق المنطق ويوافقه.

٢ - نظر الرواقيون في أنواع الكلمة وأقسامها، وقد أضافوا قسمين آخرين يدوران حول الصيغة الصرفية للكلمة، وطريقة استعمالها في الجملة، وبذلك أصبحت أقسام الكلمة خمسة.

٣ - توقف الرواقيون أمام المطابقة بين الاسم والفعل، والحالات الإعرابية التي تطرأ على الاسم، وغير ذلك.

٤ - اعتمد الرواقيون في نظريتهم الخاصة بالتركيب أو بناء الجملة على تحليل بعض الإسنادات المتصلة بالفعل في اللغة اليونانية، وأشاروا إلى اللازم والمتعدي من الأفعال.

ونشير إلى أن الحديث عن أقسام الكلمة قد لقي عناية بعض النحاة الذين أتوا بعد الرواقيين، ومن بينهم ديونيزيوس ثراكس Dionysius Thrax الذي وصل بأقسام الكلمة إلى ثمانية هي: الاسم، الفعل، اسم الفاعل، الأداة، الضمير، حرف الجر، الظرف، الرابطة.

بقي أن نشير إلى أن التفكير اللغوي عند القدماء من علماء اليونان قد سيطرت عليه النظرة الفلسفية العقلية التي تسعى إلى وضع

---

(١) الرواقيون: تلاميذ الفيلسوف اليوناني زينون (٣٠٠ ق.م) Zeno؛ لأنه كان يعلمهم في رواق (بضم الراء أو كسرها) والرواق: بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد طويل.

نموذج أو مثال أو قانون يرجع إليه حين الاستعمال اللغوي الصحيح، أو حين صياغة الكلام وتأليفه، دون الاهتمام بتسجيل الواقع اللغوي الموجود في البيئة على ألسنة الناس، ولذلك ظهر عندهم ما يسمى بـ«النحو التعليمي» الذي يفيد حين القراءة والكتابة الصحيحة.

❋ ❋ ❋

ثالثاً: التفكير اللغوي عند الرومان:

تأثر الرومان في تفكيرهم اللغوي الذي بدأ في القرن الثاني قبل الميلاد باليونان؛ لأنهم كانوا تلامذة لهم.

ويعد فارّو (١١٦ - ٢٧ق.م) Varro أول نحوي عند الرومان، وقد تأثر في ملاحظاته بالآراء النحوية الخاصة بالرواقيين؛ لأنه عرف تلك الآراء ودرسها على يد معلمه ستيلو Stilo. وقد ألف فارو كتاباً عنوانه De lingue Latina وأشار فيه إلى أن النحو يدرس الشعر والنثر الخاص بالكتّاب، وهو في ذلك متأثر بشراكس النحوي اليوناني، وتوقف أمام الاشتقاق والصرف والتركيب، واستقى أمثلته من صيغ الكلمات المتشابهة بين اليونانية واللاتينية، وحين تحدث عن المفردات أخذها من القوائم الأساسية، ويعود إليه الفضل في الحديث عما يسمى بالاشتقاق التاريخي والوصفي.

ومن النحاة الأوائل الذين أشار إليهم علماء اللغة المحدثون اثنان هما: دوناتوس Donatus وبريسكيان Priscian[1] وقد اعتمدا في الدرس النحوي على الجانب الوصفي، وطبقا على اللغة اللاتينية المصطلحات والفصائل النحوية التي أشار عليها علماء اليونان.

---

(١) عاش دوناتوس في القرن الرابع بعد الميلاد ومن أعماله كتاب (صناعة النحو) Ars Grammatica وعاش بريسكيان في القرن السادس بعد الميلاد.

وقد اهتم بريسكيان في أعماله بوصف اللغة التي كتب بها الأدب اللاتيني الكلاسيكي، ودرس النطق وأبنية المقاطع عن طريق النظر في حروف الهجاء، وتأثر بالمصطلحات الصوتية عند اليونان، واهتم بتحديد مفهوم الكلمة والجملة، وأشار إلى أقسام الكلمة، وهي تدور في إطار الأقسام التي أشار إليها ثراكس.

* * *

رابعاً: التفكير اللغوي عند السريان:

نشأت الدراسات اللغوية عند السريان متأثرة بما عند اليونان؛ لأنهم اختلطوا بهم عن طريق المجاورة أو الخضوع لسلطانهم؛ أي إن الاحتكاك بينهما كان مباشراً وقد نتج عنه تقليد السريان حين وضعوا قواعد لغتهم لما عند اليونان؛ بالإضافة إلى ترجمتهم الكتب التي قعدت للنحو اليوناني إلى اللغة السريانية.

ونشير إلى أن الدرس النحوي عند السريان حديث النشأة بالقياس لما عند الشعوب القديمة، يدلنا على ذلك ما ورد في كتاب (اللمعة الإلهية في نحو اللغة السريانية)[1] لمؤلفه إقليمس يوسف داود مطران دمشق عن السريان:

«في القرون الخمسة الأولى من العصر السعيد للغة السريانية لم يكن على ما نعهد عند السريان كتب نحوية أو لغوية تضبط قواعد الكلام؛ فكان الطلاب ينقلون اللغة ويحكونها بالنقل والتقليد والمطالعة الكثيرة، ولم يظهر كتاب في ضبط قواعد اللغة السريانية على ما اتصل بنا إلا بعد زمان المسيح بقرون، وذلك عند الشرقيين أولًا، وأقدم من يذكر ممن ألف شيئاً عن ذلك كان يوسف الأهوازي[2] الذي اشتهر

(١) طبع في مدينة الموصل سنة ١٨٩٦.

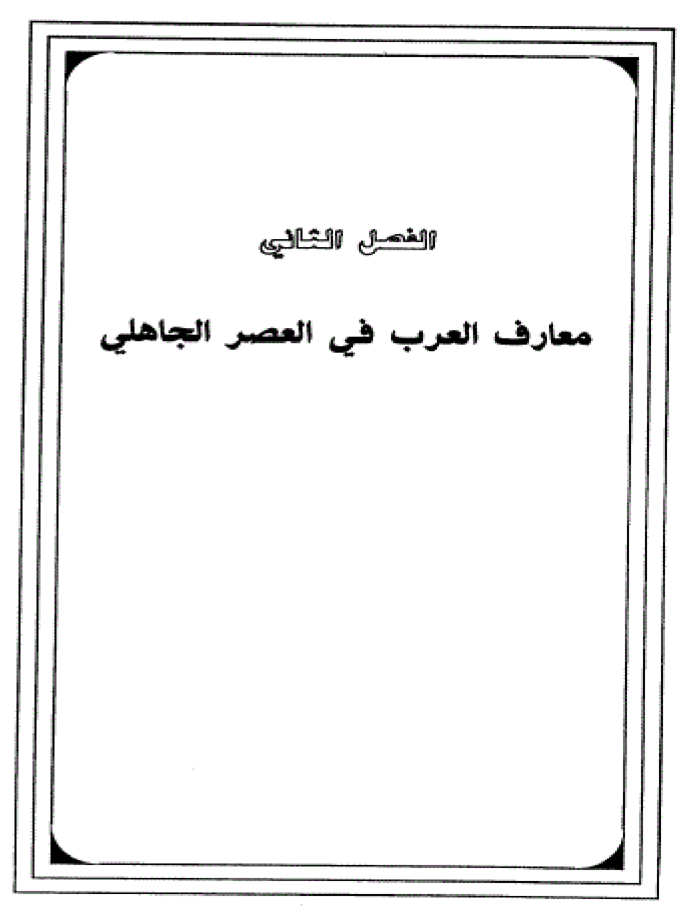
(٢) له كتيب في النحو، وله كتاب مترجم يدور حول قواعد اللغة اليونانية يسمى (الصناعة النحوية).

بالتدريس في مدرسة نصيبين المشهورة، وتوفي سنة (٥٨٠م) وأول من اشتهر من النحويين يعقوب الرهاوي أسقف الرها[١]... واشتغل بعد هذين كثير من الشرقيين والغربيين بفن نحو اللغة السريانية في القرن التاسع، ومنهم أبو حيان زعبي في القرن الثالث عشر، وأنه وضع قواعد النحو وفصلها تفصيلًا مستوعباً؛ إذ كانت جميع الكتب النحوية التي كتبت إلى زمانه مشتملة على أبواب قليلة من أبواب هذا الفن، كما اشتهر من الغربيين يعقوب المعروف بساويرس وله رسائل في بعض أبواب النحو السرياني».

❁ ❁ ❁

---

(١) يعقوب الرهاوي (٦٤٠ ـ ٧٠٨م) له كتاب في قواعد السريانية، وهو متأثر فيه بما في مصنفات علماء اليونان التي دارت حول قواعد اليونانية.



الفصل الثاني

معارف العرب في العصر الجاهلي

معارف العرب في العصر الجاهلي

كان للعرب في العصر الجاهلي (أي قبل ظهور الإسلام) مجموعة من المعارف التي يمكن الإشارة إليها خلال النقاط الآتية:

أولاً: يعد الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حُكمهم[1]، به يأخذون، وإليه يصيرون، وهو علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، على نحو ما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأن الشاعر حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يُهنّأون إلا بغلام يُولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تُنتج.

وكان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب؛ لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليه مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومَنْ غزاهم، ويهيِّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم؛ فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شاعرهم.

ولقد كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، والعرب إليه أحوج؛ لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذ الشعراءُ الشعر مكسبة، ورحلوا به إلى السوقة، وتسرّعوا إلى

---

(١) الحكم والحكمة سواء: العلم والفقه.

أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر(١).

وعلى الرغم من كثرة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا؛ فإن أبا عمرو بن العلاء يقول: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير». وربما يقصد أبو عمرو بذلك ما ضاع من الشعر الجاهلي بسبب الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور الكتابة والتدوين، ولأن عوادي الرواية عدت عليه؛ إذ إن الشعر البدوي اعتمد على الرواية الشفوية، وكان الشاعر يلقي قصيدته أو أشعاره، وله راوٍ محترف يتبعه ويحفظ قصائده ويرويها، وكثير من الشعراء كانوا رواة لآخرين. وقد أشار الجاحظ إلى أن «كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام... فما هو إلا أن يصرف (العربي) وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً (أي أفواجاً) وتنثال عليه انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه»(٢).

وحين تحديد العصر الذي يطلق عليه اسم «العصر الجاهلي» نجده يشمل الحقب والأزمنة السابقة على ظهور الإسلام، وما طرأ على الجزيرة العربية من الأطوار التاريخية في العصور القديمة الواقعة قبل الميلاد وبعده، ولكن القدماء والمحدثين حين يدرسون هذا العصر لا يتجاوز الفترة الزمنية الخاصة به أكثر من قرن ونصف من بعثة سيدنا رسول الله ﷺ؛ لأنها الفترة التي يعتقدون أن اللغة العربية صارت خلالها كاملة في خصائصها وطرق التعبير فيها، وهي الفترة نفسها التي وصل إلينا عنها الشعر الجاهلي. ويبدو أن المسئول عن هذا الجاحظ حين قال: «أما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول مَنْ نهج

---

(١) انظر: طبقات ابن سلام ٢٤ وما بعدها، والبيان والتبيين: ١/ ٤٥ و٤/ ٨٣، والعمدة: ١/ ٤٩.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٢٨.

سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجر، ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1].

وهناك بعض الأبيات التي تدل على أن الشعر له تاريخ سابق طويل، ومن ذلك قول عنترة في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراءُ من متردَّمِ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

والمتردَّم مأخوذ من قولنا ردَّم ثوبك؛ أي رقَّعه، ويقال: ثوب مردَّم؛ أي مرقع، ويريد عنترة أن يقول: هل ترك الشعراء شيئاً إلا وقد قالوا فيه، فكفوك المؤونة. وقد أشار امرؤ القيس إلى من يسمي «ابن خِذام» الذي يعد أول من بكى الديار، ووقف على الأطلال. قال:

عُوجَا على الطلل المحيل لعلنا تبكي الديارَ كما بكى ابنُ خِذامِ[2]

وقال زهير بن أبي سُلمى:

ما أرانا نقولُ إلا مُعاراً أو معاداً من قولنا مكرورا[3]

ثانياً: ارتبط الشعر الجاهلي منذ أقدم عصوره بالغناء؛ لذلك نجد أبا النجم يخاطب قينة بالغناء كما غنى امرؤ القيس، وعمرو بن قَميئة. قال:

تَغَنَّيْ؛ فإنَّ اليومَ يومٌ من الصِّبا ببعض الذي غنَّى امرؤ القيس أو عمرو

وقال حسان بن ثابت:

تغنَّ بالشعر إما كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعرِ مضمارُ

---

(١) الحيوان: ١/٧٤.

(٢) عوجا: اعطفا، المحيل: الذي أتى عليه أحوال.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية: ١٣/٣٠٤.

وتوقف إسحاق الموصلي أمام الغناء عند العرب القدماء، موضحاً أنواعه بقوله: «غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه: النَّصْب، والسِّناد، والهزج. فأما النصب فغناء الركبان والقينات، وهو الذي يستعمل في المراثي، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وأما الهزج فالخفيف الذي يُرقص عليه، ويُمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم. هذا كان غناء العرب قديماً، حتى جاء الله بالإسلام، وفُتحت العراق، وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم، وتغنّوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير»[1].

ويشير هذا النص إلى أن الغناء بأنواعه أو أوجهه الثلاثة له اتصاله المباشر بالمناسبة التي يستعمل فيها، والوزن الشعري المختار له؛ لذلك كان النَّصْب خاصّاً بالمراثي، وأبياته على وزن الطويل، والسِّناد تكثر فيه النغمات والنبرات مع استعمال الآلات الموسيقية، والهزج يختص بالرقص، وهو على وزن الهزج أحد بحور الشعر العربي.

ويرى القدماء أن كلام العرب كان كله منثوراً، ثم توصلوا إلى الشعر الذي كان الغناء الأساس في تعلمه وتحصيله. يقول ابن رشيق: «كان الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد؛ لتهز نفوسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به؛ أي فطنوا له»[2]. وأشار الباقلاني إلى أن العرب بدأوا بالنثر، وتوصلوا منه إلى الشعر، وكان

---

(١) العمدة: ٢/ ٢٤١.

(٢) السابق: ١/ ٥.

عثورهم عليه في الأصل بالاتفاق، غير مقصود إليه، فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه، والنفوس تتقبله، تتبعوه وتعلموه وتكلفوا له.

وهناك نوع من الغناء الشعبي العام يطلق عليه اسم «الحُداء»، وهو الذي كانوا يحدون به وراء إبلهم في أسفارهم وترحالهم من مكان إلى آخر. وعرفوا الغناء الديني الذي كانوا يرتلونه في أعيادهم الدينية.

وكان نساؤهم يتغنين في الحفلات، ويلعبن على المزاهر، وقد سمع الرسول ﷺ ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير، وحين سأل عنه عرف أنه عُرْس، وكن يضربن على الدفوف، وهن على هيئة جوقة كبيرة تحمّس وتثير في الحروب، وكانت هند بنت عتبة ونسوة قريش يضربن على الدفوف في «غزوة أحد»، وهند تغني ببعض المقطوعات مثل:

إن تُقبلوا نعانقْ	ونفرشِ النمارِقْ
أو تدبروا نفارقْ	فراقَ غيرِ وامقْ[1]

ثالثاً: اهتم العرب بالماء والمصادر التي تأتي منها، واعتمدوا على الآبار ومياه الأمطار للحصول عليها، وكانت لهم ألفاظ تدل على هذا، وضعوها في الرسائل اللغوية التي دارت حول البئر والمطر. ونالت الأزمنة عنايتهم لصلتها بالمطر، واهتموا بالأنواء[2] لصلتها بحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والبيئية التي عاشوا فيها، وهي حياة ترتكز على الرحلة في طلب الكلأ، والفرار من الجدب إلى مواطن المرعى، والرحلة لتيسير بعض القوافل التجارية من أقصى الجزيرة العربية إلى أدناها، ثم ما كانت ترتبط به حياتهم من شهور حج وغزو

---

(١) النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة، والطنفسة، والوامق: المحب.

(٢) النوء: النجم إذا مال للغروب، والمطر الشديد.

وعبادة وإغارة. يقول الجاحظ: «وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء؛ لأن مَنْ كان بالصحاصح الأماليس[1]؛ حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشقة، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه[2]، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً، وما يسير منها فارداً[3]، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً. وسئلت أعرابية فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله! أما أعرف أشباحاً وقوفاً كل ليلة. ووصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس، فقال قائل لشيخ عِبادي كان حاضراً: أما ترى هذا الأعرابي يعرف من النجوم ما لا نعرف؟ قال: مَنْ لا يعرفُ أجذاع[4] بيته؟!»[5].

وقال صاعد بن أحمد: «كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم»[6].

رابعاً: عرف العرب في العصر الجاهلي ما يسمى بـ«أسواق العرب»، وهي مكان يتبادلون فيه الآراء المختلفة، ويعرضون فيه

---

(1) الصحاصح: الأرض المستوية، والأماليس: التي ليس بها ماء ولا شجر.
(2) يؤديه: يعينه.
(3) فارداً: منفرداً.
(4) الأجذاع: سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(5) الحيوان: ٦/ ٣٠.
(6) طبقات الأمم: ٤٥.

الأفكار المتنوعة، ويتعارفون فيما بينهم؛ بالإضافة إلى أن مَنْ له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة. وكانت تلك الأسواق عامرة بفن القول الذي ليس للعرب فن أرقى منه؛ لذلك احتل النصيب الأوفر فيها، وكانوا يستمعون إلى روائع الشعر والنثر، ويتباهون بالفصاحة ويفخرون بالبلاغة حين الأداء اللغوي، ويعد سوق عكاظ أهم تلك الأسواق، وقد ألقى فيه قُس بن ساعدة خطبته المشهورة التي سمعها الرسول ﷺ[١]، وعمرو بن كلثوم معلقته المعروفة؛ لذلك لم تكن أسواق العرب أماكن للتجارة فحسب، وإنما هي ميادين للخطابة والشعر.

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون في تلك الأسواق، ومن بينهم النابغة الذبياني الذي نال شهرة واسعة بين الشعراء، وحظى بتقديرهم واحترامهم في الجزيرة العربية، ويعود ذلك إلى أن النابغة فيه حكمة، وهي مبثوثة في ثنايا شعره، وحرم الخمر والأزلام. وكان يضرب للنابغة قبة من أَدَم (جلد) بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. قال أبو الفرج: «كان يُضرَبُ للنابغة قُبَّة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ[٢]

فقال: واللّهِ لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلتُ إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال: واللّهِ لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: يابنَ أخي إنك لا تحسن أن تقول:

---

(١) سوف نشير إلى تلك الخطبة فيما بعد.

(٢) تقصد الخنساء بالعلم: الجبل.

فإنك كالليلِ الذي هو مدركي   وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ   تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ[1]

فخنس[2] حسان لقوله»[3]. وهناك رواية أخرى تقول: إنه لما غضب حسان، وقال للنابغة: أنا أشعر منك ومن أبيك، قال له: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول... ثم أنشده حسان بيتين من الشعر أحدهما قوله:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعْنَ بالضحى   وأسيافُنا يقطرْنَ من نجدةٍ دَمَا

قال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قلت الجفنات، فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت يقطرن من نجدة دماً، فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم».

وقد تضمنت تلك الرواية بعض الجوانب المتصلة بالأداء اللغوي عند حسان الذي لم يوفَّق في استعمال بعض الألفاظ والتراكيب في بيت الشعر السابق من وجهة نظر النابغة؛ إذ إنه استعمل جمع المؤنث السالم «الجفنات» وهو يدل على القلة في حين أن «الجفان» تدل على الكثرة، والتركيب النحوي «يبرقْنَ بالدجى» أبلغ من «يلمعن في الضحى»؛ لأنه يناسب المقام أكثر؛ فالضيفان إنما يفدون من غير الوقت الذي ذكره حسان، وهم بالليل أكثر طروقاً... وهكذا.

---

(١) خطاطيف: جمع خُطَّاف، وهو كل حديدة معوجة تستخدم لاستخراج الدلاء من البئر، وحجن: جمع حجناء، وهي المعوجة، ونوازع: جواذب، ويريد النابغة بذلك قصائده التي يستعطفه بها.

(٢) يقال: خَنَسَ خَنْساً، بمعنى انخفضت قصبة أنفه مع ارتفاع قليل في قصبة الأنف.

(٣) الأغاني: ٦/١١.

وربما تكون الرواية السابقة من تزيدات اللغويين وإضافات الرواة؛ لأننا لا نجد روايات أخرى تماثلها في كتب الأدب والنقد والبلاغة والطبقات والتراجم؛ بحيث نستطيع أن نقول إن العرب في العصر الجاهلي عرفوا النظر اللغوي في الشعر، والتعامل المباشر مع النص، وإن كنا لا نستطيع أن ننفي عنهم صفة التذوق البلاغي للأساليب العالية، وحسن فهمها، مع وجود الحس اللغوي بالأعمال الفنية، وإن كانت الروايات لم تنقل إلينا ذلك، وإنما نستطيع التوصل إليه من إعادتهم النظر في القصائد قبل إخراجها للناس على نحو ما عند مدرسة «عبيد الشعر»، وسوف نعرض لذلك.

خامساً: انتشرت رواية الشعر عند العرب في العصر الجاهلي انتشاراً واسعاً، وكانت الرواية من معارفهم الأساسية، وهي الوسيلة الرئيسية في نفاذ الشعر ورواجه بين القبائل في شبه الجزيرة العربية، يقول المسيَّب بن علس:

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً ... مني مُغَلْغَلَةً إلى القعقاع[1]
تَرِدُ المياه فما تزالُ غريبةً ... في القوم بين تمثُّل وسماعِ

ويشير الشاعر إلى أن قصيدته سوف تنفذ في الناس، وتلقى رواجاً بينهم حين يتمثلون بأبياتها ويستمعون إليها. ويبدي الشاعر عَميرة بن جُعَل ندمه في قوله:

نَدِمْتُ على شتمِ العشيرةِ بعدما ... مضتْ واستتبَّتْ للرواةِ مذاهبُه
فأصبحتُ لا أسْطيعُ دفعاً لما مضى ... كما لا يردُّ الدَّرَّ في الضَّرْعِ حالبُه

لأنه هجا قومه، وانتشر هذا الهجاء وشاع بين القبائل وعلى ألسنة الناس، ولم يستطع له ردّاً بعدما ذهب على ألسنة الرواة.

(١) مع الرياح: تعبير مجازي فائدته الدلالة على رواج قصيدته، ومغلغلة: نافذة بين الناس كلهم.

وهناك بعض القبائل التي روت شعر شعرائها، ومن أولئك بنو تغلب الذين رووا معلقة شاعرهم عمرو بن كُلثوم، وبالغوا في تلك الرواية؛ لأنها كانت في الفخر، وظلوا يعظمونها، ويرويها صغارهم وكبارهم، حتى هجاهم بعض الشعراء من بكر بن وائل بذلك في قوله:

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يروونها أبداً مذ كان أولهم ... يا للرجالِ لشعرٍ غيرِ مسئومِ

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هي طبقة الشعراء أنفسهم؛ فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروي عنه شعره، وما يزال يروي له ولغيره حتى يتفتق لسانه، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن. ونص (صاحب الأغاني) على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي؛ فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني، وكان له روايتان كعب ابنه والحطيئة، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدبة بن خَشْرَم العُذْري، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة[1].

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة في الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها، ومن أهم ما يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة في شرقي الجزيرة وغربيها. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروي خلفهم شعر سلفهم، ونص القدماء على ذلك في غير شاعر؛ فقالوا إن الأعشى كان رواية لخاله المسيَّب بن

(١) الأغاني: ٨/ ٩١.

علس وكان يأخذ منه، وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جُؤية الهذلي، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم[1].

سادساً: اهتم بعض الشعراء في العصر الجاهلي بإعادة النظر في شعره من حيث تنقيح الألفاظ والعبارات والجمل وتهذيبها قبل إخراجه للناس، ويعد زهير بن أبي سلمى مثالاً لهؤلاء الشعراء ونموذجاً يحتذى؛ فقد روى شعر زوج أمه أوس بن حَجر الشاعر التميمي المعروف، وروى شعر طفيل الغنوي الذي اشتهر بوصف الخيل والصيد، وروى كذلك شعر خاله بَشامة بن الغدير، وعلّم زهير ابنه كعباً الشعر، وكذلك الحطيئة.

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خَبَرَ صناعة الشعر الجاهلي وعرف أساليبها، واستطاع أن يؤدي أجمل صورة لها في لفظه وقوالبه وصيغه، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة؛ فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة في حول كامل، وإنه صنع سبع حوليات[2]، وينسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه فيقول: «كان زهير بن أبي سلمى يسمي كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك[3]، وقال الأصمعي: «زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من جوَّد في شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة»[4]. ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره في موضع آخر فيقول: «من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده

(١) الدكتور شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٤٢ وما بعدها.

(٢) ابن جني: الخصائص ١/ ٣٢٤.

(٣) يقصد شعر أستاذه زهير وشعره.

(٤) البيان والتبيين: ٢/ ١٣.

حولاً كريتاً[1]، وزمناً طويلاً، يردِّد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلِّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوَّله الله من نعمته، وكان يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات؛ ليصير قائلها فحلاً خِنذيذاً[2]، وشاعراً مفلقاً»[3].

وسواء سمَّى زهير قصائده الطويلة بالحوليات، أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته؛ فقد أحسوا فيها بجهد شديد، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفذ آماداً بعيداً من الزمن، وتخيلوها حولاً كاملاً، ومضوا يسمون زهيراً والحطيئة وأضرابهما «عبيد الشعر» لما شعروا عندهم من طول الثِّقاف والتنقيح والتجويد والتحبير، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم؛ فهم عبيد فن الشعر، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطْوَى في هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ. والحق أن صياغة زهير تستوفي حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التي قد تؤذيه، والذي لا ريب فيه أنه كان يستولي على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات، وما يزال ينسقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر[4].

سابعاً: الأمثال وَشْي الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْي المعاني، والتي تخيرتها العربُ، وقدمتها العجم، ونُطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان؛ فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، ولم يسر شيء

(١) كريتاً: كاملاً.
(٢) خنذيذاً: كاملاً.
(٣) البيان والتبيين: ٢/ ٩.
(٤) العصر الجاهلي: ٣٢٧ وما بعدها.

مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أَسْيَرُ من مثل، وقال الشاعر:

ما أنت إلا مثلٌ سائر   يعرفه الجاهلُ والخابر[1]

وهي من معارف العرب المهمة في العصر الجاهلي، وكانوا يسوقون المثل مع الإشارة إلى القصة أو المناسبة التي قيل فيها، أو الأسطورة التي تمخض عنها المثل، ومن ذلك قولهم «جزاء سِنِمَّار»، وحول أصل هذا المثل يقول أبو عبيد القاسم بن سلام: «وكان من حديثه (أي سنمار) فيما يحكيه العلماء أنه كان بنَّاء مجيداً، وهو من الروم، فبنى الخورنق الذي بظهر الكوفة، للنعمان بن امرئ القيس، فلما نظر إليه النعمان كره أن يعمل مثله لغيره، فألقاه من أعلى الخورنق، فخرميتاً، وفيه يقول القائل:

جَزَتْنَا بنو سعد بحسنِ بلائنا   جزاءَ سنمارٍ، وما كان ذا ذنب

ويقال: إنه (أي سنمار) قال للنعمان: إنْ أخذتَ هذا الحجر من هذا الموضع من البناء تداعى كله فسقط، فقتله لذلك»[2].

ومن القدماء ممن كان يُذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْرَاء (أي الفطنة) «لقمان عاد»؛ تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف، وهو غير لقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، ومن أقواله: رب أخٍ لك لم تلده أمُّك، وآخر الدواء الكيُّ.

ومن حكماء العرب في العصر الجاهلي أكثم بن صيفي، وله بعض الأمثال والحِكَم، ومن بينها ما يأتي:

- رُبَّ عُجلةٍ تهب رَيْثاً[3].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٦٦.

(٢) الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ٢٤٣.

(٣) الريث: البطء: أي ربما تؤدي العجلة إلى تفويت الحاجة على صاحبها.

- ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفى للويل.
- المرء يعجز لا محالة.
- لا جماعة لمن اختلف.
- لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح؛ فإنه كفى بالمشرفية واعظاً.
- أسرع العقوبات عقوبةُ البغي.
- شر النُّصرة التعدِّي.
- آلم الأخلاق أضيقها.
- أسوأ الآداب سرعة العقاب.
- رب قول أنفذ من صَوْل.
- الحرحر وإن مسَّه الضر.
- العبد عبد وإن ساعده الجد[1].
- إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد.
- رب كلام ليس فيه اكتتام.
- حافظ على الصديق ولو في الحريق.
- ليس من العدل سرعةُ العذلِ.
- ليس بيسير تقويم العسير.
- إذا بالغت في النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة.
- لو أنصف المظلوم لم يبقَ فينا مَلُوم.
- قد يبلغ الخَضْم بالقَضْم.
- استأن أخاك فإن مع اليوم غداً.
- كل ذات بَعْل ستئيم[2].
- الحر عزوف.

---

(١) الجد: الحظ.

(٢) تئيم: يهلك عنها زوجها.

لا تطمع في كل ما تسمع.

وعرف العرب في العصر الجاهلي الوصايا، وهي عبارة عن مجموعة من الحكم والنصائح التي تفيد الناس في حياتهم، وحين تعاملهم مع الآخرين، وربما يوجهها الأب إلى ابنه، أو الحكيم إلى قومه. يقول النعمان بن ثواب العبدي يوصي ابنه: «يا بني! إن الصارم ينبو، والجواد يكبو، والأثر يعفو؛ فإذا شهدتَ حرباً، فرأيتَ نارها تُسْعَرُ، وبطلها يخطر، وبحرها يزخر، وضعيفها يُنصر، وجبانها يَجْسُرُ، فأقلل المكث والانتظار، فإن الفرار غير عار، إذا لم تكن طالب ثار».

وقال ذو الإصبع العدواني يوصي ابنه: «ألِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارُهم، ويكبر على مودتك صغارُهم».

ومن شعراء العرب وخطبائهم عامر بن الظرب العدواني، وله وصية طويلة يقول في آخرها: «إني ما رأيتُ شيئاً قطُّ خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميتُ الناسَ الداءُ، لأحياهم الدواءُ»[1].

ثامناً: تعد الخطابة من معارف العرب في العصر الجاهلي التي استخدموها في مفاخراتهم بالأحساب والأنساب، ومنافراتهم، والحديث عن المآثر والمناقب، وهي من وسائل إظهار البراعة في فن القول، والامتلاك لناصية اللغة، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب[2].

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ٢/٢٥١.

(٢) انظر: البيان والتبيين ٣/٢٨.

وقد أثنى الشعراء على خطباء قومهم، ومدحوهم بالفصاحة والقدرة على التعبير البليغ؛ لأنهم عرفوا دورهم في الحياة الاجتماعية. يقول عامر المحاربي:

وهم يَدْعَمُونَ القولَ في كل موطنٍ   بكل خطيبٍ يتركُ القومَ كُظَّمَا
يقوم فلا يعيا الكلامَ خطيبُنا   إذا الكربُ أنسى الجِبْسَ أن يتكلما[1]

وحرص العرب في خطبهم على ربطها بالمقام، أو المناسبة التي تقال فيها، ويتصل هذا بطول الخطبة وقصرها. يقول الجاحظ: «اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المَدَر والوبر، والبدو والحضر، على ضربين منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومتشاكلًا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنتف الجياد... ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع»[2].

وقد تنوعت اتجاهات الخطابة في العصر الجاهلي، وكثرت المناسبات التي تستخدم فيها؛ فهي من وسائل الحض على القتال، ودفع القبائل إلى نيران الحرب. يقول أبو زُبَيْد الطائي:

وخطيبٍ إذا تمعَّرت الأو   جهُ يوماً في مَأْقِطٍ مشهودِ[3]

وهي في الوقت نفسه تستخدم في الدعوة إلى إصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، والابتعاد عن سفك الدماء. يقول ربيعة بن مقروم الضبي:

ومتى تقمْ عند اجتماع عشيرةٍ   خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

واستخدموا الخطابة حين الزواج، وكانت العادة أن يتقدم أحد

---

(١) كظماً: جمع كاظم، وهو الساكت غيظاً، والجبس: اللئيم.
(٢) البيان والتبيين: ٢/٧.
(٣) تمعرت الأوجه: اصفرت، المأقط: موضع القتال.

سادة العشيرة يخطب باسم مَنْ يرغب في الزواج الفتاةَ التي يود الاقتران بها، وأشار الجاحظ إلى أن خطبة قريش في الجاهلية للنساء هي: «باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم، لك ما سألت، ولنا ما أعطيت».

ويعد قُسّ بن ساعدة الإيادي من أشهر الخطباء في العصر الجاهلي، ويُضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة، وهو خطيب العرب كافة، وكان يتولى نصح قومه وإرشادهم، وله خطبة مشهورة قالها في سوق عكاظ، قيل إن سيدنا رسول الله ﷺ استمع إليها، وهي تمضي على هذا النحو:

«أيها الناس! اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليل داجٍ، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وبِر وآثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تركوا فناموا؟ وإلهِ قُسّ بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطوبى لمن أدركه، وويل لمن خالفه». ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين من الشعوب لنا بصائرْ
لما رأيتُ موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها تسعى الأصاغرُ والأكابر
لا يرجعَنْ قومي إليّ ولا من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القومُ صائر[1]

ومن الخطباء البلغاء، والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي،

---

(١) أشار ابن حجر (١/ ٢١٠) من السيرة الحلبية إلى أن خطبة قُس تعرضت لتزيدات الرواة، ومنها ما يدل على قرب مبعث الرسول ﷺ.

وربيعة بن حُذار، وهرم بن قُطبة، وعامر بن الظَّرِب، ولبيد بن ربيعة.

وللخطباء بعض السنن والتقاليد التي تعارفوا عليها في خطابتهم، ومن ذلك أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق والمجامع الكبار، وكانوا يمسكون بالعِصِيّ والقِسِي والسيوف، وقالوا إن قس بن ساعدة أول من اتكأ على سيف. وقد ربط الجاحظ حمل العصا حين الخطاب بالأداء اللغوي. قال: «إن حمل العصا والمخصرة[1] دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة؛ وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم، والمخاصر بأيديهم، إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها»[2]. وحمل العصا أو المخصرة له وظيفة لغوية هي «الإشارة» التي قد يكون لها بعض الدلالات والمعاني التي لا يمكن التوصل إليها من اللغة المنطوقة، ولذلك قالوا: رب إشارة أبلغ من عبارة.

وهناك مجموعة من الأدوات اللغوية التي يجب توافرها في الخطيب؛ فلا بد أن يكون على قدر كبير من الفصاحة، بيِّن اللسان حين الأداء اللغوي حتى يستطيع التأثير في مستمعيه؛ لذلك قالوا: البيانُ في اللسان البلاغةُ، وقال الشاعر يمدح رجلاً ويذكر المنابر:

خِرْقٌ إذا رَقِيَ المنابرَ مِصْقَعٌ ... ويزينُها بفصاحةٍ وبيانِ[3]

ويجب أن يتمتع الخطيب بجهارة الصوت وقوته، وأن تكون مخارج أصواته واضحة ولديه المقدرة على التحكم في طبقات صوته،

(١) المخصرة: ما يتوكأ عليها كالعصا ونحوها، أو قضيب يشاربه في أثناء الخطابة والكلام.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١١٧.

(٣) الخرق: الفتى الظريف في سماحة ونجدة، والمصقع: البليغ يتفنن في مذاهب القول.

حتى يستطيع الناس أن يفهموه، ويضاف إلى ذلك حضور البديهة، وثبات الجنان، وقلة التلفت.

وهناك بعض عيوب النطق وأمراض الكلام، ولا بد أن يكون لسان مَنْ يتولى الخطابة سليماً منها. قال الأصمعي: «إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء... قال الشاعر:

لستُ بفأفاءٍ ولا تمتامِ ... ولا كثيرِ الهُجْرِ في المنامِ[1]

أما ثابت بن أبي ثابت فقال عن التمتام: الذي في لسانه تمتمة، وهو ثقل وترديد في التاء. قال ربيعة الرقي:

ولا يحسبُ التمتامُ أني هجوتُه ... ولكنني فضّلتُ أهلَ المكارمِ

وأشار غيرهما إلى أن التمتام الذي يَعْجَلُ في الكلام ولا يفهمك، أما الفأفاء فهو أن تسبق الرجلَ كلمتُه إلى شفتيه، فيردها لشفتيه مراراً لا يفصح بها.

ويجب أن يبتعد الخطيب عن الإكثار من مسّه لذقنه وشواربه ولحيته. قال معن بن أوس المزني:

إذا اجتمع القبائلُ جئتَ رِدْفاً ... وراء الماسحين لك السِّبالا

فلا تُعْطَيَنْ عصا الخطباءِ فيهم ... وقد تكفي المقادةَ والمقالا[2]

تاسعاً: هناك بعض الروايات التي تدل على أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا الكتابة، ولكن في حدود ضيقة؛ لأنهم كانوا يرحلون في البادية بحثاً عن الكلأ وموارد المياه، في حين أن الكتابة تحتاج إلى الاستقرار والإقامة الدائمة في أماكن معينة، حتى يسهل تعلمها لمن لم

---

(١) الهجر: الهذيان والقبيح من الكلام.

(٢) السبال: جمع سَبَلَة وهي مقدم اللحية، وهو يهجو المقصود بهذا الشعر بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً.

يعرفها، وانتشارها بين القوم، ويمكن الاستدلال على معرفة العرب للكتابة بما يأتي:

١ ـ كان للعرب بعض الصحف التي يدونون فيها الأمثال والحكم والوصايا، والدليل على ذلك ما يُروَى من أن «سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجًّا أو معتمراً، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليَّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا لكلامٌ حسنٌ، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله عليَّ، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُدْ منه، وقال: إن هذا القول حسن...»[1].

٢ ـ شاع في الشعر الجاهلي تشبيه رسوم الديار بالوحي أو الكتابة في الحجارة الرقيقة أو نقوشها، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامري في مطلع معلقته:

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها ... بمنًى تأبَّد غَوْلُها فرِجَامُها
فمدافعُ الريانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها
وَجَلا السيولُ عن الطلولِ كأنها ... زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها[2]

ولبيد يشبه الآثار الباقية من الديار بالكتابة على السِّلام وهي الحجارة الرقيقة، وحين جاءت السيول أزالت التراب عن الطلول؛

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٨٦٨

(٢) عفت: زالت وامَّحت، المَحَل: مصدر ميمي بمعنى المكان الذي يُحل فيه، والمقام: موضع الإقامة، ومنى: اسم موضع، والغول والرجام: جبلان أوموضعان، ومدافع الريان: موضع، والرسم: الأثر الباقي من الدار، والخَلَق: الدروس، والوُحِيّ: جمع وَحْي بمعنى الكتابة والوحي، والسِّلام: الحجارة الرقيقة، والزبر: جمع زبور وهو الكتاب، وتجد: تجدد.

فصارت آثار الديار تشبه الكتب المطموسة؛ فأعيد بعضها على بعض وتُرك ما تبيَّن منها، فهي مختلفة.

وقال المرقِّش الأكبر:

الـدارُ قَـفْـرٌ والـرسـومُ كـمـا رقَّـش في ظـهـر الأديـم قـلـم[1]

وقال سلامة بن جندل:

لمن طللٌ مثل الكتابِ المنمَّقِ خلا عهدُه بين الصُّلَيْبِ فمُطْرِقِ[2]

٣ ـ أشار القدماء إلى أنَّ المعلقات كانت تُكتب على الرقاع، وتعلق على جدران الكعبة. قال ابن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨هـ): «حتى لقد بلغ من كلف العرب به (أي بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي[3] المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات السبع، وقد يقال لها: «المعلقات».

ويرى عبد القادر البغدادي (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣هـ) أن الشاعر الذي تستحسن القبائل شعره في موسم الحج يكتب ويعلّق على أحد أركان الكعبة. قال: «ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به، ولا ينشده أحد، حتى يأتي مكة في موسم الحج، فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه رُوِيَ وكان فخراً لقائله وعلّق على ركن من أركان الكعبة حتى يُنظر إليه، وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يعبأ به. وأول من علّق

(١) رقش: زين ونمق.

(٢) الصليب ومطرق: موضعان.

(٣) القُبطية: ثياب من كتان بيض رقاق، كانت تنسج بمصر، وهو منسوبة إلى القبط، والجمع: قباطي؛ بضم القاف أو فتحها.

شعره في الكعبة امرؤ القيس، وبعده علقت الشعراء»[1].

٤ ـ كان مَنْ يكتبون بين يدي الرسول ﷺ الوحي، وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين، وأولئك الصحابة الكرام كانوا يعرفون القراءة والكتابة في العصر الجاهلي، وحين دخلوا في دين الله، وأظلهم الإسلامي الحنيف أصبحوا كُتَّاباً للوحي وغيره.

ومن الأمور المعروفة في السيرة النبوية العطرة أن الرسول ﷺ جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

٥ ـ ربما لجأ الشعراء الذي ينتمون إلى مدرسة «عبيد الشعر»، والذين اهتموا بتهذيب شعرهم وتنقيحه من أصحاب «الحوليات» إلى كتابته؛ حتى يمكنهم إعادة النظر فيه قبل إنشاده في المحافل الشعرية والأسواق الأدبية.

عاشراً: انتشرت في العصر الجاهلي طائفة من الكهان تزعم أنها تطلع على الغيب، ولديها المقدرة على معرفة ما يأتي به الغد عن طريق تابع من الجن يسمى «الرَّئِيّ» يوحي إليها. وقد اكتسب هؤلاء الكهان صفة القداسة الدينية؛ لأنهم كانوا يخدمون أصنامهم وأوثانهم؛ لذلك كانوا يلجأون إليهم في كل شئون الحياة وأمورها المختلفة، ويستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم، ومن تلك الشئون وفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة، أو قعود عن نصرة أحلاف، أو نهوض لحرب. وكان العرب يتخذون هؤلاء الكهان حكاماً في الخصومات والمنافرات التي تنشأ فيهما بينهم، وتجاوزت شهرة بعضهم القبائل التي

---

(١) هناك رأي يقول: لم يثبت ما ذكره الناس من أن القصائد السبع كانت معلقة على الكعبة.

ينتسبون إليها إلى القبائل الأخرى المجاورة، وقصدهم الكثيرون من المناطق النائية.

وهناك طائفة من النساء وهبْنَ أنفسهن للآلهة ومعابدها، أصبحن فيما بعد كاهنات، ومن أشهرهن «زَبْراء» كاهنة بني رِئام التي أنذرتهم غارة عليهم بقولها: «واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمُزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلًا، ويحرُقُ أنياباً عُصْلًا، وإن صخر الطَّوْد لينذرُ ثُكلًا، لا تجدون عنه مَعْلًا»[1].

وكان هؤلاء الكهان يعتمدون في كلامهم على السجع. يقول الجاحظ عن كاهن يسمَّى «عُزَّى سَلِمة»: «أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبي حية، وهو الذي يقال له عزَّى سلمة»، ومن قوله: «والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعةً ببقعاء، لقد نفَّر المجدُ بني العُشَراء، للمجد والسناء»[2].

وقد لجأ هؤلاء الكهان في أسجاعهم إلى اختيار ألفاظ غامضة المعنى، مبهمة الدلالة؛ لأن مجال تأويلها أكثر اتساعاً من غيرها؛ لذلك يمكن لكل مستمع تأويلها حسب حاجته وظروفه وفهمه، وهذا نوع من أنواع الخداع للمستمعين؛ بالإضافة إلى أن وضوح الدلالة يتعارض مع تنبئهم الذي يتركز على الإبهام والغموض والوهم.

والذي نريد أن نخلص إليه أن «سجع الكهان» كان من معارف

---

(١) الغاسق: الليل إذا غاب الشفق واشتدت ظلمته، والمزن: السحاب يحمل الماء، والوادق: المطر، ويأدو: يختل؛ أي يخدع، والعُصل: المعوجة، المعل: البُدُّ. والنص مذكور في الأمالي لأبي علي القالي: ١/ ١٢٦.

(٢) العقاب: طائر من كواسر الطير حاد البصر، والصقعاء: الشمس، بقعاء: موضع، نفر: حكم بالغلبة.

العرب في العصر الجاهلي، وأنه انتشر في البيئة العربية، وعلى ألسنة الناس؛ ولذلك قرن بعض قريش القرآن الكريم في أول نزوله بهذا السجع، وجاء الرد حاسماً بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾[1].

حادي عشر: من أهم الظواهر الاجتماعية التي طبعت حياة العرب في العصر الجاهلي الحروبُ المستمرة بين القبائل، وكان الأخذ بالثأر شريعتهم المقدسة؛ لأنه قانون تعارفوا عليه، ويخضع له جميع أفراد القبيلة، ولا يمكن لأي فرد الخروج عليه أو نقضه. وكانت الحروب تبدأ صغيرة ضعيفة، ثم تقوى وتتسع دائرتها بمرور الزمن، ولا يستطيع أحد الفرار منها، أو اتقاء شرها؛ فالجميع يصطلون بنارها، وهي عندهم أمنية غالية، وغاية نبيلة؛ لذلك كانوا يترامون فيها ترامي الفراش. وقد اصطلحت كتب الأدب والتاريخ على تسمية الحروب والوقائع التي نشبت فيما بينهم بـ«أيام العرب»؛ لأنهم كانوا يتقاتلون نهاراً، فإذا ضمهم الليل وقفوا القتال حتى يأتي الصباحُ بنوره.

وكانت تلك الحروب والأيام تسمَّى بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها، أو بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل:

١ - يوم عين أباغ: وكان بين المناذرة والغساسنة.

٢ - يوم ذي قار: وكان بين بكر والفرس.

٣ - يوم شِعْب جبلة: وكان بين عبس وأحلافها من بني عامر، وذبيان وأحلافها من بني تميم.

٤ - حرب البسوس: بين قبيلتي بكر وتغلب، ونشبت بسبب اعتداء كليب سيد تغلب على ناقة للبسوس خالة جَسَّاس بن مرة سيد بني بكر، ويقال إن تلك الحرب استمرت أربعين سنة.

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٠ - ٤٢.

٥ - حرب داحس والغبراء: ونشبت بسبب سباق على رهان بين الفرسين، فسميت باسميهما.

وقد أثرت تلك الأيام في الحياة الفكرية عند العرب في العصر الجاهلي، وأصبحت من معارفهم الأساسية، والخوض فيها، والحديث عن الأمور المحيطة بها، والأسباب التي أدت إلى نشوبها من الأمور المحببة إلى نفوسهم، وقد حفظوا الأشعار التي قيلت فيها؛ لذلك أشار بعض مؤرخي تاريخ الأدب إلى أن الآداب العربية ثلاثة: الشعر، والنسب، وأيام العرب[١]، وهي من مآثر الجاهلية، ومكارم الأخلاق السنية على حد تعبير بعضهم[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) الحصري القيرواني: زهر الآداب ١/ ١٤٠.

(٢) العقد الفريد: ٥/١٢٩.

الفصل الثالث

نشأة الدراسات اللغوية عند العرب

نشأة الدراسات اللغوية عند العرب

نشأ الدرس اللغوي عند العرب في رحاب القرآن الكريم؛ لأن العلماء المسلمين توقفوا أمام الكتاب العزيز محاولين فهمه، والتوصل إلى معانيه، وهذا لا يتأتى لهم إلا بدراسة اللغة الشريفة التي نزل بها؛ لذلك وجدنا علوماً لغوية كثيرة نشأت في رحابه، متخذة من آياته الكريمة نقطة الانطلاق، ومن بين تلك العلوم ما يتصل بمحاولة معرفة معاني ألفاظه، وإعرابه، وقراءاته، وتفسيره وغير ذلك.

ونشير إلى أن القدماء كانوا يجمعون على أن «القرآن كلام الله وتنزيله، فصَّل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، مما يأتون ويذرون، ولا سبيل إلى علمه، وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة»[1]. وأكَّد أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) على أهمية فقه اللغة الشريفة التي نزل بها الكتاب الكريم، وضرورة النظر في علومها، وجعل ذلك واجباً على كل من يتعلق بعلم آي الذكر الحكيم، والسنة المطهرة، والفتيا. يقول: «إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه؛ وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربي؛ فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسول الله ﷺ من

(١) السيوطي: المزهر ٢/٣٠٢.

كلمة غريبة، أو نظم عجيب لم يجد من العلم بالآلة بُدّاً»[1].

ويرى الأوائل من علماء المسلمين أن علم كتاب الله تعالى، والتبحر في دراسة لغته الشريفة، يعد في أعلى طبقة من طبقات العلم والمعرفة، والإقبال على فهم تلك اللغة من الديانة، وهو أمر واجب على كل مسلم؛ فالإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) يقول: «فإن مَنْ أدرك علم أحكام الله في كتابه نصّاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَبُ، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة»[2].

وأكد على أهمية دراسة لغة القرآن الكريم أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) في قوله: «فإن مَنْ أحبَّ الله أحب رسوله المصطفى ﷺ، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العربَ أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب، ومَنْ هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومِفْتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة، وسائر المناقب كالينبوع للماء، والزند للنار، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها وتصاريفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة التبصر في إثبات النبوة الذي هو عمدة الإيمان لكفى بها فضلاً يحسن أثره، ويطيب في الدارين ثمره»[3].

---

(١) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ٦٤.

(٢) الرسالة: ١٩.

(٣) فقه اللغة وسر العربية: ٢.

وقد بدأ الاهتمام بالنظر اللغوي في آي الذكر الحكيم منذ عهد الرسول ﷺ، وانصرف هذا الاهتمام - في الأغلب - إلى محاولة معرفة دلالة الألفاظ، وتدبُّر معانيها، وقد قال الرسول ﷺ: «مَنْ قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قرأه بغير إعراب، كان له بكل حرف عشر حسنات». وأشار العلماء إلى أن المراد بالإعراب في الحديث الشريف، معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة؛ لأنَّ القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها.

وكان الرسول ﷺ المفسِّر الأول للقرآن الكريم؛ لذلك حين تحدث ابن خلدون في مقدمته عن نشأة علم التفسير قال: «وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أسلوب بلاغاتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملًا جملًا، وآياتٍ آياتٍ؛ لبيان التوحيد والفروق الدينية بحسب الوقائع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم، ومنها ما يتأخر، ويكون ناسخاً له، وكان النبي ﷺ يبين المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرِّفه أصحابه، فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات، ومقتضى الحال منقولًا عنه»[1].

ويشير نص ابن خلدون إلى أن العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم، كانت لديهم المقدرة على فهمه ومعرفة معانيه من حيث الألفاظ المفردة، والتراكيب النحوية، وكانوا يعرفون ما فيه من البلاغة والإعجاز الذي لا يقدر على مثله إنس ولا جان، ولكن ليس معنى ذلك أن جميع العرب كانوا يفهمون القرآن الكريم عند نزوله، ولذلك كان الرسول ﷺ يبين ما ورد مجملًا، ويعرفهم بالناسخ والمنسوخ،

---

(١) المقدمة: ٢١٤.

ويوضح لهم ما يتصل بأسباب النزول؛ بالإضافة إلى بيان معاني مفرداته التي لم يستطيعوا التوصل إليها؛ فقد سأل أعرابي الرسول ﷺ عن معنى بعض الألفاظ في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] قائلاً: وأيُّنا لم يظلِم نفسه؟ وقد فسّره ﷺ بالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2].

ومن هنا فإن القرآن الكريم إنما أُنزل بلسان عربي مبين، في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، من سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر، وقد آتاه العلي القدير الكتاب العزيز، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

وقد أشار ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) إلى الاهتمام بغريب القرآن الكريم، ودور الرسول ﷺ في توضيحه وتفسيره، ثم دور الصحابة والتابعين في هذا المجال. قال: «واستمر عصره ﷺ إلى حين وفاته على هذا السنن المستقيم، وجاء العصر الثاني، وهو عصر الصحابة، جارياً على هذا النمط، سالكاً هذا المنهج، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً، لا يتداخله الخلل، ولا يتطرق إليه الزلل، إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبش والنبط وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهم، فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسن، وتداخلت اللغات، ونشأ بينهم الأولاد، فتعلموا من اللسان العربي ما لا بد لهم في الخطاب منه، وحفظوا من اللغة ما لا غنى لهم في المحاورة عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه، وأهملوه لقلة الرغبة في الباعث عليه، وتمادت الأيام والحالة هذه على ما فيها

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

من التماسك والثبات، واستمرت على سنن من الاستقامة والصلاح، إلى أن انقرض عصر الصحابة والشأن قريب، والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب، وجاء التابعون لهم بإحسان فسلكوا سبيلهم، لكنهم قلوا في الإتقان عدداً، واقتفوا هديهم، وإن كانوا مدوا في البيان يداً، فما انقضى زمانهم - على إحسانهم - إلا واللسان العربي قد استحال أعجمياً أو كاد، فلا ترى المستقل به والمحافظ عليه إلا الآحاد».

وقد أدى ما طرأ على اللسان العربي من الفساد واللحن والعجمة إلى اهتمام جيل من كبار علماء المسلمين بالتأليف في غريب القرآن، وإمامهم في هذا ابن عباس - رضي الله عنهما - الذين سنتوقف أمام جهوده بالحديث التفصيلي.

التفسير بالمأثور:

اشتهر عشرة من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - بتفسير آي الذكر الحكيم، وبيان معاني المفردات، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وقد ظهر التفسير بالمأثور؛ لأنهم اهتدوا بهدي الرسول ﷺ، وما أُثر عنه، وكانوا أكثر فهماً للقرآن الكريم، وأعمق نفوذاً في الإحاطة بدقائقه، والإلمام بإشاراته من غيرهم.

وكان بعض الصحابة يتحرج من تفسير الألفاظ القرآنية وبيان معانيها؛ فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي يعد من أفصح قريش، يُسأل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[1] فيقول: «أيُّ أرضٍ تظلني، وأي سماء تقلني، إن قلتُ في كتاب الله ما لم أعلم». وقد علّق بعض المفسرين على موقف سيدنا أبي بكر

(١) سورة النساء: ٨٥.

بقوله: «إن أبا بكر - رضي الله عنه - عظم في صدره القرآن، وجلَّ قدره عن أن يتكلّم فيه لغير موضع الحاجة التي لا بد منها، ولم يأمن أنه إن أبدل بهذه اللفظةِ لفظةً أخرى، لعلها لا تقع موقع الأولى في إبلاغ الوصف».

وقرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على المنبر ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[1] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأَبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر[2]. وقد علل بعض المفسرين موقف سيدنا عمر في ضوء خشيته، إن فسر اللفظة بمعنى من معانيها، أن يكون المراد غيره؛ لأن (الأب) من الألفاظ المشتركة في اللغة؛ بالإضافة إلى تخويف غيره من التعرض للتفسير بما لم يعلم.

ويعد الإمام علي - رضي الله عنه - من أكثر الصحابة معرفة بمعاني ألفاظ القرآن الكريم، وتفسير آياته، يدلنا على ذلك قوله: «لو أردت أن أملي وِقْر بعير على (الفاتحة) لفعلت»، وقوله: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيمَ أُنزلت، وأين أُنزلت؛ إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سئولاً»، وقال في إحدى خطبه: «سلوني عن كتاب الله؛ فواللّهِ ما من آية إلا أنا أعلمُ أَبليلٍ نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل»[3].

ونشير إلى أن الذين كتبوا في علوم القرآن الكريم توقفوا أمام عِلْم الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - واختصاص كل منهم بنوع مخصوص من العلم؛ فالإمام علي عُرف بالقضاء، وزيد بن ثابت بالفرائض، ومعاذ بن جبل بالحلال والحرام، وأُبيّ بن كعب بالقراءة.

---

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ١/١٤٩.

(٣) تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) ١/٣٥ وما بعدها. والوقر: الحمل الثقيل، وجمعه أوقار.

التفسير اللغوي:

يعد الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم الرسول ﷺ، والمتوفى بمدينة الطائف سنة ثمان وستين من الهجرة، أول من اتجه إلى التفسير اللغوي للقرآن الكريم، يساعده في ذلك إحاطته بالآثار الأدبية التي يمثلها الشعر وروايته، وكان له منهج واضح المعالم في هذا التفسير، يأتي على رأسه بيان معنى اللفظة القرآنية في ضوء أحد أبيات الشعر، على نحو ما نجد في المحاورة التي جرت بينه وبين نافع بن الأزرق، والتي سوف نعرض لها فيما بعد. وقد أثر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزل الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانه فالتمسنا معرفة ذلك منه». وقوله: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب»[1].

واعتمد ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره اللغوي أيضاً على ما سمعه من الأعراب، يدلنا على ذلك قوله: «كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها»[3]؛ أي بدأت حفرها.

ويدخل في ذلك اعتماده على اللهجات العربية، واختلاف دلالة الألفاظ بين القبائل، ومن ذلك كلمة «التخوف» التي تستعملها هذيل بمعنى «التنقص»، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[4]. وقد توصل ابن عباس إلى معناها حين جاءه رجل من هذيل يشكو إليه أخاه قائلاً:

(١) الإتقان: ١/١١٩.
(٢) سورة فاطر: الآية ١.
(٣) الإتقان: ١/١٤٩.
(٤) سورة النحل: الآية ٤٧.

تخوّفني ما لي أخٌ لي ظالمٌ　　فلا تخذلنِّي اليومَ يا خيرَ مَنْ بقى

فقال ابن عباس: تخوفك: تنقصك؟ قال الهذلي: نعم، قال: الله أكبر ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي تنقص من خيارهم»[1].

وقد عرف الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - مكانة ابن عباس في علم كتاب الله تعالى، فقال عبد الله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس»، وقال عنه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

ولم يُسَمَّ أحد من الصحابة بحراً في العلم إلا ابن عباس؛ لاختصاصه دونهم بالتفسير وعلم التأويل؛ لذلك يعد بحر التفسير وحبر الأمة بفضل دعاء الرسول ﷺ بقوله: «اللم فقهه في الدين وعلّمه التأويل».

ولذلك جاء رجل إلى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فسأله عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾[2] فقال له: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعالَ أخبرني. فذهب الرجل إلى ابن عباس فسأله، فقال: كانت السموات رتقاء لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات؛ فرجع الرجل فأخبر ابنَ عمر، فقال: لقد أُوتي ابن عباس علماً صدقاً هكذا، لقد كنت أقول: ما تعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، الآن قد أُوتي علمه».

سؤالات نافع بن الأزرق إلى ابن عباس:

للتعرف على جهد ابن عباس في التفسير اللغوي لألفاظ القرآن الكريم، نتوقف أمام المحاورة التي جرت بينه وبين نافع بن الأزرق،

---

(١) أبو علي القالي: الأمالي ٢/١١٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وهي تدل على الاهتمام بألفاظ القرآن الكريم، وشرحها خلال أبيات الشعر العربي القديم؛ حتى إنها تعد عند القدماء والمحدثين بداية التأليف المعجمي، وإدراك فكرة المعجم نفسه، وهي تجري على النحو الآتي:

قال السيوطي: «بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناسُ، يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما. فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾[1] قال: (العزون) حِلَق الرفاق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ عَبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يُهرَعُون إليه حتى … يكونوا حول مِنْبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[2]، قال: (الوسيلة) الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إنَّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ … إن يأخذوكِ تكحلي وتخضَّبي

قال: أخبرني عن قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]، قال: (الشرعة) الدين، و(المنهاج) الطريق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

---

(١) سورة المعارج: الآية ٣٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ المائدة: ٤٨.

لقد نطق المأمونُ بالصدقِ والهدى ... وبيَّن للإسلامِ ديناً ومنهجاً

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾[1]، قال: نضجه وبلاغه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إذا ما مشتْ وَسْطَ النساءِ تأوَّدتْ ... كما اهتزّ غصنٌ ناعمُ النبتِ يانعُ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾[2]، قال: (الريش) المال، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

فرِشْني بخير طالما قد بريتني ... وخيرُ الموالي مَنْ يريشُ ولا يبرى

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[3]، قال: في اعتدال واستقامة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول:

يا عينُ هلَّا بكيتِ أربد إذ ... قمنا، وقام الخصوم في كبد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾[4]، قال: (السنا) الضوء، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث يقول:

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلاً ... يجلو بضوء سناه داجيَ الظلمِ

وتستمر بقية المسائل على هذا النحو[5]، وهي توضح منهج ابن

---

(١) قال تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ الأنعام: ٩٩.

(٢) قال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ الأعراف: ٢٦.

(٣) سورة البلد: الآية ٤.

(٤) قال تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ النور: ٤٣.

(٥) أورد تلك المحاورة الكثيرون من القدماء، ومن بينهم السيوطي في (الإتقان) ١/١٥٨ - ١٧٥.

عباس في تفسير تلك الألفاظ التي سأله عنها نافع بن الأزرق، مع بيان استعمالها في الشعر العربي.

مؤلفات ابن عباس:

هناك بعض المؤلفات التي نسبها القدماء إلى ابن عباس، وهي تدور حول رصد بعض الظواهر اللغوية في الكتاب العزيز، مع الاهتمام بتفسيره، وتلك المؤلفات هي:

١ ـ غريب القرآن:

نسب ابن النديم في (الفهرست)[١] إلى ابن عباس كتاباً عنوانه (غريب القرآن)، وأشار بروكلمان إلى أنه كانت هناك نسخة منه في برلين قبل الحرب العالمية الثانية[٢]، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا.

والتأليف في غريب القرآن أول ما ظهر من فنون التأليف اللغوي، وقد ظهر مصطلح «الغريب» في الحياة الفكرية عند المسلمين في قول ابن عباس: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب»[٣]؛ لذلك كان له مجلس يجيب فيه عن العربية، والشعر، والغريب من الكلام.

ونشير إلى أن بعض القدماء عرَّف «الغريب» بقوله: «الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل. والغريب من الكلام يقال على وجهين؛ أحدهما: أنه يراد به أنه بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر: أن يراد به كلامُ

---

(١) الفهرست: ٥٠.
(٢) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٣٣.
(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤.

مَنْ بَعُدَتْ به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها»[1].

وقد أوضح الأستاذ مصطفى صادق الرافعي مفهوم الغريب بقوله: «في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة؛ فإن القرآن منزَّه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة العربية هاهنا هي التي تكون خشنة مستغربة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس»[2]. وهو توضيح حسن يمكن الأخذ به حين التعريف بمفهوم الغريب اللفظي في الذكر الحكيم.

٢ ـ اللغات في القرآن:

وصل إلينا كتاب عنوان (اللغات في القرآن)[3] من تأليف ابن عباس، وقد حدَّث به إسماعيل بن عمرو بن راشد الحداد (ت٤٢٩هـ) عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ (ت٣٨٦هـ) بإسناده إلى ابن عباس.

ويمكن القول بأن هذا الكتاب جمعه ورتب مادته اللغوية أحد هذين المقرئين، وقد رُتبت فيه السور ترتيبها في المصحف؛ فبدأ بسورة البقرة وانتهى بسورة العاديات، لعدم وجود لغات فيما بعدها من السور، وقام محقق الكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد بترتيب الآيات الكريمة في كل سورة ترتيبها في المصحف.

ويتلخص المنهج الذي سار عليه ابن عباس في أنه يذكر الآية

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٢٠٣.

(٢) إعجاز القرآن: ٧٤.

(٣) المقصود باللغات: اللهجات؛ لأن مصطلح «اللهجة» لم يكن معروفاً عند القدماء بالمفهوم الذي نعرفه الآن، وإنما كانوا يستخدمون كلمة «اللغة» للدلالة على لهجات القبائل العربية المختلفة.

الكريمة التي بها اللفظ المراد بيان أصله، ثم يشير إلى اللهجة العربية، أو اللغة الأجنبية التي أخذ منها، ومن ذلك: «قال الله عز وجل: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[1] والسفيه: الجاهل بلغة كنانة» و«قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾[2] والطور: الجبل، وافقت لغة العرب في هذا الحرف لغة السريانية»، وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾[3] يعني: لعنهم؛ بلغة حمير، وقوله: ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] ويعني: مفاتيح، وافقت لغة الفرس والأنباط والحبشة»[5].

ونشير إلى أن هناك رسالة منشورة على هامش (تفسير الجلالين) تحت عنوان (لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم) وهي منسوبة إلى أبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة **٢٢٤هـ** على أرجح الأقوال، والمادة العلمية الموجودة فيها هي نفسها المذكورة في كتاب ابن عباس رضي الله عنهما.

٣ ـ تفسير ابن عباس:

يعد ابن عباس أول من نُسب إليه كتاب في تفسير القرآن الكريم، وقد أشار إلى ذلك ابن النديم في (الفهرست)، وهذا التفسير عبارة عن رواية مسندة إلى ابن عباس رضي الله عنهما ذكرها مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت٨١٧هـ) صاحب (القاموس المحيط)، وقد نشرت تحت عنوان (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس)، وقد ذكر الفيروزأبادي إسناد تلك الرواية في خطبة الكتاب حيث يقول:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦٣.
(٣) سورة المنافقون: الآية ٤.
(٤) سورة الزمر: الآية ٦٣.
(٥) اللغات في القرآن: ١٧ و٤١ و٤٦ وغيرها من الصفحات.

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين: أخبرنا عبد الله الثقة ابن المأمور الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبيد الله محمود بن الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال....».

ويبدأ التفسير بفاتحة الكتاب العزيز وينتهي بـ(سورة الناس)، ويتميز بالسهولة والوضوح والبعد عن التأويل، ويقدم المعنى باختصار، ومن أمثلة ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[1]. يقول في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين:

- كيف تكفرون بالله: على وجه التعجيب.
- وكنتم أمواتاً: نطفاً في أصلاب آبائكم.
- فأحياكم: في أرحام أمهاتكم.
- ثم يميتكم: عند انقطاع آجالكم.
- ثم يحييكم: للبعث.
- ثم إليه ترجعون: في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

ثم ذكر مِنّته عليهم فقال:

- هو الذي خلق لكم: سخر لكم.
- ما في الأرض: من الدواب والنبات وغير ذلك.
- جميعاً: منة منه.
- ثم استوى إلى السماء: أي ثم عمد إلى السماء.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٨ و٢٩.

- فسواهن: فجعلهن.
- سبع سموات: مستويات على الأرض.
- وهو بكل شيء عليم: من خلق السموات والأرض.

❁ ❁ ❁

وبعد فهذه محاولة للتعرف على جهود ابن عباس - رضي الله عنهما - اللغوية، وهي جديرة بدراسة أكثر تفصيلاً.

وقد انتبه الأوائل من العلماء المسلمين في القرن الأول الهجري إلى ثلاثة أمور على قدر كبير من الأهمية، وتعد من أسس اللغة العربية، وهي:

١ - نشأة النحو.

٢ - رسم العربية.

٣ - نقط الإعجام.

ونحاول التعرف على تلك الأمور الثلاثة.

١ - نشأة النحو:

تكاد الروايات والأخبار المختلفة الموجودة في كتب الطبقات والتراجم تجمع على نسبة «علم النحو» إلى أبي الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) الذي وضعه بمشورة الإمام علي (كرم الله وجهه)، ومن تلك الروايات ما نجده في كتاب (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ). قال:

«سبب وضع علي - رضي الله عنه - لهذا العلم ما روى أبو الأسود، قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير

المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه. ثم ألقى إليَّ الرقعة، وفيها مكتوب: الكلام كله اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما جاء لمعنى. وقال لي: انحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم - يا أبا الأسود - أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس - يا أبا الأسود - فيما ليس بظاهر ولا مضمر. وأراد بذلك الاسم المبهم».

«قال أبو الأسود: فكان ما وقع إلى (إن) وأخواتها ما خلا (لكن) فلما عرضتها على عليٍّ - رضي الله عنه - قال لي: وأين (لكن)؟ فقلت: ما حسبتها منها، فقال: هي منها فألحقْها، ثم قال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت؛ فلذلك سمي النحو نحواً».

وهناك بعض الملاحظات التي نستطيع التوصل إليها من تلك الرواية، ويمكن تقديمها خلال النقاط الآتية:

أولاً: يعود السبب في وضع النحو إلى انتشار «اللحن» على الألسنة حين اختلط العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس غير العربية، ومن المعروف أن الاحتكاك بين الشعوب له تأثيره في اللغة: أصواتها، وتراكيبها، ودلالة ألفاظها.

ثانياً: يعد أبو الأسود أحد أئمة الدرس النحوي؛ لذلك أجمعت المصادر على أن النحو نشأ بالبصرة، وبها اتسع ونما وتكامل وصار علماً له حدوده وقضاياه، وأن أئمته ورواده بنزعته السماعية والقياسية من علماء البصرة، وقد عبر عن ذلك أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) في كتابه (طبقات فحول الشعراء) بقوله: «وكان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية»، وقال ابن النديم (ت٣٨٥هـ) بتلك المقالة في (الفهرست) حين ذكر

نحاة الكوفة بعد البصريين: «إنما قدمنا البصريين أولاً؛ لأن علم العربية (يقصد النحو) عنهم أخذ». ومن هنا فقد أفرد العلماء كتباً تدور حول طبقات علماء البصرة، وليس في هذا تعصب أو تقليل من شأن علماء الكوفة.

ثالثاً: أحسن أبو الأسود الإفادة من الإمام علي (رضي الله عنه) الذي نسبت إليه الروايات والأخبار خوضه في النحو وحدوده، ومن ذلك ما قاله أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ): «رأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الوراقين، جزءاً فيه أبواب من النحو، يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي». وقد أشارت كتب الطبقات والتراجم إلى أن أبا الأسود كان محبّاً للإمام علي (رضي الله عنه) وكان من المتحققين بمحبته ومحبة ولده، وفي ذلك يقول:

يقول الأرذلون بنو قشير	طوال الدهر لا تنسى عليّا
أحب محمداً حبّاً شديداً	وعباساً وحمزة والوصيّا
فإن يك حبهم رشداً أصبه	ولست بمخطئ إن كان غيّا

رابعاً: عرف النحاة من المراحل الباكرة بعض المصطلحات التي لا تزال مستعملة حتى الآن، مع تقديم تعريف لها، ومن ذلك ما يتصل بأقسام الكلمة الثلاثة: الاسم والفعل والحرف، والحد الخاص بكل واحد منها.

خامساً: سمي النحو نحواً من قول الإمام علي (رضي الله عنه) لأبي الأسود: «ما أحسن هذا النحو الذي نحوت».

وقد اعترض بعض أساتذتنا وباحثينا على الرواية السابقة وما يماثلها من الروايات؛ لأن بها الكثير من التعريفات والتقسيمات المنطقية التي لا يعقل أن تصدر عن الإمام علي (رضي الله عنه) أو أحد معاصريه، كما أشاروا إلى أن هناك بعض النحاة لهم جهودهم في

مجال نشأة النحو، دون أن يقصروا ذلك على أبي الأسود وحده، وهم يعتمدون في ذلك على ما ورد عن القدماء من نحو قولهم: «اختلف الناس في أول من رسم النحو؛ فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الدؤلي، ويقال: الليثي، وقال آخرون: عبد الرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي».

٢ - رسم العربية:

المقصود برسم العربية إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه، وقد قام بهذا العمل النحوي الأشهر أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) بأمر من زياد بن أبيه والي العراق، أو بأمر من ابنه عبيد الله، وقد اتخذ أبو الأسود لذلك كاتباً فطناً حاذقاً من بني عبد القيس[1]، وقال له: «إذا رأيتني قد فتحتُ شفتيَّ بالحرف فانقُطْ نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممتُ شفتيَّ فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرتُ شفتيَّ فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئاً من غُنَّةٍ[2] فاجعل مكان النقطة نقطتين»[3].

وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره، بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لونُه لونَ المداد الذي كُتبت به الآيات الكريمة. وقد عُرف هذا الصنيع الخطير في تاريخ الدرس اللغوي باسم «رسم العربية»؛ أي إن أبا الأسود رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه.

---

(١) عبد القيس: قبيلة من أسد، وكانت ديارهم في تهامة، ثم خرجوا منها إلى البحرين.

(٢) يقصد بالغنة: التنوين.

(٣) أبو عمرو الداني: المحكم في نقط المصاحف ٣، وانظر: إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٤١/١.

ونتج عن قول أبي الأسود لكاتبه «فتحتُ... ضممتُ... كسرتُ...» مصطلح الفتحة، والضمة، والكسرة فيما بعد.

وقد أشاع قرّاء القرآن الكريم من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي نقط المصحف، وأُخذ عنهم النقط، وحُفظ، وضُبط، وقُيد، وعُمل به، واتبع فيه سنتهم، واقتُدي فيه بمذهبهم.

٣ ـ نقط الإعجام:

هناك مشكلة في اللغة العربية تتصل بصعوبة التمييز بين الحروف المتشابهة في الرسم؛ فالحرف ب ـ مثلًا ـ له عدة احتمالات هي: ب، ت، ث، وقد تصدى لحل تلك المشكلة الحجاج بن يوسف الثقفي، وندب لها نصر بن عاصم الليثي (ت٨٩هـ) أحد تلاميذ أبي الأسود، وطلب منه أن يعمل على حل هذه الإشكال، وقد وضع نقطاً جديداً على حروف المصحف، يمكن بواسطته التمييز بين الحروف المتشابهة، وسمِّي هذا العمل بنقط الإعجام، وهو المعروف إلى اليوم.

ونشير إلى أنَّ النقط له دوره في صون القرآن الكريم من اللحن الذي انتشر على الألسنة، وفي ذلك يقول أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ): «إن الذي دعا السلف ـ رضي الله عنهم ـ إلى نقط المصاحف ما شاهدوه من أهل عصرهم، مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أهلها، من فساد ألسنتهم واختلاف ألفاظهم وتغير طباعهم ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم، وما خافوه مع مرور الأيام وتطاول الأزمان من تزيد ذلك وتضاعفه فيمن يأتي بعد، ممن هو لا شك في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه ممن عرض له الفساد، ودخل عليه اللحن، لكي يرجع إلى نقطها، ويصار إلى شكلها، عند دخول الشكوك وعدم المعرفة، ويتحقق بذلك إعراب الكلم، وتُدرك به كيفية الألفاظ»[1].

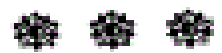
---

(١) المحكم: ١٨ وما بعدها.

ويعود الفضل إلى نصر بن عاصم الليثي في تغيير ترتيب «الأبجدية» إلى الترتيب المعروف.

إن «أبجد» هي أولى الكلمات الست التي جُمعت فيها حروف الهجاء عند الساميين، وتلك الكلمات الست هي: أبجد، هوّز، حُطّي، كلمن، سعفص، قَرَشَت. وعندما استخدم العرب هذا الترتيب الأبجدي وضعوا الحروف العربية التي لم ترد في آخر الترتيب، وتُجمع تلك الحروف في كلمتين هما: ثخذ، ضظغ، وتسمَّى «الحروف الروادف».

وأعاد نصر بن عاصم ترتيب الحروف على أساس شكلي؛ فوضع التاء والثاء إلى جانب الباء، ووضع الحاء والخاء إلى جانب الجيم... وهكذا.



الفصل الرابع

المنهج والتفكير العلمي

المنهج والتفكير العلمي

تعريف المنهج:

المنهج: الطريق الواضحة، والخطة المرسومة، ومنه: منهج الدراسة، ومنهج التعليم ونحوهما. ويقال: منهاج، والجمع: مناهج.

ولفظ «المنهج» ترجمة للكلمة Method في اللغة الإنجليزية ونظائرها في اللغات الأوربية الأخرى، وهي تعود إلى كلمة يونانية كان أفلاطون يستعملها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما نجدها كذلك عند أرسطو أحياناً كثيرة بمعنى «بحث»، والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب، خلال المصاحب والعقبات[1].

ومناهج البحث إنما يتناولها عادة الفلاسفة؛ إذ يفردون لها في مؤلفاتهم باباً أو جزءاً باسم Methodologie، وفيه يتناولون الأسس الفلسفية لكل منهج في كل علم، بعد الفراغ من تحليلهم لعمليات التفكير بعامة. وإنه، وإن تكن لتلك البحوث قيمتها؛ فإنها في الغالب قيمة نظرية، وذلك لأن كاتبيها فلاسفة لم يتخصصوا في تلك العلوم المختلفة التي يتحدثون عن مناهجها. ولما كانت الممارسة الشخصية شيئاً لا غنى عنه لتسديد الفكر النظري وإحكام مأخذه على الواقع؛ فإن كتاباتهم يمكن القول عنها بأنها ثقافة عقلية، ورياضة للفكر أكثر منها قيادة عملية وتوجيهاً لخطى البحث[2].

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي ص٤ وما بعدها.

(٢) الدكتور محمد مندور: المقدمة التي كتبها لكتاب (منهج البحث في الأدب واللغة) ص٨.

وهناك عدة تعريفات للمنهج، تدور في إطار التنظيم الدقيق لمجموعة من الأفكار من أجل الوصول إلى حقيقة لم تكن معروفة من قبل، ويطبع هذا التنظيم وجود طائفة من القواعد العامة تسيطر على سير العقل. وهذه مجموعة من التعريفات للمنهج:

- المنهج: طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم.
- المنهج: فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة؛ إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين نكون بها عارفين.
- المنهج: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.
- المنهج: البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم النظرية[١].

والقواعد الموجودة في «علم المنهج» Methodology لا تعني قتل روح الإبداع في الباحث؛ لأنها ليست قيداً على فكره، أو محاولة للإثقال عليه، وإنما يأخذ بها على سبيل الاهتداء، وهي قابلة للإضافة والتعديل حتى تكون متوافقة مع موضوع البحث، وعرضة للتغير حسب التطور الذي يحدث في العلم، والجديد الذي يطرأ عليه.

تطور المناهج:

إن استمرار المجتمعات يتوقف على عملية نقل الأفكار والمهارات والاتجاهات والمعارف بين الأجيال، وكان هذا النقل يتم في المراحل الأولى من الحياة البشرية بطريقة غير نظامية؛ وذلك قبل

(١) مناهج البحث العلمي: ص٤ وما بعدها.

أن تتقدم الحضارة الإنسانية ويزداد تعقيدها. ومن أمثلة ذلك أن الأب كان يعلم ابنه مجموعة من المهارات البسيطة التي تعد في الوقت نفسه أساس الحياة مثل طرق الصيد وأساليب الزراعة وكيفية الدفاع عن النفس وسواها، وكانت الأم تعلم ابنتها الأمور الخاصة بواجبات الفتيات في تلك العصور نحو أصول الطهي وغير ذلك. ومن هنا فإن التعليم كان يتضمن بعض المهارات والمعارف والمبادئ الضرورية لاستمرار الحياة واستقرارها وسط المجتمعات.

وقد أدى مرور الزمن إلى تراكم الخبرات البشرية وتعددها وتنوعها؛ لذلك أصبحت الحاجة ماسة إلى وجود مؤسسات تكون مهمتها الرئيسية جمع التراث البشري ومحاولة نقله إلى الأجيال التالية، وقد نتج عن ذلك ظهور الكثير من المعلمين الذين أسهموا بالدور الأساسي في حفظ التراث الإنساني ونقله إلى الأجيال التالية.

ومعرفة الشعوب بالمنهج قديمة، وقد بدأت تلك المعرفة بسيطة، ثم أصابها النضج والتطور، وصار لها الكثير من الأسس والمبادئ التي تحكمها وتضبطها، ونحاول التعرف على تطور المناهج في الحضارات القديمة وفي العصور الوسطى وسواها[١].

١ - المنهج عند الإغريق: من الحضارات التي انتقلت ثقافتها للأجيال المتعاقبة والتي استمر تأثيرها بصورة ثابتة ظاهرة حضارة الإغريق؛ فهم الذين أوجدوا بعض المواد الدراسية السائدة الآن، كما أنهم وضعوا منهجاً شاملاً متناسق الوجهات يجمع بين مظاهر الحياة العقلية والجسمية والجمالية والأخلاقية.

وقد وضع الإغريق الأساس لما عرف، فيما بعد، بالفنون السبعة الحرة The Seven liberal arts. وقد قسمت هذه الفنون إلى قسمين:

القسم الأول: الثلاثيات، وتشمل فنون الكلام وهي النحو

---

(١) الدكتور رشدي لبيب وزميله: دراسات في المناهج ص٤ وما بعدها.

والمنطق والبلاغة. وقد استمدت هذه الفنون أساسها من الحياة اليومية حينئذ؛ إذ كانوا يهتمون بإدارة الأمور الخاصة بهم عن طريق المناقشات العامة، وكان على المتحدث في المجتمعات العامة أن يتقن علوم الكلام حتى يتمكن من التأثير في سامعيه بطريقة فعالة. ويعود الفضل لبروتاجوراس (٤٨١ ـ ٤١١ق.م) Protagoras السفسطائي في تعليم كثير من الأجيال أن يكونوا أكثر دقة في حديثهم؛ وذلك بالتعرف على أجزاء الكلام وتسميتها وتعريفهم بقواعد استخدامها. وفي الوقت الذي أدى فيه هذا السفسطائي خدمة جليلة لعلم النحو أدى أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م) وأرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) خدمة مماثلة لعلم الجدل[1].

ولم يهتم الإغريق بالثلاثيات لاستخدامها في الأمور المدنية والسياسة العامة فحسب؛ بل لأنها الوسائل التي يستطيع المعلم بوساطتها أن يشكل روح الطفل وعقله. واهتم أفلاطون بجعل فنون الكلام أساسية في المنهج لاعتقاده أنها تؤدي للدقة في المناقشات، ولتوضيح الحقائق بالإضافة إلى مساعدتها في تنمية الإدراك العقلي.

القسم الثاني: الرباعيات، وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وقد احتل الحساب والهندسة مكاناً بارزاً في المنهج العقلي، وكانت قيمتها في مختلف الفنون وفي الاقتصاد واضحة. وكان أفلاطون يرى أن الرياضيات تشحذ الذهن، كما كان يعتقد أن الذكاء العام للأفراد قد يزداد بدراستها. أما عن الفلك فكانت له أهمية وظيفية خاصة في معرفة الوقت وتحديد فصول السنة.

وقد رغب بعض العلماء الفلاسفة الإغريق أمثال فيثاغورث (٥٨٠ ـ ٥٩٠ق.م) Pythagoras في أن يدخل بعض العلوم في المنهج مثل الجغرافيا والطبيعة والطب، ولكن الإغريق لم يرغبوا كثيراً في إدخالها فيه

(١) Brubacher, John, A history of the problems of education, P.250.

لاعتقادهم أن دراسة العلوم تقوم على دراسة الأشياء المحسوسة، وأن دراستها تستدعي استخدام الحواس، ومن ثم لا تعطي مقياساً صحيحاً للحقيقة.

ويمكننا أن تقول إن العلوم اللغوية الإنسانية المتمثلة في الثلاثيات كانت تفوق في أهميتها العلوم الرياضية العلمية المتمثلة في الرباعيات، وقد ظل الأمر على هذا الوضع حتى نهضت العلوم الحديثة في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

٢ ـ **المنهج عند الرومان:** لقد أقر الرومانيون «المنهج اليوناني» وساروا عليه؛ لأن دراسة الثلاثيات كانت لازمة للخطابة التي كانوا يهتمون بها. ولم يضف الرومان إلى المنهج الاغريقي جديداً إلا دراسة اللغة اليونانية بجانب لغتهم الوطنية؛ حتى يستطيعوا الإلمام بعلوم الإغريق، ولم يغفل الرومان دراسة الرباعيات أو العناية بالتربية الأخلاقية والجمالية، إلا أنهم كانوا لا يعتنون بها عنايتهم بالثلاثيات.

٣ ـ **المنهج في عصر النهضة:** تركز اهتمام الناس حول الأمور الدنيوية وقلّ اهتمامهم بالأمور الدينية، وقد أوضح بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤م) Petrarach أخذ كتاب عصر النهضة[1] أن التراث الإغريقي الروماني هو المعيار الذي ينبغي أن تقوم عليه الحياة في عصر النهضة Renaissance ووجد الناس في ذلك التراث ما يمكن أن يرقى بحياتهم، ولذلك عادت دراسة التراث اليوناني والروماني في عصر النهضة إلى سابق مجدها وأصبحت دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية شرطاً أساسياً يتميز به الإنسان المثقف، وقد استمرت هاتان اللغتان مادتين أساسيتين في المدارس الأوربية إلى ما يقرب من بدء القرن الحالي. ولا يقصد بهذا أن

---

(١) النهضة: حركة انتقالية في أوروبا بين القرون الوسطى والعصر الحديث، نشأت في القرن الرابع عشر في إيطاليا واستمرت إلى القرن السابع عشر، وقد تميزت بالتأثر بالمفاهيم الكلاسكية وبازدهار الفن والأدب وبانبلاج فجر العلم الحديث.

دراسة هاتين اللغتين قد حلت محل دراسة الثلاثيات (النحو، المنطق، البلاغة)؛ بل إنهما أصبحتا الوسيلة التي يدرس بوساطتها النحو والمنطق والبلاغة، كما أنهما كانا يدرسان أيضاً للغرض الذي تدرس من أجله الثلاثيات، وهو تدريب العقل، وكانت تلك الثلاثيات وخاصة البلاغة والنحو، في الوقت نفسه، تحتل مكاناً بارزاً في «منهج عصر النهضة»، وكان النحو عند الكثيرين أساس كل العلوم الأخرى.

وقد اهتم الكتاب والمفكرون والفلاسفة في القرن السابع عشر بالمنهج أو الطريقة الواجب اتباعها في البحوث العقلية، وكانت الكتب التي تدور حول المنهج كثيرة؛ خاصة مع بداية سنة ١٦٢٠م؛ ففي ذلك التاريخ ظهر كتاب (الأرجانون الجديد) لفرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م) F.Bacon ويعني به «المنطق الجديد» Novum Organum، وبعد ذلك بنحو سبع عشرة سنة نشر ديكارت R.Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) (المقال في المنهج)، وقد نال المنهج اهتمامه، ويتضح ذلك في قوله: «خير للإنسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج»[1].

وإذا حاولنا التعرف على دور الفيلسوف الإنجليزي بيكون في «المنهج» فإننا نجده يدعو إلى نظرية جديدة أساسها استقلال العلم عن الفلسفة استقلالاً تامّاً؛ لذلك سخر من ادعاءات فلاسفة العصور القديمة والوسطى الذين كانوا يتصورون أن باستطاعتهم حل مشكلات العالم الكبرى بالتأمل النظري وحده، وهاجم مفكري الأبراج العاجية الذين اعتقدوا أنهم قادرون على فهم الطبيعة، وما وراء الطبيعة باستخدام مجموعة من الاستدلالات اللفظية التي تلاعبوا بها ببراعة، وظنوا أن ما توصلهم إليه هذه الألاعيب اللفظية لا بد أن يكون حقيقة واقعة. وفي

(١) الدكتور عثمان أمين: ديكارت ص٧٥.

مقابل ذلك يدعونا بيكون إلى إجراء حوار مباشر مع الطبيعة، واستخدام حواسنا وعقولنا في ملاحظة وقائعها وتسجيلها بأمانة، وينادي بضرورة إزالة هذا الحاجز اللفظي الخداع الذي وضعه القدماء بيننا وبين حقائق العالم، ويؤكد أن المعرفة الصحيحة إنما تكون في طرح الأسئلة المباشرة على الطبيعة، بدلًا من التقوقع داخل عالم الألفاظ. وهكذا حدد بيكون سمة من أهم سمات التفكير العلمي الحديث، وهي الاعتماد على ملاحظة الظواهر ومشاهدتها تجريبيًا بدلًا من الاكتفاء بالكلام عنها[١].

وقد أشار بيكون إلى ضرورة ابتعاد التفكير العلمي عن التعميم، ولا بد من الانتقال في التعرف على الحقائق من جزئية إلى أخرى، ونادى بأهمية وجود أهداف محدودة يدور في إطارها هذا التفكير، وأوضح أن من الصفات المهمة التي تندرج تحت مفهوم العلم قابلية كل علم للتطبيق، والعلم الذي لا يقبل التطبيق العلمي بصورة من الصورة ليس جديراً بأن يسمى علماً.

ولقد كان الفيلسوف الفرنسي ديكارت مهتمًا بالتأكيد على الجانب الرياضي العقلي للعمل العلمي، حتى إنه تصور أن مهنة العالم في مختلف المجالات لا تختلف عن مهمة الباحث في الهندسة؛ إذ يستنبط بدقة النتائج التي تترتب على مقدمات واضحة كل الوضوح، يضعها العقل وهو موقن بأنها تصلح أساساً متيناً لكل معرفة تالية، وكان المبرر الذي ارتكز عليه ديكارت في تأكيده هذا هو أن العلم الرياضي أدق العلوم؛ بل هو نموذج الدقة في كل تفكير؛ فإذا شئنا أن تصل معارفنا في ميدان من الميادين إلى مستوى الدقة الجديرة باسم العلم كان لا بد لنا أن نتبع هذا النموذج الذي اعتاد الباحثون في

(١) الدكتور فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص١٦٠ وما بعدها.

الرياضيات أن يتبعوه منذ أقدم العصور، والذي تمكنوا بفضله من أن يجعلوا علمهم مثلًا أعلى لليقين العقلي[1].

وقد تدهور «المنهج الكلاسيكي» في عصر ما بعد النهضة، وأصبحت دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية وقفاً على قواعدهما النحوية، دون الخوض في الجوانب الثقافية أو المعارف المتصلة بهما، وكانت هناك عدة عوامل كانت وراء تدهور هذا المنهج، من أهمها ما يأتي:

١ ـ ظهور اللغات القومية؛ فبالرغم من أن اللغة اللاتينية اشتهرت على أنها لغة رجال السياسة والمتعلمين ولغة الكنيسة وقصور الملوك، فإنه لم يعد في إمكانها منافسة اللغات القومية؛ فقد وجد الملوك في أثناء محاولتهم بناء دولهم على أسس قومية أن اللغات القومية عامل مهم من عوامل الوحدة القومية؛ لأنها لغة العامة من الشعب، في حين أن اللغات الكلاسيكية لغة الخاصة منهم.

٢ ـ قيام الثورات الديمقراطية والصناعية في نهاية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واهتمام هذه الثورات بعامة الشعب أدى إلى رفع قيمة اللغات القومية التي يستخدمها العامة.

٣ ـ إصرار أنصار المنهج الكلاسيكي على عدم إدخال العلوم الحديثة التي أخذت في الانتشار في القرنين السابع والثامن عشر، وأدّى هذا الإصرار إلى نفور الناس من هذا المنهج لإحساسهم بأنه لا يتجاوب مع مقتضيات العصر ومطالبه، وقد عبر عن ذلك أحد أنصار العلوم الحديثة بقوله: «إن العلوم لا تماثل دراسة الفنون الكلاسيكية فحسب، بل تتفوق عليها في تدريب العقل، فإذا كانت دراسة اللغات تدرب الذاكرة فدراسة العلوم تدرب الذاكرة والفهم معاً»[2].

---

(١) السابق: ص١٦٣.

(٢) دراسات في المناهج: ص١١.

البحث اللغوي:

بدأ البحث اللغوي في العصر الحديث مع عصر النهضة الأوربية، وكان الاهتمام منصبّاً على النظر في بعض المسائل الصوتية؛ فقد كتب الرسام والنحات والموسيقي والمهندس الإيطالي ليوناردو دا فينشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) الكثير من الملاحظات والأفكار حول تكوين الجهاز الصوتي، وعملية الكلام، وانتقال الصوت من المتكلم إلى السامع، وطريقة انتشار الصوت.

وساعد التقدم في العلوم الطبية الأساسية على إيضاح عمل الجهاز الصوتي وتكوينه، واكتشف الطبيب فابريكوس Hieronymus Fabricus الذي تخصص في التشريح والجراحة سنة ١٦٠١م الوترين الصوتيين، وأشار إلى دورهما في عملية الكلام. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهرت دراسات تدول حول فسيولوجيا الصوت أو علم الأصوات الفسيولوجي، وكانت جزءاً من أعمال المؤلفين الذين كتبوا عن علم وظائف الأعضاء Physiology. أما الذين بحثوا في الأصوات من علماء اللغة في تلك الفترة فقد قصروا اهتمامهم على النصوص القديمة، دون الإفادة من المعامل الأصواتية، ومناهج العلوم التجريبية، والتجريب. ولكن علماء اللغة الذين اهتموا بالدراسات الصوتية في أواخر القرن التاسع عشر لم يهملوا التجريب عند علماء الفسيولوجيا والفيزياء، بل أفادوا من جهودهم، وظهرت المعامل، وكان أولها سنة ١٨٩١م، ووجدنا ما يسمى بـ«علم الأصوات التجريبي» Experimental Phonetics.

وقد حدث تطور خطير في تاريخ الدرس اللغوي حين تم اكتشاف اللغة السنسكريتية، لغة الهند المقدسة، على يد سير وليم جونز Sir William Jones الذي كان يعمل قاضياً في المحكمة العليا بالبنغال سنة ١٧٨٦م، ووجد الأوربيون في التراث الهندي الكثير من الدراسات العلمية الدقيقة المنظمة، وهي دراسات تعتمد على «المنهج

الوصفي» Descriptive Method الذي لم يبن على أسس من المنطق، وإنما اهتم بالنظر في الاستعمال اللغوي وتسجيله وتحليله على نحو ما ورد في النص، دون الإغراق في الجدل، أو الخوض في التعقيدات والتعليلات الفلسفية والمنطقية. وبدأت الدراسات اللغوية الحديثة بمقارنة اللغة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية؛ لذلك من الطبيعي أن نقول إن «علم اللغة» بدأ عمله العلمي بالدراسة المقارنة باللغات الهندية الأوربية Indo-European في القرن التاسع عشر.

وقد أشار اللغوي السويسري دي سوسير Ferdinand de Saussure إلى المراحل التي مر بها الدرس اللغوي فيما ورد في محاضراته تحت عنوان «نظرة حول تاريخ علم اللغة»، ورأى أنه مر بثلاث مراحل قبل أن يحدد موضوعه الحقيقي الصحيح، وتلك المراحل هي:

١ - دراسة ما يندرج تحت مصطلح «النحو» Grammar، وقد نشأت تلك الدراسة مع اليونان، وسيطر عليها التفكير المنطقي، وكان هدفها إعطاء القواعد التي تفرق بين الصواب والخطأ حين استعمال الصيغ الإعرابية؛ لذلك نستطيع أن نقول عنها إنها دراسة «معيارية»، لم تهتم بالملاحظة الفعلية للواقع اللغوي.

٢ - ظهور مصطلح Philology في مرحلة مبكرة، وهو يهتم بالدراسة اللغوية للنصوص في ضوء بعض الأصول والتقاليد العتيقة التي تعود إلى مدرسة الإسكندرية القديمة، وقد أخذت تلك الدراسة في الازدهار في أوربا في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. ونشير إلى أن مصطلح «فقه اللغة» Philology قد ارتبط في بدايته بالحركة العلمية التي قام بها وولف Friedrich August Wolf سنة ١٧٧٧م واستمرت حتى عصرنا هذا، ولكن «اللغة» لم تكن الموضوع الأساسي للدراسة، لأن فقهاء اللغة الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص القديمة لإجراء بعض البحوث عليها، وخاضوا في بحث التاريخ الأدبي، والتاريخ الاجتماعي، وإن كان

الفضل يعود إليهم في التعرف على الخصائص اللغوية للعصر وبعض الكتّاب والشعراء في ضوء النصوص القديمة باللغات الأوربية؛ خاصة نصوص التراثين اليوناني واللاتيني.

٣ ـ اكتشف اللغويون إمكان مقارنة اللغات فيما بينها، وكان ذلك بداية جديدة في البحث اللغوي تعد الأصل أو الأساس لما يسمى بـ«فقه اللغة المقارن» Comparative Philology، وهي تدين بالفضل للقاضي الإنجليزي جونز الذي اكتشف اللغة السنسكريتية، على نحو ما أشرنا؛ فقد درس بوب Franz Bopp (١٧٩١ ـ ١٨٦٧م) سنة ١٨١٦م في مؤلف عنوانه «نظام التصريف في اللغة السنسكريتية» العلاقات التي تربط تلك اللغة باللغات الجرمانية واليونانية واللاتينية وغيرها.

وقد استمر الدرس اللغوي في تطوره، ولكن كانت هناك ظاهرة واضحة في القرن التاسع عشر شكلت حدود فقه اللغة، وأدت إلى التمييز بينه وبين علم اللغة فيما بعد، هي أن دراسة السنسكريتية كانت أساس البحث اللغوي، وكان دارس اللغة يشرح أية ظاهرة لغوية أوربية في ضوء السنسكريتية دائماً، وعالم فقه اللغة المقارن الذي يجهل تلك اللغة شأنه في ذلك شأن عالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات.

وإذا كان دي سوسير قد أرخ للدرس اللغوي في المراحل الثلاث السابقة؛ فإن علم اللغة Linguistics بدأ يأخذ مكانته باعتباره علماً Science على يد دي سوسير نفسه؛ وذلك في محاضراته التي ألقاها في جامعة جنيف بسويسرا في السنوات (١٩٠٦ ـ ١٩١١م) والتي نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦ بعد وفاته بثلاث سنوات تحت عنوان Course de linguistique générale وقد ترجم إلى اليابانية سنة ١٩٢٨، وإلى الألمانية سنة ١٩٣١، وإلى الروسية سنة ١٩٣٣، وإلى الإسبانية سنة ١٩٤٥، وإلى الإنجليزية سنة ١٩٥٩، وإلى الإيطالية سنة ١٩٦٧، وصدرت له عدة ترجمات إلى العربية بدءاً من سنة ١٩٨٥.

ونشير إلى أن دي سوسير قد ولد في سويسرا في ١٧ نوفمبر ١٨٥٧ من أب فرنسي، ودرس في جنيف، ثم انتقل إلى ليبزج ليبدأ دراسته الجامعية، وهو في الثانية عشرة من عمره، وتلمذ للفيلولوجي الألماني المشهور G.Curtius، وألف أول عمل علمي له وهو في الثانية والعشرين تحت عنوان «تقرير حول النظام الأساسي لأحرف العلة في اللغات الهندية الأوربية»، وقد قال عنه أحد اللغويين إنه أعظم عمل في فقه اللغة المقارن كتب حتى اليوم. وقد كان على سوسير، في هذا العمل، أن يتعرض للقضايا الأساسية في علم اللغة التاريخي، وكان عليه التأكيد على أهمية القضايا المنهجية. ثم سافر سوسير إلى باريس حيث شارك في الجمعية اللغوية الباريسية، وأخذ يحاضر بين عامي ١٨٨١ - ١٨٨٩ عن النحو المقارن. وبعد عام ١٨٩١ انتقل إلى جامعة جنيف حيث حاضر عن النحو المقارن أولاً، ثم عن علم اللغة العام، وحين توفي سنة ١٩١٣ لم تكن محاضراته قد نشرت؛ إذ نشرها تلاميذه بعد وفاته بثلاث سنوات.

ويعد نشر تلك المحاضرات ثورة في تاريخ الدرس اللغوي؛ لأن أغلب الكتابات المعاصرة في اللغة تعتمد في أصولها النظرية على آراء دي سوسير. وقد ختم تلك المحاضرات بتقديم تعريف واضح ودقيق لعلم اللغة يقول: «إن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها».



سمات التفكير العلمي

قبل الدخول في الحديث عن سمات التفكير العلمي وخصائصه التي تميزه، نحاول التعرف على المقصود بالعلم ومفهومه وبيان حدوده المختلفة.

تعريف العلم:

هناك الكثير من التعريفات التي قال بها الدارسون المحدثون للعلم، وهي تدل في النهاية على صعوبة وضع تعريف جامع مانع للعلم؛ أي يجمع كل فروع العلم، ويمنع دخول أية معرفة غير علمية من الدخول تحته. ونقدم، فيما يلي، مجموعة من التعريفات المتصلة به.

١ - العلم هو ما يتحقق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة وسواها. ويعتمد هذا التعريف على «المثال» Example.

٢ - العلم هو مجموعة من المعارف المنظمة التي تدور حول موضوعات عقلية وطبيعية وإنسانية. أو العلم هو الذي يدرس هذه الموضوعات خلال وجهات النظر المتباينة. ويعتمد هذا التعريف على «الموضوع» Object.

٣ - العلم هو دراسة ذات منهج ثابت لا يتغير بتغير الحالات، وهذا المنهج يعتمد على الاستنباط أو الاستقراء أو الحدس أو

الاستبطان، مع الكشف عن مجموعة من الحقائق التي تعبر عنها بصيغ عامة أو قوانين. ويعتمد هذا التعريف على «المنهج» Method.

٤ - العلم هو سلسلة متشابكة الحلقات من المفاهيم والقوانين والنظريات والحقائق التي تتطور وتتعدل دائماً.

أو هو مجموعة من نتائج البحوث والدراسات، ومن الحقائق والقوانين والنظريات، بعضها تم التوصل إليه، وبعضها الآخر لم نستطع التوصل إليه بعد، ويؤدي البحث المتواصل إلى كشف النقاب عن المزيد من الحقائق والنتائج.

والعلم بهذا المفهوم يستحيل أن يكتمل؛ لأنه نتيجة جهد متواصل للعلماء؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه يتصل بالتطور والتغير Dynamic.

٥ - العلم هو مجموعة من المبادئ والقوانين والنظريات والمعارف المنسقة التي وصلنا إليها.

ويشير هذا التعريف إلى الحالة الراهنة للعلم، دون الاهتمام بما يحدث فيه من تقدم لاحق، وهو يدل على اكتمال العلم، وإن كان هذا مستحيلاً، ويؤدي إلى توقف البحث وتحول المبادئ والقوانين إلى معتقدات جامدة؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه تعوزه الحركة والحياة فهو ساكن أو راكد أو مستقر Static[1].

والعلم ليس قوة معادية لأحد، ولا منافسة لأي شيء، والعالم شخص لا يهدد أحداً، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد، وكل المعارك التي حورب فيها العلم والعلماء كانت معارك أساء فيها الآخرون فهم العلم، ولم يكن العلم ولا أصحابه هم المسئولون (أو

---

(١) انظر كتاب (أساليب البحث العلمي) للدكتور علي عبد المعطي والدكتور محمد السرياقوسي والمراجع التي اعتمدا عليها في ص٢٩ و٣٠.

المسئولين) عنها، وأعظم خطأ يرتكبه المدافعون عن مبدأ معين، أو عن ضرب من ضروب النشاط الروحي للإنسان هو أن يعتقدوا أن العلم مصدر خطر عليهم، ويضعوا مبدأهم أو نشاطهم الروحي في خصومة مع العلم.

والعلم لا يهدد أحداً، وإنما هو في أساسه منهج أو أسلوب منظم لرؤية الأشياء وفهم العالم، وكل تقدم أحرزته البشرية في القرون الأخيرة إنما كان مرتبطاً، بطريق مباشر أو غير مباشر، بالعلم[1].

التفكير العلمي:

هو التفكير المنظم الذي يمكن استخدامه في شئون حياتنا اليومية، وفي الأعمال المهنية المعتادة التي نمارسها، أو في علاقاتنا مع الناس والعالم المحيط بنا، والشرط الأساسي لهذا التفكير أن يكون منظماً؛ حتى يمكن أن نصفه بأنه علمي.

ولهذا التفكير مجموعة من السمات الرئيسية، والخصائص الأساسية التي يتميز بها، وقد حصرها بعض الدارسين في:

- التراكمية.
- التنظيم.
- البحث عن الأسباب.
- الشمولية واليقين.
- الدقة والتجريد.

وحصرها بعضهم الآخر في السمات والخصائص الآتية:

- دقة الصياغة.

(١) الدكتور فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص١١ وما بعدها.

- التعميم.

- إمكان اختبار الصدق.

- الثبات المطلق أو النسبي للصدق.

- الموضوعية.

- التحليل.

- اتصال البحث.

- التسليم ببعض المبادئ.

- البناء النسقي.

ونحاول التعرف على سمات التفكير العلمي وخصائصه التي تميزه، مع التطبيق في علم اللغة على قدر المستطاع[1].

١ - التراكمية: تشير لفظة «التراكمية» في أصل وضعها اللغوي إلى ما اجتمع من الأشياء، وتراكم بعضه فوق بعض، يقال: ركام من رمل، وركام من سحاب. وتصف تلك اللفظة الطريقة التي يتطور بها العلم ويعلو بها صرحه، وهي تدل على أن «المعرفة العلمية» تتغير باستمرار، ويطرأ عليها الكثير من التطور، وحين تظهر نظرية جديدة يؤدي ذلك إلغاء النظرية السابقة عليها، وتحويلها إلى شيء يهتم به المشتغلون بتاريخ العلوم.

وإذا كانت صفة التراكمية تنطبق على المعرفة العلمية؛ فإن الأمر يختلف مع «المعرفة اللغوية»؛ بمعنى أن كل نظرية أو منهج جديد يظهر في علم اللغة ليس مقطوع الصلة بما سبقه من النظريات

---

(١) تلك السمات والخصائص مذكورة بالتفصيل في كتابي (التفكير العلمي) و(أساليب البحث العلمي)، ونحاول الإشارة إليها بإيجاز، مع الانتفاع بها في الدراسات اللغوية.

والمناهج؛ بل لا بد من معرفتها والإلمام بها والإشارة إلى ما تضيفه النظرية أو المنهج الجديد، وربما يوضح اللغوي أو اللغويون جوانب القصور أو الضعف عند السابقين عليهم. ولذلك يقال إن المعرفة العلمية تشبه البناء الذي يشيد طابقاً فوق طابق، مع فارق أساسي هو أن سكان هذا البناء ينتقلون دواماً إلى الطابق الأعلى؛ أي إنهم كلما شيدوا طابقاً جديداً انتقلوا إليه وتركوا الطوابق السفلى؛ لتكون مجرد أساس يرتكز عليه البناء، ومن هنا فإن سكان البناء العلمي في حالة تنقل مستمر، ومقرهم هو أعلى الطوابق في بناء لا يكف لحظة واحدة عن الارتفاع. أما البناء اللغوي فإنه لا يرتفع إلى أعلى؛ بل إنه يمتد امتداداً أفقيّاً، وفضلاً عن ذلك فإن سكان هذا البناء لا يتركون طوابقه القديمة؛ بل يظلون مقيمين فيها مهما ظهرت له من طوابق جديدة؛ ذلك لأن افتقار المعرفة اللغوية إلى صفة التراكمية جعل المشتغلين باللغة يجدون في مناهجها ونظرياتها القديمة أهمية لا تقل عن أهمية النظريات الحديثة، ومن ثم تظل موضوعاً دائماً لدراستهم؛ خاصة حين الحديث عن تاريخ الدراسات اللغوية.

٢ - **التنظيم**: لا يجوز في التفكير العلمي أن نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، دون تخطيط أو تدبير، أو تمضي بطريقة أقرب إلى التلقائية والعفوية؛ بل لا بد من العمل بطريقة منهجية منتظمة، مع بذل أقصى مجهود من أجل الوصول إلى أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها، وهذا يتأتى في ضوء الوعي التام الذي ينظم أفكارنا وينسقها وينظمها.

والتنظيم الذي يعد من سمات التفكير العلمي وخصائصه يخلقه العقل البشري، ويبعثه في العالم بفضل جهده المتواصل الدءوب في اكتساب المعرفة، وهو يتأتى عن طريق اتباع «منهج» Method؛ أي طريق محدد يعتمد على خطة واعية، والمنهج والعلم وجهان لعملة

واحدة؛ حتى إننا نستطيع تحديد العلم ووصفه بأنه «معرفة منهجية»؛ لذلك نجد فيلسوفاً ذا عقلية علمية جبارة مثل «ديكارت» يستنتج أن العلم ليس إلا منهجاً؛ لإيمانه الشديد بأهمية المنهج في العلم.

وقد استطاع علم اللغة الحديث بفضل جهود رواده الأوائل وإضافات العلماء اللاحقين أن يجعل من دراسة اللغة علماً Science مثل بقية العلوم؛ وذلك بفضل المناهج التي استطاع التوصل إليها، والتي يصيبها التطور والتجديد والإضافات المستمرة على الدوام، ولكن يظل الباحث المعاصر مطالباً بمعرفة تلك المناهج، واختيار أحدها للتطبيق في اللغة، وربما يختار أكثر من منهج، وهذا يرتبط بطبيعة الموضوع أو الظاهرة أو القضية التي يدرسها ويحللها ويحاول التوصل إلى القوانين التي تضبطها، والنظرية اللغوية العلمية التي تحددها وتوضحها وتقننها.

ولا بد في «البحوث اللغوية» من وجود أمرين على قدر كبير من الأهمية؛ أولهما: استقراء الحقائق الجزئية، وثانيهما: استنباط الحقائق الكلية والقضايا العامة. والمقصود بذلك أن البحث في اللغة يقوم على أساس استقراء موضوع البحث والدرس، وهذا يتطلب من الباحث القيام ببعض «الإجراءات» يأتي على رأسها جمع النصوص والشواهد والجمل والعبارات الافتراضية، ثم تصنيفها حسب الموضوعات المتصلة بالبحث.

ويجب على الباحث الاحتياط حين جمع المادة؛ لأن الاستقراء لا يعني أن تكون مادة البحث خليطاً من الحقائق المفيدة وغير المفيدة؛ بل لا بد من الانتقاء والاختيار والانتخاب القائم على الدقة والتروي.

وهكذا يمكن القول بأن صفة التنظيم تحتل مكانها عند نقطة بداية البحث العلمي؛ حيث تتمثل في اتباع العلم لمنهج منظم، وكذلك عند نقطة نهاية هذا البحث، عندما يكوّن العالم من النتائج التي يتوصل إليها نسقاً مترابطاً يستبعد أي نوع من التنافر داخله.

٣ - البحث عن الأسباب: لا يكون النشاط العقلي للإنسان علماً بالمعنى الصحيح إلا إذا استهدف فهم الظواهر وتحليلها، ولا تكون الظاهرة مفهومة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، إلا إذا توصلنا إلى معرفة أسبابها، وتمكننا تلك المعرفة من أن نتحكم في الظاهرة على نحو أفضل، ونصل إلى نتائج عملية أنجح بكثير من تلك التي نصل إليها بالخبرة والممارسة.

ويؤدي البحث عن الأسباب إلى التوصل لما يمكن أن نسميه بدقة التفسير للظواهر النحوية والقضايا اللغوية، وما يزال الباحث يدرس العلل والأسباب الفرعية حتى ينتهي في الظاهرة أو القضية إلى أسباب وعلل عامة، تضم حقائق الظاهرة الجزئية وتفسيرها تفسيراً دقيقاً.

٤ - الشمولية واليقين: المعرفة العلمية معرفة شاملة؛ بمعنى أنها تسري على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم، ولا شأن لها بالظواهر في صورتها الفردية، ويمتاز العلم بأنه يجمع الأشياء المتشابهة في الصورة التي تبدو مختلفة من حيث المادة تحت قانون واحد.

ونشير إلى أن قيام العلم بالتعميم ووصوله إلى القانون إنما هو نتيجة إدراك العالِم لأوجه التشابه بين الجزئيات أو الصفات المشتركة بينها التي تضفي على الأفراد جميعاً، وعلى كل فرد منها صورة خاصة تميزها عن غيرها؛ فإذا فشل العالم في إدراك هذه الصورة التي يشترك فيها جميع الأفراد التي بحثها العالم والأفراد المشابهة التي لم يبحثها فشل في الوصول إلى القانون العام[١].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بوجود نوعين رئيسيين من التعميمات يستهدف العلم الوصول إليهما:

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ٢/ ١٤ وما بعدها.

- تعميمات تقوم بين الوقائع الجزئية بعد أن تكتشف ما بينها من ارتباط علية Causal Connections.
- تعميمات تقوم بين القوانين العلمية فتوحد بين أكبر قدر منها في نظرية.

وإذا كان اليقين العلمي يعتمد على براهين وأدلة منطقية فإن هذا لا يعني على الإطلاق أنه يقين ثابت أو نهائي؛ فالعلم لا يعترف بشيء اسمه الحقائق النهائية التي تسري على كل زمان ومكان، بل يعمل حساباً للتغير والتطور المستمر.

٥ ـ **الدقة والتجريد**: في حياتنا المعتادة نستخدم في أحيان كثيرة عبارات تتسم بالغموض، وتبتعد عن الدقة، كأن يقول شخص: «قلبي يحدثني بأنه سيحدث كذا....»، وهذه العبارة وما يماثلها ليست مقبولة في العلم؛ لأن من غير المعقول أو المقبول أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق لها.

ويتطلب البحث في اللغة والنظر في قضاياها ودراسة مشكلاتها دقة الصياغة حين التعبير عن الأفكار المختلفة، ووصفها بطريقة تجريدية دون أن ننساق وراء الأحكام المعيارية أو الجمالية؛ لذلك من غير المقبول في البحوث اللغوية وصف أحد أبيات الشعر بالجمال أو القبح، بالجودة أو الرداءة دون أن نقدم الخصائص التركيبية التي تعلل هذا كله. وعلى الرغم من وجود بعض الأحكام المعيارية عند النحاة العرب منذ المراحل الباكرة فإن تلك الأحكام كانت تعلل في ضوء قواعد التركيب النحوي للجملة العربية؛ فقولنا: قد زيداً رأيت، غير صحيح نحويّاً ungraminatical؛ لأن «قد» لا بد أن يأتي بعدها الفعل.

٦ ـ **اتصال البحث**: يبدأ العالم بحوثه دائماً من حيث انتهى العلماء السابقون وعندما ينتهي هو يبدأ العلماء اللاحقون، وعلى هذا يتطور العلم ويتقدم، ويكون البحث متصلاً. ومن أجل ذلك يجب على العالم أن يطلع على جميع البحوث العلمية التي تم إنجازها في

مجال تخصصه، وعلى آخر ما وصل إليه العلماء قبل أن يبدأ بحثه؛ حتى لا يبدأ من نقطة بدأ منها غيره، وحتى لا ينتهي إلى ما انتهى إليه غيره، فلا يعمل على تقدم العلم[1].

ويجب على الباحث في اللغة قراءة جهود السابقين عليه من كبار الأساتذة والباحثين الذين سبقوه في اقتحام الميدان؛ حتى يوضحوا له معالم الطريق، ويقدموا له الأساس المنهجي للعمل والبحث في اللغة، ويعرفوه بالموضوعات التي درست، وتلك التي تحتاج إلى من يخوضها أو يكمل جهد من سبقه؛ بمعنى أن أحد الباحثين لو درس المصطلحات النحوية والصرفية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ـ مثلاً ـ فإن غيره يستطيع إكمال الدراسة بعد تلك الفترة.... وهكذا.

٧ ـ البناء النسقي: يمتاز العلم بأن حقائقه يرتبط بعضها ببعض في بناء نسقي؛ فليس العلم مجموعة مفككة أو مبعثرة من الحقائق أو القوانين التي لا ترابط بينها، بل هو مجموعة حقائق منظمة تنظيماً يسمح لنا بأن نستنبط بعضها من بعضها الآخر، أو أن نفسر بعضها ببعضها الآخر، وهذا ما يسمح لنا بالتنبؤ، فما التنبؤ إلا استنباط حالة مستقبلية من حالات سابقة أو استنباط هذه الحالة من مبدأ أو قانون عام وصلنا إليه. وبدون هذا التنظيم النسقي لا يقوم علم فمهما تكدست الحقائق لا تكوّن علماً، كما لا يكوّن تكدس الطوب والحجارة والأبواب والشبابيك بيتاً[2].

٨ ـ التحليل: يمتاز العالم على الرجل العادي بالقدرة على التحليل الذي يجعله يصل إلى بسائط الأمور، أو ما يسميه ديكارت بـ«المطلقات» أو «غير المشروطات» التي لا يمكن تحليلها إلى ما هو

---

(١) السابق: ٢/ ٣٤ وما بعدها.

(٢) الدكتور محمد السرياقوسي: التعريف بمناهج العلوم ص٧٠.

أبسط منها، أو التي لا تعتمد على غيرها؛ فيصل العالِم في تحليله إلى ما يدرك ويفهم بالحدس المباشر، فجميع العلماء يحللون للوصول إلى مقدمات النتائج أو أسباب الظواهر والمشكلات، أو عناصر المركبات؛ فعالم الرياضيات يحلل الأعداد والأشكال، وعالم الكيمياء يحلل المواد إلى عناصرها البسيطة، وعالم الفيزياء يحلل الظواهر ويردها إلى أسباب حدوثها، وعالم الاجتماع يحلل المشكلات للوقوف على أسبابها، وعالم النفس هو الآخر يستخدم التحليل للوقوف على أسباب المرض النفسي[1].

ويعد التحليل Analysis من الأسس المنهجية في الدراسات اللغوية؛ لذلك هناك ما يسمى بـ«مستويات التحليل اللغوي» التي يتناول خلالها الباحث اللغة للنظر في عناصرها الصوتية والتركيبية والدلالية، وتعرف تلك الدراسات ما يسمى بأصغر عنصر صوتي، وأصغر عنصر صرفي... وهكذا.

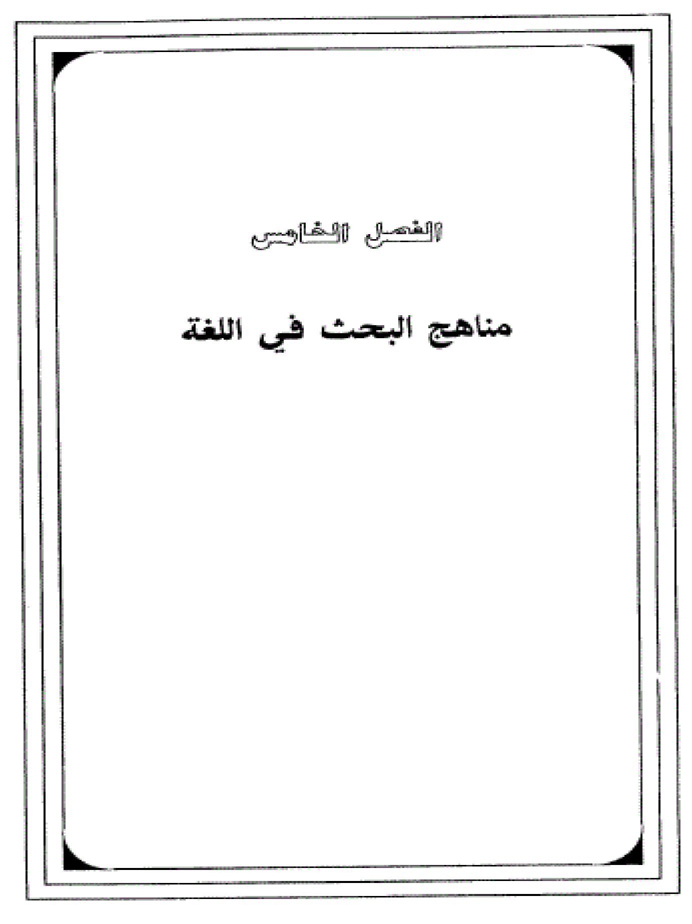
٩ - **الموضوعية:** المقصود بالموضوعية في التفكير العلمي التزام الباحث بالشروط التي تجعله متفقاً مع العلماء فيما قرروه، ويأتي على رأس تلك الشروط التخلي عن التحيز خلال استعمال لغة ملائمة تعبر عن الحيدة والموضوعية في عرض الآراء والأفكار المختلفة، والالتزام بتصحيح إحساساته وتعديلها وتنظيمها، والتجرّد والنزاهة وتجنب كل حكم من أحكام القيمة، والابتعاد عن الأهواء الشخصية والرغبات والميول والآراء المسبقة.

وتؤدي الموضوعية في البحوث اللغوية إلى الدقة في صياغة الآراء والتعبير عن الأفكار والاستنتاج السليم والملاحظة الواعية والقدرة على التفسير والتنسيق والتنظيم. ولا تمنع الموضوعية الباحث في اللغة من التدخل للتعبير عن آرائه واجتهاداته والاستدلال السليم على بعض النتائج المترتبة على البحث.

❋ ❋ ❋

---

(١) السابق: ص٧١.



الفصل الخامس

مناهج البحث في اللغة

مناهج البحث في اللغة

هناك مجموعة من المناهج الأساسية في تاريخ الدرس اللغوي، ويجب على الباحث الإلمام بها، ومعرفة حدودها، وكيفية الإفادة منها في التحليل اللغوي، ويجب عليه أيضاً أن يختار المنهج الذي يتناسب مع الموضوع الذي يبحثه، وربما يتبنى أكثر من منهج، وهذا تابع من طبيعة الظاهرة اللغوية التي يدرسها. ويؤدي عدم وضوح المنهج، أو عدم وجوده أصلًا، أو السير على أساس خطواته ولكن دون الوعي التام به - إلى الوقوع في الكثير من الأخطاء، وإخراج بحث غير متكامل يسيطر عليه التفكك والبعد عن الدقة في المعالجة للموضوع أو الظاهرة المدروسة.

ونحاول، فيما يلي، التعريف بتلك المناهج الأساسية التي تفيد في التحليل اللغوي خلال مستوياته: الصوتية، والتركيبية، والدلالية.

١ - المنهج المقارن:

يدرس المنهج المقارن Comparative method اللغات التي تندرج تحت أصل واحد، أو التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة؛ حتى يجمع الخصائص والسمات المشتركة فيما بينها، للوصول إلى صياغة ما يسمى بـ«النحو المقارن» Comparative grammar لتلك اللغات. ومن أمثلة ذلك مجموعة «اللغات السامية» التي تندرج تحت أصل واحد يسمى «اللغة السامية الأم».

ويعد «المنهج المقارن» أقدم المناهج التي عرفها البحث اللغوي

في عصر ازدهاره في القرن التاسع عشر، وهو قرن دراسة اللغة الهندية الأوربية التي تضم عدداً كبيراً من اللغات الهندية أو الإيرانية والأوربية (اللاتينية واليونانية والكلتية والرومانية) وقد تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى أسرات أو فصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بين عدد منها، الأمر الذي جعلهم يفترضون وجود أصل مشترك خرجت عنه هذه اللغات على مر التاريخ، ووجدوا ظواهر مشتركة في اللغات المنتشرة ما بين أوربا وإيران والهند، واعتبروا هذه اللغات ضمن إطار أسرة لغوية واحدة من أصل واحد مشترك، ووجدوا اللغات العربية والعبرية والفينقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص اللغوية المشتركة؛ فقالوا: إنها لغات انحدرت من لغة واحدة أطلقوا عليها السامية الأم، أو السامية الأولى، وكل هذه المقارنات هي مجال «علم اللغة المقارن»[1]. والذي مهد لظهور المنهج المقارن اكتشاف السير وليم جونز Sir William Joens الذي كان يعمل قاضياً في المحكمة العليا بالبنغال للغة السنسكريتية سنة ١٧٨٦م، وللعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية وما تفرع عنهما من لغات.

ومقارنة اللغات للكشف عن أصولها واندراجها تحت أسرة لغوية واحدة أساسه وجود التشابه في اطراد القوانين الصوتية، والأبنية الصرفية، والتراكيب النحوية، والدليل على ذلك أن التقاء اللغات في الكثير من التشابه في المفردات لا يعني أنها تنتمي إلى أصل واحد، ومن أمثلة ذلك اللغة الفارسية التي تعد واحدة من اللغات الهندية الأوربية على الرغم من أن نصف ألفاظها لها أصول في اللغة العربية، وكذلك اللغة الإنجليزية التي تعد جرمانية الأصل، على الرغم من كثرة مفرداتها التي تنتمي إلى اليونانية واللاتينية.

---

(١) الدكتور محمود فهمي حجازي: البحث اللغوي ص٢٦.

ولم يكن جميع القدامى من اللغويين العرب على جهل باللغات السامية، بل كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبعض هذه اللغات، وإن لم تثمر هذه المعرفة عندهم في الدرس اللغوي ومقارنة العربية باللغات السامية؛ فقد ورد في كتاب (العين) للخليل بن أحمد قوله: «وكنعان بن سام بن نوح، ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية»[1].

كما عرف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) اللغة السريانية وأداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها. قال: «للعرب في كلامها علامات، لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه؛ منها إدخال الألف واللام في أول الاسم وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه في الرفع والنصب والخفض، كما أدخلوا في (الطور) وحذفوا الألف التي في الآخر، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية (طُورا) على حال واحد، في الرفع والنصب والخفض، وكذلك (اليم) هو بالسريانية (يَمّا) فأدخلت العرب فيه الألف واللام وصرفته في جميع الإعراب على ما وصفت»[2].

وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية، كما يقول الإمام السهيلي (ت٥٨١هـ) في العلاقة بين العربية والسريانية: «وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، أو يقاربه في اللفظ»[3].

وكذلك عرف أبو حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) اللغة الحبشية، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف فيها تأليفاً مستقلاً، وقد أشار

---

(١) العين: ١/ ٢٣٢.

(٢) أبو حاتم الرازي: الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ١/ ٧٧.

(٣) التعريف والإعلام: ص١١.

ذلك في تفسيره الكبير المسمَّى بـ(البحر المحيط)[1]. قال: «وقد تكلمت عن كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى بـ(جلاء الغبش عن لسان الحبش)[2].

وعلم اللغة المقارن أول فروع الدراسات اللغوية التي عرفها الباحثون في الوطن العربي، ويعود ذلك إلى فترة إنشاء الجامعة الأهلية في مصر سنة ١٩٠٨، وزاد الاهتمام به سنة ١٩٢٥ حين تولت الدولة أمر الجامعة، وجعلتها حكومية، وأصبح علم اللغة المقارن للغات السامية من المقررات الأساسية التي تدرس في قسم اللغة العربية واللغات الشرقية في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً)، ويعود السبب في ذلك إلى أن عمالقة الدراسات السامية في أوربا مثل برجشتراسر Bergsträsser وشاده Schaade وليتمان Littmann كانوا يعملون في الوقت نفسه في الجامعة المصرية، ومن أهم أعمالهم العلمية ما يأتي:

١ ـ التطور النحوي للغة العربية من تأليف برجشتراسر طبعة القاهرة ١٩٢٩.

٢ ـ علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، وهي مجموعة محاضرات ألقاها شاده في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية، مقال في مجلة «صحيفة الجامعة المصرية» السنة الثانية، العدد الخامس، ص٣ ـ ٢٦ مايو ١٩٣١.

٣ ـ بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول، المجلد العاشر، القسم الأول، مايو ١٩٤٨، وهو من تأليف ليتمان.

٤ ـ تاريخ اللغات السامية من تأليف إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٢٩.

---

(١) البحر المحيط: ٤/ ١٦٢ وما بعدها.

(٢) الدكتور رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص٤٢ وما بعدها.

وقد حدث تطور في اللوائح الداخلية لكليات الآداب في الجامعات المصرية، ونتج عن ذلك قيام أقسام مستقلة للغات الشرقية، وتم إعداد الكثير من بحوث الماجستير والدكتوراه في اللغات السامية.

٢ ـ المنهج التاريخي:

يدور «المنهج التاريخي» Historical method في إطار حصر التغييرات التي تصيب اللغة على مر العصور خلال النظر في أصواتها، وأبنيتها الصرفية، وتراكيبها النحوية، ونظام الجملة فيها، ودلالة ألفاظها، مع محاولة تلمس الأسباب التي أدت إلى هذا التغيير. ويجب على الباحث الذي يتبع هذا المنهج في معالجة إحدى الظواهر اللغوية في العربية أن يتعامل مع أقدم المصادر التي وردت فيها تلك الظاهرة، وعليه أن يبدأ بالنقوش المكتوبة، ثم النصوص الشعرية والنثرية الخاصة بالعصر الجاهلي، ثم النصوص الخاصة بالعصر الإسلامي... حتى يصل إلى آخر نص وردت فيه الظاهرة موضوع الدرس.

وقد نالت الألفاظ عناية فائقة من المشتغلين بدراسات «علم اللغة التاريخي» Historical linguistics أكثر من غيرها، وأصبح لها علم قائم بذاته هو ما يسمى بـ Etymology الذي عرفه دي سوسير بقوله[١]:

It goes back into the history of words until it finds some thing to explain them... Etymology does not simply explain isolated words and stop there. It complies the history of words families and of families of formative elements - prefix, suffiexs.

ويدل هذا النص على أن علم «تطور الكلمات» ومعرفة تاريخها من حيث الاستعمال يهتم بالنصوص أكثر من غيرها، لأنه يغوص في أعماقها، محاولاً الوصول إلى أقدمها؛ حتى يمكنه أن يرى استخدام الشاعر - مثلاً - للكلمة؛ بل يتجاوز ذلك إلى البحث في العائلات المتشابهة من اللغات لملاحقة معنى الكلمة في تطوره التاريخي؛ لذلك

(١) Course in general linguistics, P.189.

ليست هناك فائدة في الاعتماد على المعجم وحده في معرفة معنى الكلمة واستعماله؛ لأنه - بكل بساطة - لا يضيف جديداً سوى الحصر، إن كانت في الحصر جدة، ومن هنا فإنه من الأهمية حين صناعة المعجمات - خاصة التاريخية منها - الاتصال بالنصوص في أقدم مظانها. ومن أمثلة التطور في دلالة الألفاظ كلمة (السيارة) التي تعني عند القدماء «القافلة» أو «الجماعة»، وقد ورد ذلك في الذكر الحكيم. قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾[1]، وهناك معنى محدث؛ إذ يعرف (المعجم الوسيط) السيارة بأنها عربة آلية سريعة السير، تسير بالبنزين ونحوه، وتستخدم في الركوب أو النقل، ويحكم المعجم على تلك الدلالة بأنها «محدثة»[2].

ويشترط في دراسة اللغة من الناحية التاريخية أن يسبقها الدراسة الوصفية Descriptive لها، خلال المراحل المختلفة التي مرت بها في تاريخها الطويل، ويؤدي هذا إلى تحقيق تلك الدراسة التاريخية للغاية المنشودة منها، وقيامها على أساس علمي سليم ووصولها إلى درجة عالية من الدقة والإتقان؛ وذلك حين تدوين تاريخ تلك اللغة المدروسة خلال الأصوات والصرف والنحو والدلالة.

وقد ساد المنهج التاريخي في الدراسات الغربية، ودرس اللغويون في ضوئه اللغات الأوروبية القديمة كاليونانية واللاتينية، وأهملوا اللغات الحديثة؛ لأنهم نظروا إليها على أنها «شيء متغير خداع، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الجزء الموجود في اللغة المكتوبة»[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٩.

(٢) المعجم الوسيط: ١/٤٦٧.

(٣) ماريو باي: أسس علم اللغة ص١٦٤.

ويرى الدكتور محمود فهمي حجازي أن التطور اللغوي الذي يدرسه علم اللغة التاريخي له شقان هما:

- التطور في بنية الكلمة.
- مجالات الانتشار والاستخدام اللغوي.

وهذان الشقان نابعان من الطبيعة الرمزية للبنية اللغوية، ومن الوظيفة الاجتماعية لها، والجانبان متكاملان يفسر أحدهما الآخر. ويلجأ الدكتور حجازي إلى التمثيل لهذين الشقين قائلًا: «ولنقف قليلًا عند كلمة (القرآن) وكلمة (القاهرة) في حديث من ينطق كلمة (قال) وكلمة (قرش) بهمز ودون قاف فصحى. إن هذا المتحدث لا يمثل هنا نفسه؛ بل يمثل خاصية من خصائص لهجة القاهرة وبعض اللهجات الأخرى في مصر. ونحن نعلم أن القاف القديمة تحولت في ألفاظ لهجة القاهرة إلى همزة، وهذا قانون صوتي مطرد، والقوانين الصوتية لا تعرف الشذوذ ولا التهاون؛ فهي مطردة دائماً. فلِمَ لَمْ يَسْرِ قانون تحول القاف إلى همزة في لهجة القاهرة على القاف في (القرآن) و(القاهرة)».

ويجيب الأستاذ عن السؤال بقوله: «الواقع أن هذا يفسَّر بمستويات الاستخدام اللغوي؛ فالمتحدث بالعامية لم يسمع الكلمتين إلا في المسجد أو قراءة المتعلمين، ولا يسمعها اليوم إلا على المستوى الثقافي، فقد حلت كلمة (مصر) في الحديث اليومي محل كلمة (القاهرة)، وحلت كلمة (المصحف) محل كلمة (القرآن). فإذا قلنا بأن القانون الصوتي مطرد، لا يعرف الشذوذ وأن القاف في العربية الفصحى يقابلها همزة في لهجة القاهرة؛ فإننا لا نفسر وجود القاف في (القرآن) و(القاهرة) في نطق أبناء القاهرة إلا بالنظر في مستوى الاستخدام اللغوي؛ فالواقع أن الكلمتين استعيرتا من الفصحى إلى اللهجة المحلية، فاحتفظتا بالقاف بعد أن كانت لهجة القاهرة قد

هجرت القاف إلى الهمزة، فواجب اللغوي أن يدرس نظام اللغة ومستوى استخدامها، وأن يدخل البعد الآخر في تفسيره للظواهر اللغوية»[1].

المعجم التاريخي لألفاظ العربية:

أشار المستشرقون الذين كتبوا في التأليف المعجمي إلى أن العرب يحتلون في مجال المعجمات مكان المركز، سواء في الزمان أم المكان، بالنسبة للعالم القديم وبالنسبة للشرق أو الغرب، وقد سيطر على المعجم العربي منذ نشأته هدف أساسي وهو تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة، وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة؛ لذلك لو أن عربيًّا من القرن الخامس عشر عبر الزمن إلى بريطانيا في القرن العشرين لما كان يستغرب رؤية «معجم أكسفورد» الكبير على المكاتب؛ لأن العرب كان لديهم معجم (القاموس المحيط)، وكانت نسخه قبل اكتشاف الطباعة تعد بالآلاف. وأثنى فريق آخر من المستشرقين على (لسان العرب) و(القاموس المحيط)؛ لأنه لا يستطيع كتابة هذين المعجمين إلا شعب عالٍ جدًّا في الثقافة والأدب، ولا يستطيع جمع مثل هذين المعجمين إلا الباحثون المتميزون. ويرى المستشرقون كذلك أن الخليل بن أحمد يعد أول شخص يحاول تسجيل معاني المفردات الكاملة للغة في العالم، وكان يقصد بذلك جذور الكلمات كلها، بدلًا من الكلمات كلها، وليس في هذا سوى مثال واحد على أن العرب توفر لديهم الموقف الصحيح والسجية الموفقة لتأليف المعاجم[2].

وقد استعان المستشرقون بالمعاجم العربية في دراساتهم وبحوثهم

---

(١) المدخل إلى علم اللغة: ص٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر كتاب Arabic Lexicography لمؤلفه Haywood ص٢ و ٧ و١٣٢ و٤٣١.

وأعمالهم العلمية؛ لأنها متنوعة في موضوعاتها، متعددة في فروعها، فضلًا عن الثقة الكبيرة التي تحيط بها وما تميز بها مؤلفوها من اللغويين العرب والمسلمين من الدقة والأمانة العلمية. ولكن المستشرقين وجدوا بعض جوانب القصور والنقص في ميدان التأليف المعجمي عند العرب؛ لأنهم اتبعوا «المعيارية» في حصر ألفاظ اللغة؛ فكانوا يذكرون أحد النماذج اللغوية دون أن يهتموا بتسجيل التطور اللغوي الذي طرأ عليه.

ويفيد «المنهج التاريخي» الذي نحن بصدده في إعداد ما يمكن أن نسميه «المعجم التاريخي لألفاظ العربية» الذي يتتبع حياة الكلمات والتطور الدلالي الذي أصابها على مر العصور، حتى نصل إلى آخر استخدام للكلمة، ويمكن الإفادة أيضاً من «المنهج المقارن» في هذا المجال؛ أي تأصيل المفردات.

وقد اهتم المستشرق الهولندي دوزي بذكر الكلمات التي لم ترد في المعاجم القديمة عن طريق تتبعها فيما أسماه «مصنفات العرب في القرون الوسطى» مثل مؤلفات ابن القوطية، وابن خلدون، وابن بطوطة، وبعض المصادر مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة وكتابات الأطباء والجغرافيين وغيرهم، وأصدر ذلك فيما أسماه «ذيل المعاجم العربية» وترجم بعضه محمد سليم النعيمي في خمسة مجلدات عن الفرنسية.

ويوم أنشئ «مجمع اللغة العربية» عام **١٩٣٤** نُصَّ في مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه:

(أ) أن يحافظ على سلامة اللغة، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر.

(ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية.

وقد كوّن المجمع لجنة للمعجم تضم كبار اللغويين العرب والمستعربين، وكان من بين أعضائها المستشرق الألماني فيشر الذي رغب في أن يخرج معجماً على غرار معجم أكسفورد التاريخي؛ فيصعد إلى النصوص الأولى ليوضح معاني الكلمات ويتتبع تاريخها وتغير مدلولها. وقد مات فيشر سنة ١٩٤٩ قبل أن يرى معجمه النور، وحاول المجمع تنظيم البطاقات التي تركها فيشر، ولكن لم يستطع المجمع إلا أن ينشر مقدمة ونموذجاً صغيراً سبق للمؤلف إعدادهما، وقد احتوت المقدمة التي كتبها فيشر على الكثير من الأشياء المفيدة في صناعة المعاجم، ونحاول التعرف على تلك المقدمة.

أطلق فيشر على مشروعه اسم (المعجم اللغوي التاريخي) وقد صدره بمقدمة طويلة تحدث فيها عن النقص في المعاجم العربية، وبيَّن ما في بعضها من الخلل، ثم قال: «يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة بلا استثناء وجدت في اللغة، وأن تعرض على وجهات النظر السبع التالية: التاريخية، والاشتقاقية، والتصريفية، والتعبيرية، والنحوية، والبيانية، والأسلوبية»[1]. وأخذ فيشر يشرح كل ناحية من النواحي السابقة على النحو الآتي:

١ ـ الناحية التاريخية Historical: لا بد من تقييد الكلمات التي وصلت إلينا، مع بعض الشواهد، ونسبة كل شاهد إلى صاحبه، ملتزمين الناحية التاريخية؛ بحيث نرى متى ظهرت الكلمة، ثم آخر تطور وصلت إليه، وهل لاقت موتاً في الزمن القديم أو الحديث، أو اندثر معنى من معانيها، واستعيض عنه بمرادف.

٢ ـ الناحية الاشتقاقية Etymological: وتختص ببحث أصل الكلمة ونسبها، وهذه الناحية يتصل بها علم ضبط الهجاء، وعلم العروض

---

(١) فيشر: المعجم اللغوي التاريخي، الطبعة الأولى، القاهرة سنة١٩٦٧.

للكلمة. ويرى فيشر أنه يجب رد المعربات إلى أصولها على قدر الإمكان، ولا بد أن يكون مؤلف المعجم العربي متمكناً من اللغات السامية الأخرى، وكذلك اللغة الفارسية، واليونانية، والتركية وغيرها.

٣ - الناحية التصريفية Flexional: وتختص بتصريف الأفعال والأسماء وغيرها، ولا يهم إيراد شواهد لديها، أما الصيغ الأخرى فيجب أن نأتي لها بكل الشواهد الممكنة، حتى نتعرف على مدى صحتها.

٤ - الناحية التعبيرية Semasiological: وهدفها تحقيق معنى الكلمة أو معانيها، وفي حالة وجود معانٍ كثيرة تُرتَّب هذه المعاني على حسب علاقتها التاريخية والعقلية؛ كما يجب تقديم المعنى العام على المعنى الخاص، والمعنى الحسي على المعنى العقلي، والمعنى الحقيقي على المعنى المجازي، ويمكن الاستعانة هنا بعلم المجاز، والاشتقاق، والترادف.

٥ - الناحية النحوية Syntatical: ومن شأنها تناول جميع الصلات القوية التي يمكن أن تربط كلمة بأخرى، وترتيب الكلام في السياق، وغيرها من النواحي النحوية.

٦ - الناحية البيانية Pharseological: وتختص ببعض العلاقات التي استشعر منها أنها لازمة للكلمة على الدوام، ومن هذه العلاقات صيغ الإتباع والمزاوجة، والمشاكلة، والتوكيد للمعنى، وازدواج عبارتين متضادتين للتعبير عن معنى واحد مبالغ فيه.

٧ - الناحية الأسلوبية Stylistic: تحدد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو التركيب استعمالاً عامًّا أو خاصًّا.

هذه هي النواحي السبع التي يرى فيشر وجوب توافرها في المعجم، ومن ثم فإن معجمه يجب أن يشتمل عليها، ومعجمه معجم

تاريخي للغة العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري؛ أي حتى منتهى ما وصلت إليه العربية من الفصحى والكمال. ولم يمتد العمر بفيشر حتى يتم عمله الذي يحتاج إلى جهود عشرات من الباحثين وفريق العمل، ولكن المنهج الذي وضعه كان أساساً مهمًا لـ(المعجم الكبير)[1] الذي أصدر منه المجمع بعض المجلدات.

٣ ـ المنهج الوصفي:

يهتم «المنهج الوصفي» Descriptive method بدراسة «اللغة» أو «اللهجة» عن طريق «الوصف» الدقيق لأصواتها ومقاطعها، وأبنيتها الصرفية، وتراكيبها النحوية التي تعبر عن مجموعة من المعاني المختلفة، ودلالة ألفاظها في ضوء العلاقات السياقية داخل النص. وقد سيطر هذا المنهج على الدراسات اللغوية في أنحاء العالم كافة بفضل جهود دي سوسير الذي أشار إلى أن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها؛ تلك اللغة التي تظهر وتتحقق في أشكال لغات كثيرة ولهجات متعددة وصور مختلفة من الكلام. وعلم اللغة يدرس اللغة في ذاتها من حيث هي لغة، يدرسها كما هي، يدرسها كما تظهر؛ فليس للباحث فيها أن يغير من طبيعتها، كما أنه ليس للباحث في موضوع أي علم من العلوم أن يغير من طبيعته؛ فليس له أن يقتصر في بحثه على جوانب من اللغة مستحسناً إياها، وينحي جوانب أخرى استهجاناً لها، أو استخفافاً بها، أو لغرض في نفسه أو لأي سبب آخر من الأسباب. ويدرس علم اللغةِ اللغةَ من أجل ذاتها، أي لغرض الدراسة نفسها، يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها؛ فليس من موضوع دراسته أن يحقق أغراضاً تربوية مثلًا، أو أغراض عملية أخرى؛ إنه لا يدرسها هادفاً إلى ترقيتها، أو إلى تصحيح جوانب منها أو تعديل

---

(١) صدرت الطبعة الأولى منه في القاهرة سنة ١٩٥٦، المطبعة الأميرية، وصدرت طبعة أخرى عن دار الكتب ١٩٧٠.

آخر؛ إن عمله قاصر على أن «يصفها» ويحللها بطريقة موضوعية[1].

وقد عزف بعض علماء المنهج الوصفي عن دراسة اللغات القديمة كالسنسكريتية واليونانية القديمة واللاتينية وسواها، ويعود السبب في ذلك إلى أن «اللغة» يجب دراستها خلال الواقع المنطوق؛ لأن المنهج الوصفي يهتم بواقع الظاهرة اللغوية في ضوء ما يسمى بـ«اللغة المنطوقة» Spoken language؛ لأن قواعد الإملاء والكتابة، مهما كانت دقيقة، لا تفيد في وصف أية ظاهرة لغوية، ويضاف إلى ذلك أن النص المنطوق يتيح الفرصة لدراسة أصواته، وقوانين النبر الخاصة به، والتنغيم حين النطق لبعض العبارات والجمل.

ولا يمكن الأخذ بالمبدأ الذي أشار إليه أتباع المنهج الوصفي من العزوف عن دراسة «اللغة المكتوبة» Written language؛ لأن الدراسة اللغوية للعربية منذ العصر الجاهلي حتى الآن تعتمد على النصوص الشعرية والنثرية المكتوبة التي وصلت إلينا، وأجريت الكثير من الدراسات على الأبنية الصرفية، وبناء الجملة، ودلالة الألفاظ الخاصة بتلك النصوص، واستطاع الباحثون التوصل إلى الكثير من الخصائص التي تطبع التركيب النحوي للجملة العربية، مع ربطه بالمعنى أو الدلالة التي يدور حولها النص؛ لذلك قدم الباحثون وصفاً للجملة الاسمية في شعر الفرزدق، والجملة الفعلية في شعر المتنبي، وأبنية المصدر في الشعر الجاهلي... وسواها من الدراسات التي سارت على هدى من المنهج الوصفي.

الوصفيون والنحو التقليدي:

وجه الوصفيون نقداً عنيفاً إلى «النحو التقليدي» Tradional grammar ويمكن حصر تلك الانتقادات في النقاط الآتية:

---

(١) قدم الدكتور محمود السعران شرحاً دقيقاً لتعريف دي سوسير في كتابه (علم اللغة) ص٥١ وما بعدها.

١ ـ أهمل النحو التقليدي «التنغيم» وأثره في التفريق بين معاني الجمل؛ لأن التقليديين نظروا إليه نظرة سطحية ولم يحاولوا ربطه بالدلالة، ولم يهتموا بـ«العلامة» Mark ودورها في نظام الجملة، وكانوا يرون أن الجملة تنتهي بالنقطة، في حين أن الجملة الجديدة هي التي تبدأ بحرف كبير.

٢ ـ لكل كلمة في اللغة عدة صيغ تختلف فيما بينها، ويسمى هذا في النحو التقليدي باسم «الإعراب» Inflection، في حين أن الأعمال اللغوية الحديثة تدرس الصيغ وما بينها من اختلافات في إطار علم الصرف، أو علم دراسة الصيغ Morphology.

٣ ـ يهتم النحو التقليدي بأقسام الكلمة اهتماماً كبيراً، وتبدأ معظم المؤلفات النحوية بالحديث عن تلك الأقسام، وطبقاً لما قاله معظم النحاة فإن هناك ثمانية أقسام للكلمة هي: Noum, Pronoum, Adjective, Verb, Preposition, Conjunction, Adverv, Interjection، ويضرب هذا التقسيم بجذوره في أعماق الماضي السحيق؛ لأنه يعود إلى الأوائل من فلاسفة الإغريق كأرسطو؛ بل يعود إلى النحوي القديم ثراكس Dionysuis Thrax الذي قنن النحو الخاص باللغة اليونانية سنة ١٠٠ق.م، وقد لاحظ وجود ثمانية أقسام للكلمة، تتفق ستة منها مع الثمانية التي ذكرناها، والاختلاف يكمن في تمييزه للأسماء والصفات.

٤ ـ يدور التحليل في النحو التقليدي في إطار ثلاثة مصطلحات مع الاهتمام بتحديدها في الجملة، وهي: Verbs, Objects, Subjects؛ لذلك عند تحليل جملة: John loves Mary يقول التقليديون إن John هو الفاعل، وMary هي المفعول للفعل Loves، ولم يهتموا بتحليل الجملة إلى أصغر مكوناتها الصرفية والنحوية[1].

(١) انظر كتاب Grammar لمؤلفه Frank Palmer ص٣٠ ـ ٨٣.

وهناك انتقادات أخرى وجهها الوصفيون إلى النحو التقليدي، منها أنه يحدد قواعد اللغة بناء على فهم المعنى أولًا، ومعنى هذا أن القواعد تتحدد وفقاً للدارس نفسه؛ أي إن هذا النحو يتقدم على أساس ذاتي، وهو يهتم أساساً بمعرفة «العلة»، والسؤال الذي يشغل أصحابه دائماً هو: لِمَ كان هذا هكذا، ولم يكن غير ذلك؟ والاهتمام بالتعليل كان نتيجة لصدور هذا النحو عن الفكر الأرسطي، ولذلك أخذ «الجملة الخبرية» باعتبارها أساس البحث اللغوي، ومن ثم تحدد «أقسام الكلام» حسب وظيفتها في هذه الجملة فقط، أما الأنماط الأخرى من الجملة فقد جرى شرحها باعتبارها أشكالًا منحرفة عن الجملة الخبرية. وباعتماد النحو التقليدي على المنطق الأرسطي، وهو مبني على اللغة اليونانية، أدى بهذا النحو إلى تحديد قواعد اللغات الأوربية على ضوء ما تقرر في اللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وهكذا حدث خلط شديد في فهم ظواهر كل لغة. ثم إن هذا النحو لم يميز بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، على حين أن لكل منهما نظاماً خاصًّاً قد يختلف اختلافاً كبيراً عن صاحبه، بل إنه ركز اهتمامه على اللغة المكتوبة، بل على أنواع معينة منها، وقد ترتب على ذلك أولًا أنه قدم قواعد اللغة على أساس معياري، وعلى أساس جمالي تقييمي؛ فهذا استعمال عالٍ، وذاك متوسط، وثالث قبيح. . . وهكذا، وترتب عليه ثانياً أنه قدم تفسيرات غير صحيحة لنصوص مختارة اختياراً دقيقاً، أو لنصوص موضوعة لتلائم قواعده، ومن ثم حكم على غير ذلك من الاستعمال بأنه شاذ أو استثنائي أو غير نحوي. وأخيراً فإن النحو التقليدي قد خلط مستويات التحليل اللغوي خلطاً شديداً بحيث لا يتحدد أسس التحليل الصوتي والصرفي والنحوي في نسق منهجي واضح، وإنما هي تتداخل تداخلًا يؤدي إلى تناقض الأحكام في كثير من الحالات[1].

---

(١) نقلًا عن (النحو العربي والدرس الحديث) للدكتور عبده الراجحي ص٤٦ ـ ٤٨ بتصرف.

وصايا فيرث للواصف النحوي:

قدم فيرث J.R.Firth بعض الوصايا للواصف النحوي، ولخص تلك الوصايا الدكتور محمود السعران، وهي تعد أساس التحليل النحوي عند الوصفيين، وقد جاءت على النحو الآتي:

١ ـ من المبادئ العامة المقررة في الوصف النحوي أن معاني الأشكال النحوية على المستوى النحوي وعلى المستوى المعجمي (أو القاموسي) ينبغي أن يحدد بالنسبة لنظام اللغة موضوع البحث.

٢ ـ ومن المبادئ العامة المقررة في الوصف النحوي كذلك أن المبدأ الأساسي في وصف النظام النحوي هو أن يتجنب الباحث أن يدخل مقدماً تصنيفات سابقة، وألا يعترف إلا بالأقسام اللغوية التي تعبر عنها اللغة موضوع البحث بطريقة شكلية، ومن هذه الأقسام: الاسم والفعل. . . إلخ.

٣ ـ ثم إنه على الواصف النحوي عندما ينظر في الأقسام النحوية التي تعبر عنها اللغة بطريقة شكلية أن يحدد قائمة بعناصر هذه الأقسام، وأن يقرر توزعها ووظيفتها ومعناها على المستوى النحوي في مصطلحات خاصة بالنظام النحوي الذي تتبعه اللغة، وفي علاقة ذلك بظروف الاستعمال في الواقع.

٤ ـ كما أن على الباحث أن يحدد بعناية مدى استعمال هذه الأقسام في اللغة، وأن يبين الوسائل التي تتضح بها في أجلى صورة.

٥ ـ وعلى الباحث أن يدخل في اعتباره على الدوام المقاييس المورفولوجية والنظمية؛ أي أن يدخل في اعتباره البنية الشكلية والظروف الاجتماعية الكائنة عند نطق الكلام.

٦ ـ وعلى الباحث، على الدوام، أن يقيم هذه الأقسام على أسس شكلية لا تصورية أو فلسفية.

٧ ـ وإذا كان الكلام المتخصص أو اللغة المتخصصة تتحقق فيها قواعد خاصة، وهذا هو الذي يحدث في أغلب الأحوال، فعلى الباحث أن يشير إلى الفروق بين القواعد التي تسير عليها اللغة في الكلام العادي المألوف وبين تلك التي تسير عليها اللغة المتخصصة كلغة الدين أو لغة السياسة أو لغة الاقتصاد. . . . إلخ.

٨ ـ ويحدث في معظم اللغات أن يعامل الدخيل؛ أي المستعار من لغة أجنبية معاملة خاصة، ومن ذلك أن الأسماء الأعجمية عندما تدخل العربية تمنع من الصرف، فعلى الباحث أن يتبع سلوك الكلام الأجنبي في اللغة التي يدرسها.

٩ ـ على الواصف النحوي عندما يعرض الأقسام النظمية مثل نظام الفعل أن يلقى انتباهه للطرق المتنوعة التي يلجأ إليها الكلام المنطوق لتحليل أو تركيب هيئات حالة معقدة، كما أن عليه أن يلقى انتباهه كذلك إلى الظروف الاجتماعية التي تستعمل فيها هذه الأقسام؛ فإذا كانت اللغة التي يدرسها لغة تستعمل نظاماً من الفعل معقداً فعليه أن يحدد الأحوال التي يتضمنها استعمال الأقسام المختلفة للفعل.

وعلى الباحث أن يتنبه إلى عناصر البنية التي لها وظيفة نظمية؛ وذلك كالنفي والنهي والاستفهام والوصل والفصل. . . إلخ، وأن يستشهد بأمثلة توضح العلاقات القائمة بين هذه العناصر[1].

المنهج الوصفي والإحصاء:

من الأسس المهمة في المنهج الوصفي استعانته ـ في بعض الأحيان ـ بـ«الجانب الإحصائي» الذي يهدف إلى حصر الشائع من

---

(١) انظر ما كتبه فيرث تحت عنوان General linguistics and descriptive grammar ضمن كتاب Papres in linguistics ص٢١٦ ـ ٢٢٨، وكتاب (علم اللغة) للدكتور محمود السعران ص٢٣٧ ـ ٢٣٩.

المقاطع والسلاسل الصوتية، والمفردات، والأبنية أو الصيغ الصرفية، والتراكيب النحوية، ولا بد من الإفادة من هذا الحصر في بعض النواحي اللغوية العملية كما سنوضح بعد ذلك.

ومن أمثلة الاستعانة بالإحصاء في الدراسة اللغوية الوصفية التعرف على «الأبنية الصرفية» في ديوان امرئ القيس، وبيان أكثرها دوراناً واستعمالاً في شعره.

ومن أمثلة ذلك أيضاً التعرف على «الثروة اللفظية» في المعلقات، وما يندرج تحتها من الأضداد والترادف والاشتراك اللفظي وسواها، ولا بد من بيان عدد مرات استخدام كل ظاهرة لفظية.

ونستطيع الاستعانة بالإحصاء - مثلاً - حين الدراسة الوصفية لاستعمال «الجملة» في شعر جرير؛ إذ لا بد من بيان عدد مرات استخدامه للجملة الاسمية، والجملة الفعلية.

وحين درس الدكتور إبراهيم أنيس ظاهرة «القلب المكاني»[1] في العربية عللها في ضوء شيوع ما يسمى بـ«السلاسل الصوتية» في مفردات اللغة. يقول: «إن المرء يكتسب في سني حياته محصولاً لغوياً ضخماً يختزنه مرتباً في مخه ترتيباً خاصّاً، يعين على تذكره وتداعي بعضه مع بعض... ولا نشك في أن ذلك المحصول اللغوي لدى كل منا يتألف من سلاسل صوتية أغلبها ثلاثي الأصول أو الجذور، وأن هذه السلاسل الصوتية تختلف في نسب شيوعها... فإذا سمع السامع أو

---

(١) القلب المكاني: تغيير في ترتيب حروف الكلمة المفردة عن الصيغة المعروفة لها بواسطة تقديم بعض الحروف وتأخير بعضها الآخر، ومن أمثلة ذلك «مرسح» بدلاً من «مسرح»، و«معلقة» بدلاً من «ملعقة»، و«أنارب» بدلاً من أرانب»... وهكذا. والقلب المكاني موجود في بعض اللغات كالإنجليزية ويطلق عليه مصطلح Metathesis أو Transposition ويمثلون له بكلمة ask التي يصيبها القلب - أحياناً فتتحول إلى aks.

نطق الناطق بسلسلة من تلك السلاسل الصوتية القليلة الشيوع تداعت لها مسرعة سلسلة أخرى أشبه بها أو أقرب إليها، وهي في نفس الوقت أكثر منها شيوعاً وتردداً في كلام الناس، فكأنما كانت تطفو على سطح الشعور، ولذلك تبادر قبل غيرها في الاستجابة إلى المتكلم أو السامع. فحلول سلسلة صوتية محل أخرى، وهذا هو القلب المكاني، سره الحقيقي أن السلسلة الجديدة الطارئة أكثر شيوعاً ودوراناً في الكلام من الأخرى»[1].

ويمثل الدكتور إبراهيم أنيس للشيوع في الاستعمال بالمقارنة بين «يئس» ومقلوبه «أيس» قائلاً: «خذ - مثلاً - الفعل (يئس) - مع مقلوبه (أيس) نجد أن التفسير العلمي لهذا القلب هو أننا نجد في الإحصاءات التي بين أيدينا... أن الجذر الثلاثي الذي يبدأ بالياء وبعدها الهمزة أقل شيوعاً من الذي يبدأ بالهمزة وبعدها الياء؛ فبينما يرد الأول في إحصاءاتنا مرة واحدة فقط، يرد الثاني عشر مرات...»[2].

ونستطيع الإفادة من الإحصاء الذي تقدمه الدراسة اللغوية الوصفية في النواحي الآتية:

١ - حين إعداد أحد المعجمات يجب العناية بإثبات الحي السهل المأنوس من الكلمات والصيغ، وبخاصة ما يشعر الطالب والمترجم بالحاجة إليه، مع مراعاة الدقة والوضوح في شرح الألفاظ وتعريفها، كذلك يجب إدخال ما دعت الضرورة إلى إدخاله من الألفاظ المولدة، أو المحدثة، أو المعربة، أو الدخيلة التي أقرتها المجامع اللغوية، وارتضاها الأدباء، فتحركت بها ألسنتهم، وجرت بها أقلامهم. ولا يمكن التوصل إلى تلك الألفاظ التي نحتاج إليها في صناعة أحد

---

(١) الدكتور إبراهيم أنيس: مسطرة اللغوي، مقال منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء (٢٩) سنة ١٩٧٢ ص١٠ وما بعدها.

(٢) السابق: ص١١ وما بعدها.

المعجمات إلا في ضوء «المنهج الإحصائي» الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها، ثم يتم الانتقاء والاختيار حسب الشيوع في الاستعمال، والدوران على الألسنة[1].

٢ ـ حين إعداد دراسة لغوية عن شعر أحد الشعراء ـ مثلًا ـ يجب الإفادة من الإحصاءات التي تم التوصل إليها في التعرف على الخصائص الأسلوبية التي تطبع الأداء اللغوي عند هذا الشاعر، مع ربط تلك الخصائص بالدلالة والمناسبات التي قيلت فيها القصائد المختلفة؛ لذلك من العيوب في بعض الدراسات التي أعدت عن «لغة الشعر» الاكتفاء بمجموعة من الجداول التي تعطينا أرقاماً ونسباً مئوية دون الإفادة منها في النواحي الأسلوبية واللغوية والبلاغية.

٣ ـ حين إعداد كتاب في «النحو التعليمي» لمراحل التعليم العام ـ مثلًا ـ يجب الاهتمام بإحصاء القواعد التي يحتاج إليها الطلاب وحصرها بدقة، دون اللجوء إلى الاختيار العشوائي غير المدروس الذي يترتب عليه عدم تحقيق أية فائدة؛ لأنه يعتمد على الاجتهاد الشخصي في هذا الاختيار.

❁ ❁ ❁

وبعد هذا العرض نشير إلى أن المناهج الثلاثة: المقارن، والتاريخي، والوصفي تشكل ثلاثة من العلوم اللغوية هي:

١ ـ علم اللغة المقارن.

٢ ـ علم اللغة التاريخي.

٣ ـ علم اللغة الوصفي[2].

---

(١) انظر مقدمة (المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٢) سوف نفرد «علم اللغة التحويلي» بالدراسة المستقلة، وكذلك بعض العلوم اللغوية الأخرى التي نتجت عن اتصال علماء اللغة بالعلوم الإنسانية.

وتفيد تلك العلوم الثلاثة؛ بالإضافة إلى غيرها في «التحليل اللغوي»، ونحاول التعرف على ذلك في النقطة التالية.

مصطلحات التحليل اللغوي ومستوياته:

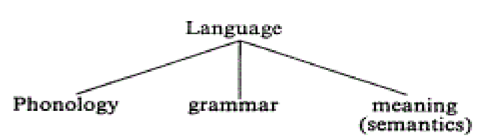
من أسس الدراسات اللغوية المعاصرة تحليل اللغة إلى أصغر عناصرها التي تتكون منها، ويبدأ التحليل بالنظر في الأصوات وما يندرج تحتها من الفونيمات والمقاطع والصوامت والصوائت...، ثم الأبنية أو الصيغ الصرفية التي يعد الحديث عنها أساس العمل في علم الصرف، ثم التراكيب النحوية وما يطرأ على بناء الجملة من تغييرات كالحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والاتساع، والاختصار...، ثم دلالة الألفاظ ومعاني العبارات والجمل في ضوء ما سبق تحليله؛ لذلك من الأمور المهمة وجود ما يسمى بالعلاقة بين المستويات، وعدم الفصل بينها؛ أي لا بد من ربط النحو بالأصوات والصرف، ولا بد من ربط الثلاثة معاً بالمعنى أو الدلالة.

وقد اختلف علماء اللغة في عدد مستويات التحليل اللغوي، وقبل الخوض في الحديث عن ذلك وعلاقته بالمصطلحات تشير إلى أن كلمة «مستوى» ترجمة لكلمة Level، وكلمة «تحليل» ترجمة لكلمة Analysis.

ويرى بعض علماء اللغة أن أية لغة يمكن تحليلها خلال مستويين فقط، أولهما يتصل بـ«الصيغة» أو «الشكل»، والآخر يتصل بالدلالة أو المعنى، ويمكن التعبير عن ذلك كما يأتي:



وهناك من يرى أن عدد المستويات ثلاثة هي: الأصوات، والنحو، والدلالة، ويمكن التعبير عن ذلك كما يأتي:



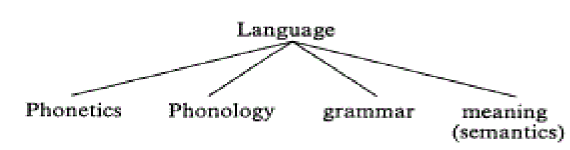
ويعود هذا التقسيم إلى الرأي القائل بأن مصطلح grammar يشمل جانبين هما: الصرف morphology والنظم syntax. يقول الدكتور محمود السعران: «وقد جرى لغويو الغرب على أن يدرسوا نحو معظم اللغات تحت موضوعين أساسيين هما المورفولوجيا والنظم. وقد كثر الجدل بين اللغويين فيما يتعلق بجدوى هذا التقسيم، وبتحديد مجال كل قسم من هذين القسمين، ولكن هذا التقسيم لا يزال صالحاً... وللنظم علاقة وثيقة بالموروفولوجيا؛ وذلك لأن التركيبات المورفولوجية في لغة من اللغات عادة ما تحكمها إلى درجة كبرى الترتيبات النظمية؛ أي الترتيبات التي يتبعها نظم الكلام، ولأن الوحدات التي تبني منها الجملة تتكون من كلمات، على أنها؛ أي الكلمات أعضاء من أقسام شكلية (كالاسم أو الفعل... إلخ). وهكذا فالأغلب أن يدرس المورفولوجيا والنظم الخاصان بلغة من اللغات معاً، وفي بعض الحالات يدرس الاثنان على أنهما قسم واحد من أقسام الظواهر اللغوية»[1].

نخلص من هذا إلى أن مصطلح grammar الذي يندرج تحته دراسة الصرف والنظم هو الذي أدى إلى أن تكون المستويات ثلاثة.

ويرى بعض علماء اللغة أن مستويات التحليل اللغوي أربعة؛ بفصل الصرف عن النحو في الدراسة. أو أنها أربعة بجعل الصرف والنظم مستوى واحداً هو «المستوى النحوي»، وجعل الأصوات تدور في إطار مصطلحي Phonetics وPhonology. ويمكن التعبير عن ذلك كما يأتي:

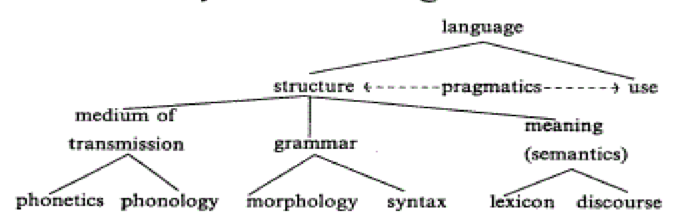
---

(١) علم اللغة: ص٢٢٥ وما بعدها.



ويضم بعض علماء اللغة إلى تلك ما يسمى بـ«المستوى المعجمي» Lexical، ويفصله عن دراسة المعنى أو الدلالة، وبذلك تصبح المستويات خمسة.

ونشير إلى أن عدد المستويات عند بعض علماء اللغة أصبح ستة، وظهرت بعض المصطلحات الجديدة في عملية التحليل اللغوي[1]، ويعود السبب في ذلك إلى زيادة الاتصال والاحتكاك بين علم اللغة وغيره من العلوم الإنسانية؛ خاصة ما يسمى بـ«الفلسفة البراجماتية»، ويمكن إيضاح هذا خلال الشكل الآتي:



ويدل هذا الشكل على أن اللغة لها عنصران هما: التركيب والاستخدام، وتقوم البراجماتية (أي العوامل السياقية في الاتصال الكلامي) بدور الوسيط بينهما؛ لأن ابن اللغة ينتقي الألفاظ والعبارات والجمل التي يستخدمها في عملية اتصاله بالآخرين، ويحرص على الدقة وحسن الاختيار حين الانتقاء.

---

(١) انظر: موسوعة كمبردج في اللغة لمؤلفها دافيد كريستال ص٨٣.

والتركيب يتفرع إلى ثلاثة عناصر أساسية هي:

١ ـ الأصوات التي تستخدم في عملية نقل الرسالة اللغوية إلى أذن السامع.

٢ ـ النحو.

٣ ـ المعنى (أو الدلالة).

ويتفرع كل عنصر من العناصر الثلاثة السابقة إلى فرعين؛ فالأصوات تدرس في إطار علم الأصوات اللغوية، وعلم الأصوات الوظيفي.

والنحو يدرس في إطار علم الصرف، والنظم.

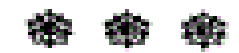
والمعنى (أو الدلالة) تدرس في إطار المعجم أو القاموس Lexicon والخطاب Discourse.

ترتيب المستويات:

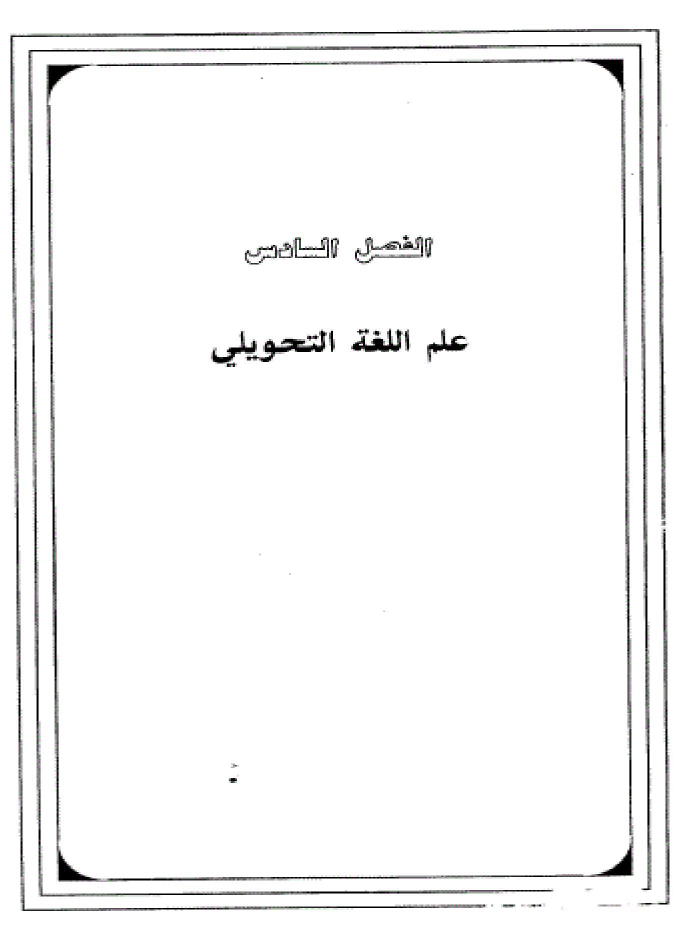
ليست هناك علاقة بين ترتيب المستويات والمصطلحات اللغوية، وإنما نشير إليه لاتصاله بالتحليل وكيفية إجرائه وعناصره. والرأي المعتمد في هذا الشأن أن التحليل يبدأ بأصغر عناصر اللغة حتى تصل إلى المعنى أو الدلالة؛ أي إنه يبدأ من البسيط إلى المركب.

ولكن هناك بعض المدارس اللغوية التي يبدأ التحليل عندها بالمعنى والعناصر المركبة، وتنتهي بالتحليل لأصوات اللغة، وهذا ما نجده عند القدماء من العلماء العرب، والدليل على ذلك أن أعمالهم العلمية تبدأ بالنحو، يليه الصرف، وتنتهي بالأصوات، وكانوا يعتبرون الدرس النحوي مدخلًا للحديث عن الصرف الذي به الكثير من القضايا المتشابكة والتحليلات المعقدة، على الرغم من إدراكهم أن الصرف يسبق النحو، وقد عبر عن ذلك ابن جني. قال:

«فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة. ألا ترى أنك إذا قلت: قام بكرٌ، ورأيتُ بكراً، ومررت ببكرٍ؛ فإنك إنما خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلًا لمعرفة حاله المتنقلة، إلا أن هذا الضرب من العلم لما كان عويصاً صعباً بُدئ قبله بمعرفة النحو، ثم جيء به، بَعْدُ؛ ليكون الارتياض في النحو موطئاً للدخول فيه، ومعيناً على معرفة أغراضه ومعانيه، وعلى تصرف الحال»[1].



(١) المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني: ص٤.



الفصل السادس

علم اللغة التحويلي



علم اللغة التحويلي

قبل الدخول في التعريف بـ«علم اللغة التحويلي» Transformational linguistics وأثره في الدراسات النحوية، نتوقف أمام رائد هذا العلم ومؤسسه تشومسكي: حياته ونشأته العلمية.

ولد أفرام نعوم تشومسكي Avram Noam Chomsky في فيلادلفيا في السابع من ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٢٨، وكان أبوه عالماً باللغة العبرية، وقد أفاد تشومسكي من ذلك في نشأته اللغوية؛ خاصة أن أباه كان يشجعه على الإفادة من تلك البيئة اللغوية، وتلقى على يديه بعض مبادئ «علم اللغة التاريخي»، وقد شارك أباه في تصحيح تجارب الطباعة لأحد مؤلفات أبيه عن «النحو العبري» وهو سن العاشرة.

وقد اتصل تشومسكي وهو في الثامنة عشرة من عمره بأستاذه زليج هاريس Zellig Harris الذي كان يدرّس في بنسلفانيا، وقد كلفه بتصحيح تجارب كتابه Methods in structural linguistics واقترح عليه هاريس الاشتغال بنحو اللغة العبرية، وحين أراد تشومسكي تحليل اللغة في ضوء مناهج النظر في «علم اللغة البنيوي» أدرك أن هذا التحليل سيأتي حاملًا الكثير من القصور ونقاط الضعف؛ لذلك لم يجد أفضل من «النحو التوليدي» الذي يساعد في وضع نظام من القواعد يصلح للتطبيق على الجمل في اللغات كلها، واستمر يعمل عامين، وهو يعيش في عزلة تامة حتى تقدم عام ١٩٥١ برسالة لنيل درجة الماجستير عنوانها Morphophonemics of modern Hebrew.

وفي سنة ١٩٥٥ حصل تشومسكي على دكتوراه الفلسفة من جامعة بنسلفانيا بباب من كتابه The logical structure of linguistic theory. وقد أجرى معظم بحثه في جامعة هارفارد عندما كان عضواً في جمعية الزمالة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥١ و١٩٥٥. وتحدث تشومسكي في كتابه سالف الذكر عن النحو التحويلي وأهدافه وافتراضاته ومنهجه. وقد عين تشومسكي سنة ١٩٥٥ في وظيفة مدرس في معهد ماتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institue of Technology، أو على سبيل الاختصار (M.I.T) وظل يترقى في حياته العلمية حتى وصل إلى كرسي الأستاذية.

وقد كان علم اللغة في الولايات المتحدة الأمريكية قبل سنوات قليلة من ظهور تشومسكي وإصداره أول عمل علمي له يعيش حالة من الازدهار، ويسيطر على المناخ العام روح التفاؤل؛ لأن علم اللغة وصل إلى الكثير من النتائج الواضحة، وتبنى العدد من المناهج الدقيقة في التحليل اللغوي؛ حتى إن ما في علم اللغة من حديث عن الفونيمات والمورفيمات يعادل ثورة نيوتن في علم الفيزياء، من حيث الوضوح والدقة، وقد كان التقدم في علم اللغة أكثر مما في العلوم الاجتماعية الأخرى؛ لذلك أثر في تلك العلوم؛ خاصة في المنهج[١].

وفي عام ١٩٥٧ نشر تشومسكي كتابه الأول «التراكيب التحوية» Syntactic structures الذي أحدث ثورة في الدراسة العلمية للغة، وأصبح تشومسكي حامل لواء علم اللغة الأمريكي الثائر على بلومفيلد Bloomfield، وظل يتحدث في النظرية النحوية التي أتى بها بسطوة منقطعة النظير، ولقد ثبتت مكانته باعتباره منظراً على مستوى عالمي منذ عام ١٩٦٢ خلال التقرير الذي قدمه إلى المؤتمر الدولي التاسع لعلماء اللغة في كمبردج.

(١) Sampson, Geoffrey, Schools of linguistics, P.130.

نخلص من هذا إلى أن تشومسكي أحدث ثورة في تاريخ الدراسات اللغوية، ويجب على كل باحث أن يحدد فكره اللغوي في ضوء آراء تشومسكي ونظريته النحوية[1].

والحقيقة أن شهرة تشومسكي وشعبيته لا ترجع إلى ما أنجزه في حقل علم اللغة، أو إلى أثره في بعض مناهج العلوم الأخرى فحسب، وإنما ترجع أيضاً إلى أنه أصبح معروفاً على نطاق واسع باعتباره من أكثر الناس صراحة في نقد السياسة الأمريكية في فيتنام، ومن ثم أصبح «بطل اليسار الجديد» Hero of the new left في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد عرّض نفسه من أجل ذلك لمتاعب جمة، فقد رفض دفع نصف ضرائبه، كما شجع الشباب الأمريكي الذي رفض الخدمة العسكرية في فيتنام وأيده في ذلك. ولا شك أن جانباً من شهرة تشومسكي ترجع إلى هذا النشاط السياسي، كما ترجع أيضاً إلى مقالاته ومؤلفاته السياسية التي أدان فيها الاستعمار الأمريكي، وكذا زمرة العلماء الأمريكيين الذين يعملون مستشارين أكاديميين للحكومة الأمريكية، باعتبارهم خبراء في بعض الميادين العلمية، مع أن الحياة العلمية منهم براء؛ إذ هي لا تعرف هذا اللون غير الأخلاقي من الخبرات، وإنما تقدم الجانب الأخلاقي أولاً وقبل كل شيء[2]. ومن أهم مؤلفات تشومسكي في المجال السياسي:

1 - American Power and the New Mandarins.

2 - Peace in the middle East.

وبعد هذا الحديث عن تشومسكي نتوقف أمام أهم أساتذته الذين أثروا فيه للتعرف على تفكيره اللغوي ونقصد بذلك هاريس.

ولد زليج هاريس Zellig Sabbetai Harris عام ١٩٠٩ في روسيا، ورحل عام ١٩١٣ إلى الولايات المتحدة، وحصل على الجنسية الأمريكية

(١) Newmeyer, Frederick, Linguistic theory in America, P.P. 1-15.

(٢) جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية ص٣٥.

عام ١٩٢١، وقد درس في جامعة بنسلفانيا حيث حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في عام ١٩٣٢ و١٩٣٤ على التوالي، وأصبح أستاذاً لعلم اللغة التحليلي.

وقد نشر هاريس الكثير من الكتب والمقالات، ولكن قلّ قراؤه وأتباعه، ولم يحظ إنتاجه في أوربا وأمريكا بتقارير يمكن أن تثير الرغبة في مطالعة شاملة لمذهبه المهم. وتتحدث كتب تاريخ علم اللغة عنه باقتضاب وإيجاز، كما تجتزئ في تقديمه، على الرغم من أن الحياة العلمية لهذا اللغوي تدل على جدية تفكيره، وثابته في اتجاه واضح، وتناسق أفكاره؛ بالإضافة إلى رزانته العلمية.

ويرى بعض الباحثين أن من أشهر مؤلفات هاريس كتابه Methods in Structural linguistics الذي يمثل إلى حد ما المؤلّف الأساسي في «علم اللغة التوزيعي». ولكن ما المقصود بالتوزيعية؟

إن التوزيعية distributional تشير إلى أن الجمل أو السياقات اللغوية يتواجد فيها أحد العناصر اللغوية، وتؤدي تلك الجمل أو السياقات إلى التأثير فيه، ومن أمثلة ذلك العنصر up في الجمل الثلاث الآتية:

1 - John rang up his mother.

2 - John stood up his date.

3 - John Looked up her phone number.

إن العنصر up تكرر في الجمل الثلاث السابقة، وقد شكل مع الفعل الواقع بعده ثلاثة تراكيب فعلية.

وتتصل التوزيعية كذلك بالحوار الذي يلجأ فيه الأشخاص إلى الاختصار في الإجابة، وعدم إعادة جزء من السؤال المطروح، ومن أمثلة ذلك:

المتكلم الأول: where did he go.

المتكلم الثاني: up the hil .

وبدلًا من استعمال جملة كاملة مثل: He went up the hill لجأ المتكلم الثاني إلى صيغة مختصرة[1].

وهذا الحديث عن التوزيعية له الكثير من الأمثلة العربية؛ فالكلمة في النحو العربي تتحدد وظيفتها ونوعها في ضوء السياق الذي تقع فيه أو تتوزع خلاله، ومن ذلك العنصر اللغوي «ما» الذي نستطيع التعرف على عمله النحوي ومعناه خلال السياق، والدليل على ذلك الآيات الكريمة الآتية:

١ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[2] وهو حرف نفي غير عامل؛ أي لا يؤثر فيما بعده.

٢ - ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[3] وهو حرف نفي، ولكنه يعمل عمل «ليس»؛ أي يرفع المبتدأ وينصب الخبر حسب الاستعمال اللهجي عند أهل الحجاز.

٣ - ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾[4] وهو اسم استفهام، في محل رفع مبتدأ؛ أي إن له محلًا من الإعراب؛ لأنه اسم.

٤ - ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[5] وهو اسم شرط يؤثر فيما بعده من الأفعال (تفعلوا) و(يعلم)، ويؤدي وظيفة محددة هي الربط بين فعل الشرط والجواب.

(١) Radford, Andrew, Transformational Grammar, P.P.69-71.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣١.

(٤) سورة طه: الآية ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

٥ ـ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[1] وهو اسم تعجب؛ أي إن له وظيفة دلالية هي «التعجب»، أما الوظيفة النحوية فإنه مبتدأ.

وهناك الكثير من السياقات التي تتوزع فيها وظيفة «ما» من حيث النحو والدلالة[2].

ولقد كان علم اللغة التوزيعي عند هاريس بمثابة نظرية لغوية تتميز بالصلابة والتناسق، حاول خلالها إكمال المذهب الوصفي عند بلومفيلد وتصحيحه وتجاوزه. ويظهر تأثره ببلومفيلد حين يستعمل بشكل متناوب معيارين لكشف «البنية الفونولوجية» أو «البنية النحوية» للغة ما، هذان المعياران هما:

- معيار المعنى.
- معيار التوزيع.

وقد عني بتوزيع وحدة مجموع الكلمات التي يمكن أن تتواجد في محيطها اللغوي؛ فلكي نعرف ـ مثلًا ـ أن (L) و(R) فونيمان يكفي أن نلاحظ أنهما يميزان بين كلمتين من نحو Life وRife، ويقوم هذا التمييز على معنى الكلمتين. وتعد هذه الطريقة سبيلًا مختصراً فقط، يستخدمه عالم اللغة أو غيره من أجل الوصول إلى الفروق الحقيقية التوزيعية.

وتشير الطريقة التوزيعية في تطبيقها الدقيق إلى أن الكلمات thither, this, that, there, them تحتوي على الجزء -th الذي يقول هاريس بأن معناه إشاري.

والكلمات where, when, whither, which, what, why تحتوي على الجزء -wh الذي يقول هاريس بأن معناه استفهامي.

(١) سورة عبس: الآية ١٧.

(٢) نقلًا عن كتابنا: فقه اللغة وعلم اللغة ص١٨٤.

وقد أدرك هاريس بأخرة عدم كفاءة «التحليل التوزيعي» سواء أكان ذلك خلال تطور فكره الخاص، أم خلال علاقته بتشومسكي الذي تتلمذ عليه في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤.

ولقد مثلت تلك الفترة منعطفاً مهمّاً في كتابات هاريس؛ إذ اعتمد وجهة نظر «تحويلية»، ونشر مقالة عام ١٩٥٤ عنوانها Transformer Grammar في المجلة العالمية لعلم اللغة الأمريكي، وتقع في إحدى عشرة صفحة، وقد حدد في تلك المقالة المفاهيم والقواعد والتعليمات الضرورية لتحويل جمل لغة ما انطلاقاً من جمل لغة أخرى، كما حدد الفكرة المركزية لتحويل الجمل إلى رموز على شكل أصناف كلمات، والمقصود بذلك تحويل البنى اللغوية إلى رموز. ونشر هاريس عدة مقالات أخرى، وتدور في إطار التحويل، ومن تلك المقالات:

1 - Co-occurrence and trasformation in linguistic structure.

2 - The transformational model of the language structure.

ولقد حُلت إلى حد كبير مشكلة العلاقات العلمية التي تربط بين هاريس وتشومسكي؛ لأن كل واحد منهما أشار في مناسبات كثيرة إلى دينه نحو الآخر، دون ذكر للتفاصيل.

وفكرة التحويل كما قدمها هاريس استغلها تلميذه تشومسكي، وطورها وأضاف إليها وذلك في كتابه Syntatic Structures الذي أصدره سنة ١٩٥٧، وهو يعد المستند الذي بدأ به حقل النحو التحويلي؛ لذلك لا توجد مشكلة تاريخية حقيقية في تحديد مساهمة كل من هاريس وتشومسكي في ولادة القواعد التحويلية، ولكن تكمن المشكلة في محاولة تحديد مصدر هذا الاندفاع المفاجئ من قبل اللغويين نحو استخدام المنطق والرياضيات والنماذج الرمزية.

وبعد هذا الحديث عن العلاقة بين تشومسكي وهاريس، نحاول التعرف على نقطة مهمة تتصل بالتفكير اللغوي عند تشومسكي وهي:

تشومسكي والنحو العربي:

حصل تشومسكي على درجة الماجستير في اللغة العبرية التي هي إحدى اللغات السامية، ومن المعروف أن نحاة العبرية الذين عاشوا في كنف المسلمين في الأندلس مثل سعديا الفيومي ومروان بن جناح قد أقاموا درسهم النحوي للغة العبرية على طريقة العرب ومنهجهم في درس العربية[1]؛ فهل اطلع تشومسكي على النحو العربي ودرسه كما اطلع على نحو العبرية ودرسه؟

لن نحتاج إلى الترجيح أو الاستنتاج؛ فهو يؤكد ذلك في مقابلة له. يقول: «قبل أن أبدأ بدراسة اللسانيات العامة كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات العامة، وما زلت أذكر دراستي للآجرومية[2] منذ عدة سنوات خلت، أظن أكثر من ثلاثين عاماً، وقد كنت أدرس هذا مع الأستاذ فرانز روزنتال[3]... وكنت وقتذاك طالباً في المرحلة الجامعية، أدرس في جامعة بنسلفانيا، وكنت مهتمّاً بالتراث النحوي العربي والعبري»[4].

والمستشرق روزنتال من المستشرقين الذين كانوا يعرفون العربية ونحوها، ومعنى هذا أن تشومسكي كان وثيق الصلة في شبابه باللغة العربية وآدابها، كما كان وثيق الصلة باللغة العبرية؛ لغة قومه[5].

---

(١) الدكتور حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص٩٤ وما بعدها.

(٢) الآجرومية: المقدمة الشهيرة في النحو التي وضعها ابن آجُرُّوم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المتوفى سنة ٧٢٣هـ. ومعنى آجروم في اللغة البربرية: الفقير الصوفي. ويقال إن تلك المقدمة نقلت إلى اللغة اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادي.

(٣) للتعرف على حياة روزنتال وآثاره انظر كتاب «المستشرقون» لنجيب العقيقي ٣/ ١٦٢.

(٤) من لقاء، جراه مع تشومسكي، الدكتور مازن الوعر، وقد نشر في مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، العدد السادس سنة ١٩٨٢ ص٧٢.

(٥) من مقدمة الدكتور حلمي خليل لكتاب «نظرية تشومسكي اللغوية ص١٣.

النظرية اللغوية:

من الأمور التي اهتم بها علم اللغة الحديث «النظرية اللغوية» Linguistical theory؛ إذ بيّن اللغويون مفهومها والمقصود بها، مع بيان الشروط التي يجب توافرها فيما يصلح لأن يطلق عليه مصطلح أو اسم «نظرية»، ونجد هذا بصورة واضحة عند تشومسكي في الفصل السادس من كتابه (التراكيب النحوية) وعنوان هذا الفصل هو On the goals of linguistic theory، وقد أكد فيه على ما في اللغات من مزية «الإبداعية» أو القدرة غير المحدودة؛ لذلك يجب على النظرية النحوية التي هي جزء من النظرية اللغوية أن تعكس تلك القدرة التي يمتلكها أبناء اللغة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل وفهمها، وعلى الاستماع إلى جمل جديدة واستيعابها. واهتم علماء اللغة الذين اتبعوا المنهج التحويلي في أعمالهم العلمية بالحديث عن النظرية اللغوية والعرض لها وبيان أهدافها وغير ذلك من الأمور التي تندرج تحتها، والتي سنحاول الكشف عنها.

تعد «النظرية» Theory أساس العمل في البحوث اللغوية، وهي تفيد من عدة جوانب، يمكن إيضاحها في النقاط الآتية:

١ ـ جمع المادة اللغوية التي سيتم إجراء الدراسة عليها.

٢ ـ التفريق بين الجمل الصحيحة نحويًّا، والجمل غير الصحيحة نحويًّا.

٣ ـ الكشف عن الخصائص اللغوية: الصوتية، والتركيبية، والدلالية التي تميز الجمل الصحيحة نحويًّا.

٤ ـ دقة المصطلحات التي سيستخدمها الباحث في عمله، دون خلط بين مصطلح وآخر، مع الإلمام بتعريفاتها على وجه الدقة.

٥ ـ وضوح الهدف أمام الباحث، وهذا يؤدي إلى اتساق أسلوب البحث، ودقة العرض، والبعد عن الغموض في طرح الأفكار المختلفة، والآراء المتعددة.

٦ ـ عدم وجود تناقض في المعالجة الداخلية لموضوعات البحث، والابتعاد عن الخلط بين المناهج اللغوية المختلفة حين التحليل لإحدى الظواهر.

واهتم اللغويون بالحديث عن العلاقة بين أنحاء اللغات ونظرية اللغة، وأشاروا إلى أنه يشترط فيها أن تجيب عن مجموعة من الأسئلة، وتكشف عنها، من بينها ما يأتي:

١ ـ وصف الأصوات، والصرف والنظم والدلالة الخاصة باللغات الطبيعية.

٢ ـ تزودنا النظرية بالأدوات التي نستعين بها لوصف أي نحو من الأنحاء الخاصة باللغات الطبيعية؛ لذلك يجب أن تتمتع بصفة الكلية أو العالمية.

٣ ـ لا بد أن تمكننا النظرية اللغوية من التفريق بين اللغات الطبيعية و«اللغات المصطنعة»[١] artificial languages.

٤ ـ التفريق بين اللغات الطبيعية ووسائل الاتصال عند الحيوانات، ولكن ليس من شأن النظرية إمدادنا بالأدوات أو الطرق التي يمكن عن طريقها وصف أنظمة الاتصال الأخرى.

٥ ـ الإشارة إلى الحقائق النفسية والسلوكية وعلاقتها باللغة؛ لأن تشومسكي يرى أن اللغة مرآة العقل الإنساني[٢]، وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل من دراسة اللغة أمراً نافعاً، وربما نصل يوماً إلى

---

(١) اللغة المصطنعة هي اللغة التي أنشأها أحد الأشخاص بهدف تسهيل الاتصال بين الشعوب مثل لغة Esperanto التي وضعها Ludwig lazarus Zamenhof (١٨٥٩ ـ ١٩١٧) وهي تتشابه كثيراً مع الإيطالية والإسبانية؛ لذلك تجد الشعوب الأخرى صعوبة في اكتساب تلك اللغة، ومن هنا فإن الاتفاق على لغة أمر فيه الكثير من الصعوبات.

(٢) Chomsky, Language and Mind, P.103.

معرفة العمليات التي تتبع لإنتاج اللغة؛ لذلك اهتم تشومسكي بدراسة ما في اللغة من الجوانب النفسية، مركزاً على اكتساب الطفل للغة الأم وتعلمها[1].

ونشير إلى أن النظرية يجب أن تكون قياسية، وواضحة، ومتكاملة، وسهلة على قدر المستطاع، ويمكن أن يطلق عليها هذا الاسم؛ أي نظرية، إن أشارت إلى ما يتصل بالحروف والفونيمات والكلمات وسواها من عناصر اللغة، كما يجب أن تشير إلى العلاقات بين الصيغ[2]، وقادرة على ضم كل ما يمكن أن يندرج تحتها؛ لذلك لا يُطْلَقُ عليها اسم «نظرية» إذا أحصت كل «المعطيات» data[3].

وقد أشار تشومسكي إلى أن النظرية الخاصة بأية لغة لها ثلاثة فروع أساسية يجب أن يدور البحث اللغوي في إطارها، وهي:

١ ـ نظرية تركيب اللغة: وتهتم تلك النظرية بتحديد الروابط التركيبية في اللغات الطبيعية.

٢ ـ نظرية اكتساب اللغة: وتهتم بالبحث في طريقة اكتساب الأطفال للغة الأم من البيئة اللغوية التي يعيشون فيها.

٣ ـ نظرية استعمال اللغة؛ وتهتم بالمعرفة اللغوية وغير اللغوية لدى أبناء اللغة حين استعمالها[4].

واهتم تشومسكي بالتحديد الدقيق للإطار العام للنظرية اللغوية، والجوانب التي يجب أن تشتمل عليها، وهي على النحو الآتي:

١ ـالنظرية الصوتية العالمية التي توضح فكرة الجمل المحتملة.

---

(١) Chomsky, Knowledge of language: It's nature origin,and use, P.P.19-56.

(٢) Bach, An introduction to trasnformational grammar, P.10.

(٣) Grinder and Elgin, Guide to trasnformational grammar, P.45.

(٤) Transformational grammar, P.P.1-3.

٢ ـتحديد التراكيب موضع الوصف.

٣ ـتحديد النحو التوليدي.

٤ ـالمنهج المستخدم في وصف الجملة اعتماداً على النحو.

٥ ـالطريقة التي تحدد قيمة اختيار غرض النحو[١].

وتختلف نظرية النحو التحويلي وأهدافه وافتراضاته ومناهجه وطرق التحليل فيه عما هو موجود في «علم اللغة الوصفي» descriptive linguistics لأن الوصفيين يحصرون موضوع عملهم الأساسي في «اللغة المنطوقة» spoken language؛ لذلك حين دراسة أية ظاهرة يجمعون الكثير من العينات مع تصنيفها خلال مستويات التحليل، بادئين بالأصوات، ثم الأبنية الصرفية، والتراكيب النحوية أو بناء الجملة، دون أن يهتم معظمهم بالدلالة أو المعنى. أما أصحاب النظرية التحويلية فيرون أن موضوع الدراسة اللغوية يدور في إطار «المعرفة» التي يمتلكها أبناء اللغة، وتمكّنهم تلك المعرفة من إنتاج العديد من الجمل وفهمها دون أدنى صعوبة، وتسمى تلك المقدرة بـ«الكفاءة» Competence، وسوف نتوقف أمامها فيما بعد، مع ربطها بـ«الأداء» performance. ويرى التحويليون أن نظريتهم هي المفضلة في الدرس الحديث؛ لأنها سوف تحصى كل المعطيات بطريقة محكمة، وهي تتصل بالمتكلم السامع المثالي.

التحويل الذي يصيب الجملة:

إن معرفة اللغة تعني المقدرة على وضع الكلمات مجتمعة فيما بينها لتكوين عبارات وجمل تأتي مرآة صادقة للأفكار التي تدور في الأذهان، وهذا الجزء من النحو الذي يمثل معرفة الإنسان بتركيب العبارات والجمل يطلق عليه مصطلح «النظم» Syntax.

وتفيد المعرفة بالتركيب في إحصاء ما في بعض التعبيرات من

---

(١) Chomsky, Aspects of the theory of syntax, p.31.

غموض ناتج عن احتمالها لنوعين من المعنى، كما تفيد القوانين التركيبية في الإشارة إلى ما يأتي:

١ ـالجمل الصحيحة نحوياً.

٢ ـنظام الكلمة المفردة، والتمييز بين المهمل والمستعمل من الكلمات.

٣ ـالتركيب الغامض، أو الذي له أكثر من معنى.

٤ ـالعلاقات الدلالية التي تنشأ بين الكلمات في إطار الجملة الواحدة.

٥ ـالتشابه الدلالي بين الجمل المختلفة في تركيبها؛ أي إن تلك بينها ترادف في المعنى، واختلاف في التركيب النحوي.

٦ ـمهارة المتكلم التي تتضح في إنتاج عدد غير محدود من اللغة وفهمها.

٧ ـوضع الكلمات بطريقة صحيحة في الجملة.

ويعد مصطلح «التحويل» Transformation حجر الزاوية في نظرية تشومسكي اللغوية، والمقصود به العمليات النحوية التي تطرأ على إحدى الجمل لإنتاج جملة أخرى، ومن ذلك الجملة:

كتب الطالبُ المحاضرةَ

التي يمكن تحويلها إلى جملة استفهامية، أو جملة منفية، أو جملة مبنية للمجهول... أو غير ذلك، نحو:

أكتب الطالبُ المحاضرة؟

ما كتب الطالب المحاضرة!

كُتبت المحاضرةُ

أو المقصود بهذا المصطلح تحويل «البنية العميقة» deep structure إلى «البنية السطحية» surface structure مع الربط بينهما عن طريق نظام خاص؛ لذلك يقال عن القواعد التحويلية إنها تنظر إلى

الجملة موضوع التحليل على أنها مأخوذة من أخرى، خلال العملية التحويلية الخاصة بها أو التي تم تطبيقها عليها، وتسعى تلك القواعد إلى الكشف عن الحقيقة الذهنية التي تكمن خلف الأداء اللغوي الفعلي الذي نجده في بنية السطح.

ويرتبط مصطلح «التحويل» بمصطلح آخر هو «التوليد» generative، وهو يشير إلى نوع من النحو يستخدم مجموعة من القوانين القياسية لتحديد الجمل الصحيحة نحويّاً في اللغة من سواها. وتمتاز القواعد أو القوانين التوليدية بأنها على درجة عالية من الوضوح الذي يؤهلها للنظر في كل تتابع من الكلمات يؤدي إلى جملة محكمة في صياغتها من حيث الأصوات والتركيب والدلالة. ويوصف النحو الذي يستخدمه تشومسكي وأتباعه من المشتغلين بالدراسات التحويلية بهذين المصطلحين فيقال «النحو التحويلي التوليدي» Transformational Generative Grammar أو يقال T.G.grammar على سبيل الاختصار.

وقد أشار تشومسكي في كتاب (التراكيب النحوية)[1] الذي يمثل المرحلة الأولى من النظرية التحويلية إلى أن «النحو التحويلي» له ثلاثة أركان أساسية هي:

١ ـ قواعد تركيب العبارة: وهي توضح أن الجمل تتركب من العبارات، والعبارات تتكون من الكلمات.

٢ ـ القواعد التحويلية: وهي مجموعة من القوانين التي يجب تطبيقها بنظام صارم، وتلك القوانين بعضها إجباري obligatory، وبعضها الآخر اختياري optional.

٣ ـ القواعد الصرفية الصوتية: وتقرر تلك القواعد في خاتمة المطاف الصيغة النهائية للكلمات المنطوقة أو المكتوبة.

---

(١) Syntactic Strctures.

وفي المرحلة التالية من النظرية التحويلية أشار تشومسكي في كتابه (أوجه النظرية النحوية)[1] إلى أن النحو التحويلي له ثلاثة مكونات أساسية هي:

١ - المكون التركيبي syntactic.

٢ - المكون الدلالي semantics.

٣ - المكون الصوتي phonological.

ويمكن تصنيف القوانين التحويلية إلى نوعين هما:

١ - قانون اختياري optional rule: وهو قانون يجوز تطبيقه على إحدى الجمل لإنتاج جملة جديدة، ويجوز أيضاً عدم تطبيقه؛ لعدم تعارضه مع الصحة النحوية، ومن أمثلة ذلك أن قانون تحويل المبنى للمعلوم إلى المبني للمجهول اختياري؛ لأنه لا يوجد شيء يجبرنا على هذا التحويل. ومن أمثلة ذلك أيضاً أن قانون تحويل الجملة المثبتة إلى جملة منفية اختياري؛ لعدم وجود ما يجعلنا مضطرين لإجراء هذا التحويل.

ومن أمثلة التحويل الاختياري ما يشير إليه اللغويون بخصوص «الجملة النواة» Kernel sentence وتحويلها إلى الاستفهام أو النفي، نحو:

Jim will pass the test

التي يمكن تحويلها اختيارياً إلى الاستفهام نحو:

will Jim pass the test?

---

(١) Aspects of the theory of syntax.

أو إلى النفي نحو:

Jim will not pass the test

ولكننا لسنا مضطرين أو مجبرين لإجراء هذين النوعين من التحويل؛ لعدم اتصالهما بالصحة النحوية لجملة النواة[1].

٢ ـ قانون إجباري obligatory rule: وهو قانون يجب تطبيقه على كل الجمل الموجودة في اللغة حتى تصبح صحيحة نحويًا، ولا يوجد أي خلل في أصواتها، أو أبنيتها الصرفية، أو تراكيبها النحوية، أو دلالة ألفاظها المفردة، أو الدلالة العامة لها.

وقد أشار المشتغلون بالنظرية التحويلية إلى عدة عمليات تحويلية تصيب الجملة، يمكن إيضاحها خلال الأنماط الآتية:

١ ـ الحذف deletion: أ + ب←∴ +ب. وتشير تلك العملية إلى أن الجملة أصابها الحذف، وتم التعبير عن ذلك بحذف أ.

٢ ـ الإحلال replacement: أ←ب. وتشير تلك العملية إلى إحلال العنصر ب محل العنصر أ.

٣ ـ الاتساع expansion: أ←ب + جـ. وتشير تلك العملية إلى أن الجملة حدث فيها توسع؛ لأن أ تمددت وأصبحت ب + جـ.

٤ ـ الاختصار reduction: أ + ب←جـ. وتلك العملية عكس السابقة عليها؛ لأن الرمزين تم اختصارها، وأصبحا رمزاً واحداً هو جـ.

٥ ـ الزيادة addition: أ←أ + ب. وتشير تلك العملية إلى زيادة عنصر جديد إلى الجملة هو ب.

---

(١) Bronstein, An introduction to tranformational grammar, P.50.

٦ - إعادة الترتيب permutation: أ + ب←ب + أ. وتتصل تلك العملية بالتقديم والتأخير[١].

وبعد هذا الحديث عن التحويل والتوليد والإشارة إلى بعض العمليات التحويلية التي تصيب الجملة، نحاول التعرف على:

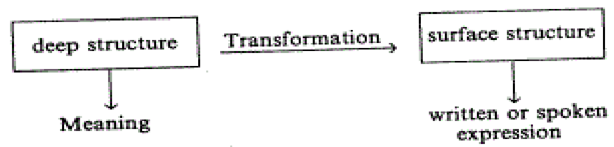
البنية العميقة والبنية السطحية:

أشار تشومسكي إلى أن كل لغة لها بنيتان:

١ - البنية العميقة deep structure: وهي تتصل بالمعنى، أو التأويل الدلالي للجمل والعبارات.

٢ - البنية السطحية surface structure: وهي تشير إلى العبارات أو الجمل المنطوقة أو المكتوبة.

وتؤخذ الثانية من الأولى عن طريق عدة عمليات نحوية تسمى بالتحويل، ولعل الشكل التالي يوضح ما سبق من كلام نظري:



ويدل هذا الشكل على أن التحويل هو الجسر بين البنية العميقة والبنية السطحية، ويدل أيضاً على أن البنية العميقة هي المعنى، في حين أن البنية السطحية هي التعبير المكتوب أو المنطوق الذي يحلله اللغوي[٢].

---

(١) Bach, An introduction to transformational grammar, P.70.

(٢) Roderick & Rosenbaum, An introduction to transformational grammar, 1/59 & 2/65.

ويرى التحويليون أن البنية العميقة من الظواهر العالمية أو الكلية في اللغات، وهي تساعد في النواحي الآتية:

١ ـ تبين كيف تختلف اللغات فيما بينها اختلافاً دقيقاً.

٢ ـ تجيب عن السؤال الخاص بالنحو، وهو بيان الصحيح من الخطأ في التراكيب.

٣ ـ تدل على أن كل ذهن إنساني يشكل جمله بطريقته الخاصة النابعة من لغته.

ويرتبط التحويل الذي يصيب الجملة، وتوليد جمل صحيحة نحويّاً، وتحويل البنية العميقة إلى البنية السطحية بالكفاءة والأداء لدى المتكلم ـ السامع المثالي Ideal speaker-listener لذلك نحاول بيان المقصود بهذين المصطلحين.

الكفاءة والأداء:

يشير مصطلح «الكفاءة» Competence إلى القدرات اللغوية لدى «ابن اللغة» التي تمكنه من التعبير عن نفسه وفهم الآخرين؛ لذلك يرى علماء النظرية التحويلية أن تحديده الدقيق هو: معرفة المتكلم ـ السامع بلغته.

ويقترن بهذا المصطلح مصطلح آخر هو «الأداء» Performance الذي يعني الاستعمال الحقيقي للغة في المناسبات المختلفة[١].

وقد أعاد تشومسكي في كتاباته الأخيرة[٢] النظر في مفهوم مصطلح الكفاءة، وحصره في أمرين أو نوعين هما:

١ ـ الكفاءة النحوية grammatical Competence: وهي تتصل

(١) Aspects of the theory of syntax, P.4.

(٢) Essays on form and interpretation, P.40.

بنظرية تركيب الجملة، والمعرفة بالقواعد النحوية، وقد اتسع مفهوم تلك الكفاءة ليشمل نظرية استعمال اللغة على وجه العموم، ومن أمثلة ذلك أن الجملة:

He thinks that John is wrong

يدرك ابن اللغة أن الضمير He الموجود فيها لا يمكن تأويلها على أنه يشير إلى الشخص نفسه.

وتتصل الكفاءة النحوية بما يسمى «الحدس»[١] intuition لدى ابن اللغة الذي ينحصر في أمرين هما: الحدس تجاه الجملة المحكمة في صياغتها، والحدس تجاه تركيب الجملة.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن كلمة intuition قد أصبحت من المصطلحات التي لها استعمال خاص في علم اللغة منذ أن ربطها تشومسكي وأتباعه بالكفاءة النحوية لدى ابن اللغة ومقدرته على إصدار أحكام على الجمل، وأصبح الحدس يدور في أربعة مجالات تتصل بالأصوات، والصرف، والنظم، والدلالة؛ لأن ابن اللغة لديه المقدرة على معرفة ما في أية جملة من خلل يتصل بأصواتها، أو بنائها الصرفي، أو نظمها، أو دلالة ألفاظها.

٢ ـ الكفاءة البراجماتية Pragmatic Competence: قبل الدخول في التعريف بتلك الكفاءة نقدم مفهوم مصطلح «البراجماتية». هناك تعريف للمصطلح pragmatics باللغة الإنجليزية[٢] واضح ودقيق يقول:

The study of the factors influencing a person's choice of language.

---

(١) يقال: حَدَسَ الشيءَ: حرزه أو قدره، والحدس: إدراك الشيء إدراكاً مباشراً، والحدس: الفِراسة، يقال: قاله بالحدس.

(٢) انظر: موسوعة كمبردج في اللغة لمؤلفها دافيد كريستال ص١٢٠.

أي إن البراجماتية علم يهتم بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، وتأثير هذا الاختيار في الآخرين.

وتتصل الكفاءة البراجماتية بالدور الذي تؤديه العوامل غير اللغوية في استعمال اللغة والقدرة على تأويلها لمعرفة معانيها؛ لذلك يقال إننا من الناحية النظرية نستطيع استعمال ما يحلو لنا من الألفاظ والعبارات والجمل، ولكن من الناحية العملية نجد أنفسنا مقيدين بالعديد من القوانين الاجتماعية التي تحكم هذا الاستعمال.

وبعد هذا العرض نشير إلى أن الحديث عن التحويل الذي يصيب الجملة قد قادنا إلى تحديد مفهوم ستة مصطلحات هي:

١ ـ التحويل Transformation.

٢ ـ التوليد Generative.

٣ ـ البنية العميقة Deep structure.

٤ ـ البنية السطحية Surface structure.

٥ ـ الكفاءة Competence.

٦ ـ الأداء Performance.

ونحاول، الآن، التعرف على التحويل الذي يصيب الجملة خلال حديثنا عن:

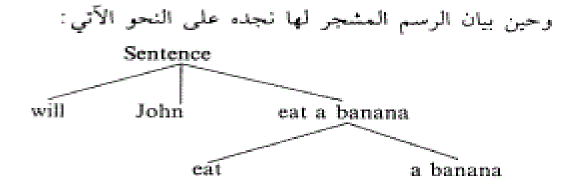
من أنماط التحويل في الإنجليزية:

هناك مجموعة من العمليات التحويلية التي تطرأ على بناء الجملة في الإنجليزية، وهي قريبة الشبه مما في النحو العربي، ونحاول التعرف عليها.

١ ـ التحويل بالاستفهام Interrogative: ويمكننا بيان ذلك خلال جملة John will eat a banana وبواسطة التغيير في مواقع الكلمات يمكننا أن نحصل على جملة الاستفهام الآتية:

Will John eat a banana?

وحين بيان الرسم المشجر لها نجده على النحو الآتي:



٢ ـ التحويل بالنفي Negative: ويؤدي هذا التحويل إلى إضافة بعض الكلمات التي لها وظيفة النفي إلى الجملة؛ لذلك فالجملة John should eat a banana عندما تنفي نحصل على الجملة الآتية:

John should not eat a banana

٣ ـ التحويل إلى المبني للمجهول: ويسمى هذا التحويل Passive transformation أو Passivization[1]؛ فالجملة Joanna hit the ball حين تحويلها إلى المبني للمجهول نحصل على البنية السطحية الآتية:

The ball was hit by Joanna.

وقد أشار تشومسكي إلى أن المبني للمجهول لا يمكن صياغته دائماً من المبني للمعلوم؛ فالجملة She plays piano لا تحول إلى جملة:

---

(١) Simth & Wilson, Modern linguistics, the results of Chomsky's revolution, P. 283.

She is played by he piano.

لأن الدلالة لا تسمح بذلك[١].

٤ ـ التحويل بواسطة الاتساع Expansion: ويأتي عن طريق إضافة بعض الكلمات إلى الجملة حتى يزداد معناها وضوحاً، ومن أمثلة ذلك ما طبقه بالمر Palmer[٢] على إحدى الكلمات التي ظل يضيف إليها بعض العناصر التي زادتها دقة ووضوحاً في الدلالة على النحو الآتي:

Children
American children
Three American children
Three American children with a dog
Those three American childeren with a dog

٥ ـ التحويل بواسطة الإحلال replacement: ويتناول هذا النوع الإحلال بين العناصر البسيطة في الجملة، ويمثلون له بالشكل الآتي:



لقد حل العنصر W محل العنصر Y، وهما عنصران فرعيان؛ لذلك يقال إنه إحلال بسيط[٣].

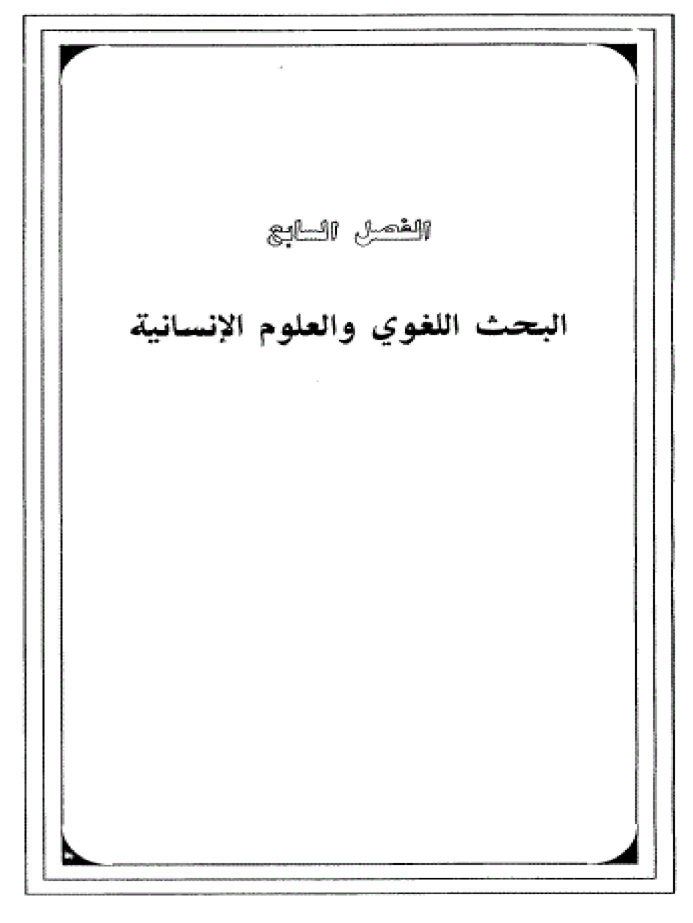
٦ ـ التحويل باستخدام الضمير الشخصي Reflexive: ويوضح تلك العملية الجملة I like myself.

---

(١) Syntactic Structures, P.78.
(٢) Grammar, P.124.
(٣) Bach, An introduction... P.74.

إن المعنى الحقيقي لتلك الجملة هو I Like I، وعندما يكون فاعلا الجملة متماثلين فإن المفعول يجب أن يحوَّل ـى الضمير المعاكس. والذي يجب أن نعيه جيداً أن العملية التحويلية السابقة تكون في الضمائر المتماثلة.

ونشير إلى أن هناك العديد من الأنماط التحويلية في اللغة الإنجليزية، وهي تقترب كثيراً من قضايا الحذف والزيادة والتقديم والتأخير وسواها في اللغة العربية.



الفصل السابع

البحث اللغوي والعلوم الإنسانية



البحث اللغوي والعلوم الإنسانية

اتصل المشتغلون بالدراسات اللغوية بالعلوم الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وسواها، وقد أدى هذا الاتصال إلى فتح آفاق جديدة للبحث في علم اللغة، وظهور مجموعة من العلوم اللغوية التي أفادت من تلك العلوم الإنسانية في معالجة الكثير من الظواهر التي تندرج تحتها. ومن أهم العلوم اللغوية ثلاثة:

١ ـ علم اللغة الاجتماعي.

٢ ـ علم اللغة النفسي.

٣ ـ علم اللغة البراجماتي.

التي نحاول التعرف عليها، بإيجاز، في الصفحات التالية[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) سوف تفرد دراسة مستقلة للحديث عن «فروع علم اللغة» مع التطبيق في اللغة العربية بإذن الله تعالى.

علم اللغة الاجتماعي

تؤدي اللغة الدور الأساسي في الاتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهي الوسيلة الرئيسية في خلق الحضارات وبناء المجتمعات الإنسانية، وهي التي ميزت الإنسان عن غيره من الكائنات الحية.

وقد ظلت اللغة فيما مضى قروناً عدة وهي قانعة بمجال محدود في البحث العلمي، لا تكاد تجاوزه أو تتعداه، حتى تنبهت الأذهان أخيراً إلى ما تضمنته الكلمات من دلالات، وبدأ الدارسون يرون في تلك الدلالات الغاية والهدف من كل لغة، وأن اللغة في حقيقتها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل تنظيم المجتمع الإنساني، تربط بين الأفراد، وتربط بين الجماعات، وتربط بين الشعوب، وهنا نشأت «المدرسة اللغوية الاجتماعية» في أوائل القرن العشرين، وأخذ اللغوي الحديث يدرس اللغة في ضوء الحياة الاجتماعية، وظهر له بوضوح دور اللغة في تشكيل المجتمع وتنظيمه[1].

وقد تنبه اللغويون إلى مثل هذه البحوث بعد أن رأوا الدراسات التي تقوم بها المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي أنشأها إميل دوركايم Durkheim (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) في أوائل القرن العشرين، وانضم إليها كثير من علماء اللغة في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وسويسرا والدانيمرك وكثير من أساتذة الجامعات في أوروبا وأمريكا. ومن العلماء من لم ينضم انضماماً إيجابيًّا إلى هذه المدرسة، غير أنهم تأثروا بعقلية دوركايم الجبارة،

---

(١) انظر التصدير الذي كتبه الدكتور إبراهيم أنيس لكتاب (اللغة في المجتمع) ص٣.

وبذلك أصبحت بحوث المدرسة الاجتماعية الفرنسية أساساً للبحوث اللغوية في كثير من الأحيان؛ إذ طبقت نظريات «علم الاجتماع العام» على اللغة، وحاول الباحثون أن يبينوا لنا أثر المجتمع ونظمه وحضاراته المختلفة على الظواهر اللغوية، باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي أولاً وقبل كل شيء؛ ولذلك كانت اللغة كائناً حيّاً كالإنسان سواء بسواء؛ لأنها ألصق الظواهر الاجتماعية به[1].

وقد نتج عن تلك الصلة بين اللغة والمجتمع ظهور ما يسمى بـ«علم اللغة الاجتماعي» الذي يمكن تعريفه بأنه دراسة اللغة خلال علاقتها بالمجتمع The study of language in relation to society[2].

وعلم اللغة الاجتماعي له ثلاثة مصطلحات في اللغة الإنجليزية هي:

1 - Sociolinguistics.
2 - Sociological linguistics.
3 - Social linguistics.

والمصطلح الأول أكثرها رواجاً وشيوعاً في الاستعمال، وإن كانت المصطلحات الثلاثة تدل على شيء واحد هو العلم الذي يدرس اللغة في إطار علاقتها بالمجتمع.

وهناك ما يسمى بـ«علم الاجتماع اللغوي» أو «علم اجتماع اللغة» The sociology of language.

ونشير إلى أن الباحث إذا كانت لديه المقدرة أو الكفاءة على تحليل بنية اللغة وبيان خصائصها التركيبية والدلالية، وينتمي إلى

---

(1) الدكتور رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص١٢٦، وانظر كتاب دور كايم (قواعد المنهج في علم الاجتماع) خاصة الفصل الأول الذي يتحدث فيه عن «الظاهرة الاجتماعية» ص٣١ ـ ٤٨.

(2) Hudson, Sociolinguistics, P.1.

المشتغلين بالدراسات اللغوية استخدم مصطلح «علم اللغة الاجتماعي»؛ لأنه سيولي الجانب اللغوي الشطر الأكبر من اهتمامه حين النظر في علاقة اللغة بالمجتمع.

أما إذا كان الباحث من المشتغلين بدراسات علم الاجتماع، وسيولي الجانب الاجتماعي الشطر الأكبر من اهتمامه في عمله العلمي استخدم مصطلح «علم الاجتماع اللغوي» أو «علم اجتماع اللغة» الذي يدرس المجتمع في إطار علاقته باللغة.

وقد أشار العلماء والباحثون إلى مجموعة من الموضوعات التي يهتم بها «علم اللغة الاجتماعي»، ومن أهمها ما يأتي:

١ - تأثير التركيب الاجتماعي للأسرة في اكتساب الأطفال للغة.

٢ - تطور اللغة عند الطفل ومراحل اكتسابها.

٣ - السن التي يدرك فيها الأطفال الدلالة الاجتماعية لمختلف الصيغ الكلامية.

٤ - استعمال اللغة لدى الأفراد وصلته بالمكانة أو المنزلة الاجتماعية.

٥ - دور اللغة في سيطرة أحد الأفراد على المجموعة.

٦ - الغزو اللغوي الذي يتمثل في تبني أحد الشعوب للغة ما وترك لغته الأم، وصلة ذلك بالظروف الاجتماعية.

٧ - دور العوامل الاجتماعية في التغيير الصوتي والصرفي والنحوي، والدلالي الذي يصيب اللغة.

٨ - بيان الجانب الاجتماعي في «لغة المحادثة» والاهتمام بما يدور حين يلتقي شخصان لكل منهما لغة تختلف عن الأخرى.

٩ - النتائج الاجتماعية المترتبة على الأحكام المتصلة بالصحيح نحوياً وغير الصحيح نحوياً.

١٠ - تغيير نطق بعض الكلمات عند البنات دون الأولاد، أو العكس، واتصاله بالجانب الاجتماعي.

١١ - تعدد اللهجات داخل المجتمع الواحد، ووجود ما يسمى بـ«اللغات الخاصة» وإيضاح طبيعة كل لغة والخصائص التي تحددها.

١٢ - دور اللغة في تعزيز هوية الجماعة.

١٣ - التواصل اللغوي بين الشعوب أو الجماعات التي لها لغات مختلفة، وما يعتري هذا التواصل من مشكلات.

١٤ - اللغة والمجتمع والتواصل الحضاري.

١٥ - علاقة اللغة بالثقافة، ودور اللغة في البناء الثقافي، وأثر الثقافة في البناء اللغوي.

١٦ - المعايير أو العوامل التي تتحكم في اختيار أحد الشعوب المستعمرة لغة أو لغات وطنية.

١٧ - أثر التشابه اللغوي في إذكاء روح الوطنية.

❁ ❁ ❁

علم اللغة النفسي

يتصل الناس فيما بينهم بعدة طرق؛ حتى إننا نسمع عما يسمى بالنظرة القاتلة، ونغمة الصوت التي يمكن أن تشير إلى أن المتكلم يعني عكس ما يقوله، واللمسة التي قد تقول أكثر مما يقوله كتاب بأكمله.

وهناك الكثير من وسائل الاتصال بين البشر، وتعد اللغة أرقى تلك الوسائل وأهمها على الإطلاق، ولا بد من الاستعانة بحقائق علم النفس حين دراسة عملية الاتصال اللغوي؛ لأن علم اللغة النفسي حين يدرس اللغة ينظر إليها على أنها نشاط إنساني.

ويلجأ الإنسان ـ أحياناً ـ إلى ما يسمى بـ«التنوع اللغوي» حين اتصاله بالآخرين وتعامله معهم، ويظهر هذا التنوع بصورة واضحة إذا تعامل الفرد مع شخص ينتمي إلى بيئة لغوية تختلف عن بيئته؛ لذلك يضطر إلى التغيير في لهجته، ونجد في الحوار بينهما عبارة «ماذا تقصد؟» أو «ماذا تعني» تتردد كثيراً، ويضطر إلى اختيار نماذج مختلفة للكلام أو اللهجات حتى تصبح عملية الاتصال اللغوي فيما بينهما ناجحة. ولذلك يرى بعض اللغويين أن اللغات، بمختلف صورها وأشكالها، التي تستخدم في الحياة اليومية أكثر من ثلاثة آلاف لغة.

ويقودنا الحديث عن «التنوع اللغوي» إلى التعصب للغة القومية لدى بعض الشعوب الذي يجعلها ترفض الحديث بغير تلك اللغة، ومن أمثلة ذلك أن الإنسان إذا ذهب إلى «باريس» في رحلة سياحية

دون أن يعرف الفرنسية فسوف يصادفه ما يسمى بـ«العائق اللغوي»؛ إذ لا بد من معرفته بالفرنسية حتى يستطيع التفاعل في المجتمع. وهناك موضوعان أساسيان يندرجان تحت التنوع اللغوي، هما:

١ ـ أسطورة ما يسمى بـ«اللغة الخالصة» Pure language؛ أي تلك التي تخلو من أية مؤثرات خارجية، مع وجود صيغة لغوية صحيحة لها شيوع على الألسنة وفي الكتابات، ويعد أي انحراف عن تلك الصيغة لحناً.

٢ ـ مشكلة التعصب اللغوي، وهي ناتجة عن اعتقاد كل إنسان بأن لغته الأم هي أفضل اللغات على الإطلاق، وتلك مشكلة أزلية، كانت تسيطر على التفكير اللغوي لدى الشعوب والأمم القديمة.

الكليات اللغوية:

يساعد الحديث عما يسمى بـ«الكليات اللغوية» Linguistic universals أو الظواهر العالمية في اللغات ـ في التعرف على الجوانب التي تتشابه فيها تلك اللغات، وقد كان الهدف الأساسي للأعمال العلمية التي درست تلك الظاهرة البحث في أوجه التشابه دون الجري وراء الاختلافات في تلك اللغات. وقد أثير تساؤل حول الأشياء المألوفة أو المعتادة في اللغات الإنسانية، وكان أول ما درسوه قواعد بناء الجملة في اللغة الإنجليزية، مع مقارنتها باللغات الأخرى كالفنلندية Finnish، ثم وسَّعوا من دائرة بحثهم، ودرسوا تلك القواعد في اللغات الأخرى.

ويمكن الإفادة من دراسة القواعد المشتركة أو الكلية أو العالمية في اللغات حين ربطها بالجوانب النفسية؛ خاصة إذا تساءلنا عن التشابه بين المتكلمين باللغتين الإنجليزية والفنلندية ـ مثلاً ـ وما يعرفونه عن هاتين اللغتين. وربما يتفق المتكلمون بهما على أنهم يتكلمون بواسطة مجموعة من الجمل، وتلك الجمل عبارة عن مجموعة من الكلمات، تتألف من مجموعة من العناصر الصوتية، وربما يتفقون أيضاً على أن

الجمل والكلمات لها معنى، بينما الأصوات ليس لها معنى، وأن العمليات النفسية تتشابه فيما بينها حين إنتاج اللغة[1].

وتعود العلاقة التي نشأت بين «علم اللغة» و«علم النفس» إلى اللغوي الأمريكي ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (١٨٨٧ - ١٩٤٨) الذي اعتمد في دراسته للغة على معطيات علم النفس التي كانت سائدة في عصره، وظهر ذلك بصورة واضحة في كتابه الرائد في ميدانه Language الذي تأثر فيه بـ«المنهج السلوكي» في علم النفس، وانتهى به المطاف إلى اعتباره «علم النفس السلوكي» هو الطريقة الوحيدة التي يمكن في ضوئها دراسة الدلالات اللغوية، والدليل على ذلك توقفه أمام «الحدث الكلامي» Speech event وتحليله في ضوء المذهب السلوكي. ومن المعروف أن «السلوكية» behaviorism في علم النفس هي الاستجابة الكلية التي يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه؛ لذلك لا يقصد بها التصرف الحسن أو القبيح تجاه الآخرين.

تشومسكي وعلم النفس:

يعد سكنر B.F.Skinner أستاذ علم النفس في جامعة هارفارد أبرز مؤسسي علم النفس السلوكي وأقواهم على الإطلاق، وقد نشر سنة ١٩٥٧ كتابه (السلوك اللفظي) Verbal Behavior[2] الذي يعد أهم محاولة بُذِلَتْ في سبيل دراسة التفاصيل الخاصة باكتساب اللغة في إطار نظرية التعلم السلوكية؛ لذلك توقف سكنر أمام المثير والاستجابة والتعزيز، وإمكانات التعزيز عنده هي مجمل ظروف البيئة التي تحدد عند شخص ناطق عملية انتقاء التصرفات اللفظية.

---

(١) Foss, Donald & Hakes, David, Psycholinguistics, P.P.1-3.

(٢) نُشر كتاب سكنر في السنة نفسها التي أصدر فيها تشومسكي كتابه Syntactic Stuctures.

وقد تحدث سكنر عن المتغيرات التي تضبط السلوك اللفظي وتحكمه وتفاعل تلك المتغيرات فيما بينها، وكان هدفه الأساسي تحديد الاستجابات اللفظية والتنبؤ بها، وهذا يدرس في إطار التحليل الوظيفي للسلوك اللفظي. وقد اختار تعبير «السلوك اللفظي» بدلاً من «اللغة» أو «السلوك اللغوي»؛ لأنه يهتم بالمتكلم الفرد والمحصول اللفظي المحدد الخاص به، دون الاهتمام بالقواعد التي تضبط النظام اللغوي وتحكمه والتي يهتم بها «علم اللغة»، ومع ذلك فإن سكنر لم يهمل قواعد النحو؛ لأنه عدّه مجموعة من الإمكانات التي تقع بين الألفاظ، ولا بد من المحافظة عليها في إطار «الجماعة اللغوية».

وحين تحدث سكنر عن «اكتساب اللغة» أشار إلى أنها مهارة تنمو ويتعزز وجودها عن طريق المحاولة والخطأ، وتؤدي المكافأة إلى تدعيمها، والمقصود بذلك أن الطفل الذي يبدأ في استخدام بعض المنطوقات تكون المكافأة الخاصة به متمثلة في تقبيل والديه له، أو في التأييد والاستحسان والتشجيع من الذين يستمعون إليه في إطار البيئة الاجتماعية وهذا يساعد في نمو الطفل اللغوي.

وفي سنة ١٩٥٩ نشر تشومسكي مراجعة لكتاب سكنر الذي أشرنا إليه تحت عنوان A Review of B.F. Skinners Verbal Behavior، شنّ فيها هجوماً على آراء سكنر وأتباعه؛ خاصة الرأي الذي شبهوا فيه تعلم الإنسان بتعلم حيوانات التجارب، وهو رأي تافه؛ لأن المثير الواحد تتعدد الاستجابات إزاءه، وتختلف اختلافاً كثيراً، وقد أظهر تشومسكي في تلك المراجعة تمكناً تامّاً من موضوعات علم النفس وقضاياه وأسسه المنهجية.

لقد أشار تشومسكي ـ كما قلنا ـ إلى أن الاستجابات تتعدد إزاء المثير القولي الواحد؛ لذلك حين يقول أحدنا في الصباح أمام مجموعة من الأفراد من ذوي المهن المختلفة: «تسقط الأمطار من السماء بغزارة الآن» تتعدد الاستجابات إزاء هذا القول:

- فالصياد يشعر بالحزن؛ لأنه لن يستطيع الذهاب إلى البحر لممارسة عملية الصيد، خوفاً من الأمواج العاتية.

- والفلاح يشعر بالسعادة؛ لأن المطر هو رحمة السماء للأرض التي أصابها الجفاف.

- والسائق الذي يتولى نقل الركاب بين المحافظات يخشى الخروج لما في عملية القيادة من المخاطر.

- والموظف الذي حصل على إجازة من عمله يشعر بالسعادة لعدم اضطراره إلى الخروج للعمل في هذا اليوم.

... وهكذا تتعدد الاستجابات أمام المثير القولي الواحد تبعاً لحالة الاهتمام الخاصة بكل فرد.

ولم يتطرق تشومسكي في كتابه الأول Syntactic Structures إلى أية مناقشات تتصل بالخلفيات النفسية والفلسفية للنحو، ولكن من الأشياء التي ميزت أعمال تشومسكي في المراحل الباكرة حديثة عن «الإبداعية» Creativity في اللغات الإنسانية؛ لأن اللغة عنده يتم إنتاجها وفهمها خلال تلك العملية الإبداعية، وأوضح تشومسكي أن النظرية النحوية يجب أن تعكس «الكفاءة» التي يمتكلها كل الناطقين باللغة على تكوين جمل واستيعابها على الرغم من أنهم لم يسمعوا بها من قبل.

ويرى تشومسكي أن السلوك اللغوي إنما هو سلوك عقلاني دقيق، يعتمد على مجموعة من القوانين التحويلية التي تحول «الجملة النواة» إلى تلك الجملة التي يصدرها المتكلم، ويفهمها السامع، وأوضح أن دراسة اللغة يجب أن تقوم على دراسة العقل الإنساني في البداية، وقد تأثر علم النفس بما في «النحو التوليدي» Generative Grammar من حديث عن المقدرة على إنتاج جمل جديدة وفهمها في ضوء القوانين النحوية الخاصة بالجملة، واهتم علم النفس خلال حديثه عما يسمى بـ«الحقيقة النفسية» بالتحويلات التي يطبقها المتكلم على

الجملة النواة حتى يصل إلى الجملة التي يصدرها بالفعل، وظهر ذلك في تساؤلهم عن وجود مجموعة من القوانين التحويلية داخل العقل الإنساني، تشبه تلك التي يضعها اللغويون، وعن اختزان أبناء اللغة لمجموعة من تلك القوانين داخل المخ أو الدماغ، وتساءلوا أيضاً عن الدور الذي تؤديه تلك القوانين في إنتاج الجمل وفهمها.

وقد ربط تشومسكي علم اللغة بالدراسات النفسية والفلسفية في مؤلفاته التي ظهرت بعد كتابه (التراكيب النحوية) مثل:

1 - Aspects of the theory of syntax.

2 - Cartesian Linguistics.

3 - Language and Mind.

وقد أكد في تلك المؤلفات على أهمية النحو التحويلي في دراسة العقل البشري، وفي التعرف على خصائصه واتجاهاته؛ لذلك أشار جون ليونز John Lyons في كتابه الذي ألفه عن (تشومسكي) إلى أن تشومسكي وصف علم اللغة بأنه أحد فروع علم النفس، وليس فرعاً قائماً بذاته، ولكنه لم يقصد بهذا الوصف أن يتحول البحث في اللغة إلى البحث من «استعمال اللغة»؛ أي من المقدرة أو الكفاءة اللغوية Competence إلى الممارسة أو الأداء اللغوي Performance، وكل ما يقوله تشومسكي هو أن أهم ما في الدراسة العلمية للغة، لا سيما في النحو التوليدي، هو ما تقدمه بالنسبة لإدراكنا للعمليات الذهنية الخاصة بإنتاج اللغة وفهمها.

تعريف علم اللغة النفسي:

يمكن تعريف «علم اللغة النفسي» Psycholinguistics وتحديد مجالات البحث فيه خلال النظر في المشكلات التي يطرحها والحلول التي يقترحها لتلك المشكلات، أو خلال النظر في الأسئلة التي تشغل بال المشتغلين به والإجابات التي يرونها لتلك الأسئلة. ومن بين تلك الأسئلة ما يأتي:

١ ـ ما الذي يعرفه الفرد حين يعرف إحدى اللغات؟ ويترتب على هذا السؤال النظر في «المعرفة» التي يمتلكها أحد الأفراد الذي يتكلم إحدى اللغات.

٢ ـ كيف يستطيع الفرد استخدام معرفته اللغوية حين إنتاج الكلام وفهمه؟ ويتصل هذا السؤال بالوظيفة التي تؤديها اللغة حين نتكلم، ونستمع، ونقرأ، ونكتب، وربما حين نفكر.

٣ ـ كيف يمكن للفرد اكتساب المعرفة اللغوية التي أشرنا إليها؟ وكيف يكتسب القدرة التي تمكنه من استخدامها؟[١].

لذلك يمكن تعريف «علم اللغة النفسي» بأنه العلم الذي يدرس «اللغة» في إطار علاقتها بـ«علم النفس».

وإذا كان الباحث من المشتغلين بالدراسات اللغوية، ويستعين بمعطيات «علم النفس» في حل بعض المشكلات التي تقابله في دراسته؛ فإنه يمكن استخدام مصطلح «علم اللغة النفسي».

وإذا كان الباحث من المشتغلين بدراسات علم النفس، ويستعين بما في «علم اللغة» من مناهج وتحليلات لحل بعض المشكلات التي تقابله في دراسته؛ فإنه يمكن استخدام مصطلح «علم النفس اللغوي»[٢].

موضوعات علم اللغة النفسي:

١ ـ كيف يحلل المستمع سلسلة الأصوات المتوالية التي تصل إلى أذنيه إلى وحدات؛ حتى يمكنه التوصل إلى المعنى أو المعاني التي يريدها المتكلم.

---

(١) Foss, Donald & Hakes, David, Psycholinguistics.

(٢) يطلق عليه بعض الباحثين اسم «علم نفس اللغة» The psychology of language، ويعدونه أحد التخصصات الفرعية في علم النفس.

٢ - عملية اختيار المتكلم للمفردات التي يحتاجها للتعبير عن أفكاره وتوصيلها إلى الآخرين بطريقة تؤدي إلى فهمها في سهولة ويسر.

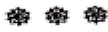
٣ - التعرف على طبيعة التذكر، وتركيب الذاكرة من الناحية اللغوية، واختزان الألفاظ أو المفردات في الذاكرة، وهو ما يطلق عليه اسم «المعجم الذهني»، والاهتمام بالصعوبات التي تواجه «ابن اللغة» عند استحضار المفردات لاستعمالها.

٤ - كيف يتعلم الطفل لغته الأم، ويبدأ ذلك بالتعرف على اكتسابه للمفردات، وطريقة بناء الكلمة وتكوين الجملة، والعلاقة بين النمو اللغوي للطفل ونموه الإدراكي، وهذا كله بالإضافة إلى غيره يندرج تحت أهم بحوث علم اللغة النفسي وهو «اكتساب اللغة».

٥ - دراسة أمراض اللغة، واضطراب النطق، وعيوب الكلام وغير ذلك من الظواهر ذات الصلة باللغة المنطوقة، وهي تؤدي إلى عدم البيان، وهو ضد الفصاحة، وتؤدي أيضاً إلى «اللحن» بكل جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ومن أمثلة تلك الأمراض تأخر الكلام واحتباسه.

٦ - العلاقة بين اللغة وعلم الأمراض النفسية الذي يندرج تحته ما يسمى بـ«التخلف العقلي» الذي يؤدي إلى بعض الأمراض اللغوية حين الكلام، ويظهر ذلك في تأويل الكلام على غير ما يفهمه عامة الناس، والهذيان، والهلوسة السمعية الذي تتمثل في توهم المريض أنه يسمع أصواتاً تؤثر في عقله وأفعاله، والخَرَف... وغير ذلك من الأمراض النفسية التي فيها جزء يمكن لعلماء اللغة دراسته.

وهناك موضوعات أخرى كثيرة يمكن أن تندرج تحت ما يسمى بـ«علم اللغة النفسي».



علم اللغة البراجماتي

تعرف الدراسات المعاصرة نوعاً من البحوث يسمى بـ«فلسفة اللغة» وهو عبارة عن مجموعة مترابطة من الدراسات يعكف عليها علماء الفلسفة والمنطق تنشأ عما يقلقهم من مشكلات وأسئلة تتعلق باللغة. كما أن علماء اللغة خاضوا في الكثير من المسائل المنطقية والفلسفية ذات الصلة ببحوثهم، وقد بلغ ذلك قمته في كتاب (علم اللغة الديكارتي) Cartesian Linguistics للغوي الأمريكي الأشهر تشومسكي Chomsky؛ بالإضافة إلى كتبه وبحوثه ومقالاته الأخرى.

ومن العلوم اللغوية التي تعد إحدى ثمار الاتصال بين اللغة والفلسفة ما يسمى بـ«علم اللغة البراجماتي» Pragmatic Linguistics الذي أخذ الكثير من أسسه المنهجية وتحليلاته اللغوية ومصطلحاته من «الفلسفة البراجماتية»؛ لذلك حين أردنا الحديث عن هذا العلم رأينا التمهيد له بالتوقف أمام:

الفلسفة البراجماتية

إذا أردنا أن نرجع إلى أصل الحركة التي نشأت في أمريكا باسم «البراجماتزم» Pragmatisme فلا بد أن نشير إلى مذهب الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس Charles Peirce (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) الذي استعمل هذا المصطلح لأول مرة في مقال نشره بإحدى المجلات العلمية تحت عنوان «كيف نوضح أفكارنا» How to make our ideas clear، وفي هذا البحث نجد أن بيرس يقرر أن فكرتنا عن أي شيء إنما هي عبارة عن

الفكرة التي نكونها عن الآثار المترتبة عن ذلك الشيء؛ فليست معتقداتنا في نظره سوى قواعد للعمل أو السلوك، وليس التفكير بأكمله سوى مرحلة أولى في سبيل تكوين عادات فعلية. وتبعاً لذلك فإننا إذا أردنا أن نكفل لأية فكرة من أفكارنا أكبر قسط ممكن من الوضوح، فليس علينا ـ فيما يرى بيرس ـ سوى أن ننظر إلى الآثار العملية التي تتصور تولدها عن تلك الفكرة، والإحساسات المباشرة وغير المباشرة التي نتوقع حدوثها نتيجة لها، وما عساه أن يترتب عليها من ردود أفعال يجب أن تعمل حساباً لها. وبهذا المعنى لا يكون تصورنا لأي موضوع من الموضوعات سوى مجرد تصور للنتائج العملية التي يمكن أن تترتب على هذا الموضوع[1].

وقد نشأت كلمة براجماتيزم Pragmatisim حين تساءل بيرس عن معنى الفكرة، ومعنى العبارة، ومتى يكون للفكرة معنى؟ ومتى تكون العبارة صادقة؟ ومتى يجوز لنا أن نتكلم عن العبارة بوصفها معبرة عن فكرة ومتى لا يجوز؟

ولما انتهى بيرس إلى أن الفكرة هي ما تعمله؛ أي إن معناها يرتبط بنتائجها وآثارها المترتبة عليها، صاغ لنفسه كلمة براجماتيزم التي يقول إنه أخذها من تمييز كَنْت Immanuel Kant (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) بين كلمتين هما practical, Pragmatic وقال: إن الفرق بينهما مثل ما بين القطبين؛ إذ تشير الأولى إلى بحث في قواعد الفن الذي يشتق من التجربة، بينما تشير الثانية إلى القوانين الخلقية ذات الأساس القبلي[2].
ولقد أراد بيرس من استخدامه براجماتيزم ما يأتي:

١ ـ أن تدل على معنى العمل والفعل، ولذا عادة ما تسمى الفلسفة البراجماتية باسم الفلسفة العملية أو فلسفة الفعل.

---

(١) الدكتور زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٣٠.
(٢) الدكتور محمود زيدان: وليم جيمس ص٤١ (الهامش).

٢ ـ وأن تكون في الوقت نفسه كلمة جديدة واضحة المعنى لا لبس فيها، ولا غموض يشوبها؛ وذلك على خلاف كثير من الألفاظ المستخدمة في الفلسفة مثل المثالية والواقعية وغيرها.

٣ ـ وأن تكون على درجة من الغلظة والقبح مما يمنع من شيوعها بين الناس حتى لا يصيبها الغموض والإبهام، ويصبح شأنها شأن بقية الألفاظ التي تحتاج إلى إيضاح.

إلا أن ما كان يخشاه بيرس ويتوقعه قد حدث بالفعل، فقد شاعت كلمة براجماتيزم بين الناس شيوعاً كبيراً، وأصابها التحوير... الأمر الذي دفعه إلى تعديل الكلمة بإضافة حروف زائدة وهي Ci إلى اللفظ الأصلي وهو Pragmatism فأصبحت Pragmaticism... لعلها تصبح على درجة من القبح والغلظة، نطقاً أو كتابة أو سمعاً، مما يحول دون شيوعها مرة أخرى أو تحوير معناها، ومن ثم غموضها[1].

وتتميز فلسفة بيرس بالدقة البالغة التي ظهرت في تحديده للأفكار والمعاني والتعبير عنها، وفي وضعه لبعض الألفاظ الجديدة الواضحة بدلًا من تلك التي يطبعها الغموض والإبهام، وتعمد أن تكون تلك الألفاظ التي وضعها فيها الغلظة التي تؤدي إلى ابتعاد غير المتخصصين عنها، حتى لا تنتشر ويؤدي هذا إلى سيطرة الغموض عليها ثانية.

أصل مصطلح «البراجماتية» وتطوراته التاريخية:

ينسب الاستعمال الحديث لمصطلح Pragmatics إلى الفيلسوف تشارلز موريس Charles Morris؛ وذلك فيما كتبه سنة ١٩٣٨ حول تلخيص الإطار العام لـ«علم العلامات» Semiotics ورأى أنه يدور حول البحث في ثلاثة موضوعات هي:

---

(١) اتجاهات في الفلسفة المعاصرة: ص٩٤.

١ ـ ما يتصل بالنظم أو التركيب Syntactic (أو Syntax) وأساسه دراسة العلاقة الاصطلاحية بين الرموز (أو العلامات أو الإشارات) بعضها وبعض.

٢ ـ ما يتصل بعلم الدلالة Semantics، وأساسه دراسة العلاقات بين الرموز والموضوعات التي لا بد أن تأتي الرموز مطابقة لها.

٣ ـ ما يتصل بالبراجماتية التي تدرس علاقة الرموز بتأويلاتها أو بالأشياء التي تفسرها[١].

وخلال كل موضوع منها يستطيع المرء التمييز بين الدراسات الخالصة التي تتصل بما وراء اللغة metalanguage والدراسات الوصفية التي تطبق ما وراء اللغة في وصف الإشارات المحددة واستخداماتها.

ومن أمثلة الحالات التي يمكن الحكم على استعمالها في ضوء القانون البراجماتي ما لاحظه موريس من أن ألفاظ التعجب مثل !Oh وصيغ الأمر مثل !Come here وبعض التعبيرات مثل Good morning وبعض الأساليب البلاغية والشعرية تستعمل في إطار ظروف أو مناسبات محددة يتعرض لها مستعملو اللغة، وتلك الاستعمالات يمكن معالجتها الآن في إطار البحث في علم اللغة البراجماتي[٢]. وقد ذهب موريس إلى توسيع المباحث التي تندرج تحت البراجماتية حتى تتناسب مع النظرية السلوكية المتصلة بعلم العلامات الذي يتصل بالظواهر الاجتماعية والنفسية والبيولوجية ووظائف العلامات؛ لذلك كان مفهوم البراجماتية واسعاً جداً حين مقارنته بالعمل الحالي في علم اللغة البراجماتي؛ لأن هذا المفهوم سيضم كل ما يتصل بعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة العصبي وسواها.

---

(١) Morris, Writings on the general theory of signs, P.6.

(٢) Ibid, P.48.

وبعد هذا التقسيم الذي أرتآه موريس لموضوعات علم العلامات الثلاثة السابقة: النظم، والدلالة، والبراجماتية، أصبح المصطلح Pragmatics يستخدم في مجالين هما:

١ ـ الاستخدام العريض الواسع الذي قصده موريس وشرحه في مؤلفاته لمصطلح البراجماتية، ومن بين ذلك حديثه عن الأمراض النفسية التي نجدها في عملية الاتصال، وتطور أنظمة الاتصال. وقد كانت لدى موريس الرغبة في استخدام البراجماتية ـ على وجه الحصر ـ على أنها قسم علم اللغة الإشاري أو الرمزي، لا على أنها جزء يتصل بالأنظمة الإشارية على وجه العموم، وما يزال هذا الاستخدام الواسع للمصطلح الذي يغطي ما يتصل بعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وأكثر من ذلك مستعملًا في الوقت الحاضر.

٢ ـ استخدام البراجماتية في التحليل الفلسفي، وقد أصبح المصطلح في هذا التحليل محدداً، وضاقت المجالات التي يدور حولها في البحث والدراسة، ويعود الفضل في ذلك إلى عالم المنطق والفلسفة كارناب Carnap وما أحدثه من تأثيرات؛ فقد أشار إلى أن البحث إذا كان محدداً بالمتكلم أو يضعه في مصطلحات عامة بالنسبة إلى مستعمل اللغة فإن هذا البحث يتصل بحقل البراجماتية، وإذا كنا نتجاهل مستعمل اللغة أو نغض الطرف عنه، ونحلل التعبيرات حسب وما تشير إليه فإن البحث يتصل بعلم الدلالة، وإذا كنا نتجاهل ما تشير إليه التعبيرات ونحلل العلاقات بين التعبيرات حسب فإن البحث يكون في حقل النظم أو التركيب[١].

ولسوء الحظ فإن استخدام كارناب لمصطلح البراجماتية قد اختلط بما تبناه موريس من التفريق بين الدراسة الخالصة أو المحضة

---

(١) Carnap, Foundations of logic and Mathematics.

والدراسة الوصفية، وأصبح يسوي البراجماتية بعلم العلامات الوصفي على وجه العموم، ومن ثم بدراسة «اللغات الطبيعية». وقد كان هناك الكثير من الغموض في دراسات موريس وكارناب تتصل بالمصطلحات الثلاثة: pragmatics, Semantics, Syntactic وما يندرج تحتها من موضوعات؛ بالإضافة إلى عدم وجود تحديد صارم للبراجماتية التي اختلطت بعلم الدلالة ودراساته وبحوثه.

ونشير إلى أن الفكرة التي قامت عليها البراجماتية وهي أن دراسة أوجه اللغة تقتضي الاهتمام بمستعملي اللغة قد نالت اهتمام العلماء فيما كتبوه عن «الفلسفة التحليلية»؛ لأن الفلاسفة، وعلى وجه الخصوص علماء المنطق، قد استغلوها في التوصل إلى النتائج من المقدمات، ومن أمثلة ذلك:

I am Greta Garbo, Greta Garbo is a woman, therefore I am a woman.

ويرتبط الصدق في هذا المثال بصحة المقدمتين؛ بالإضافة إلى أن المتكلم لهما وللنتيجة واحد؛ لذلك حدد بعض اللغويين مفهوم البراجماتية على أنه دراسة اللغات سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية ومن بينهم كاليش Kalish[1] ومونتاجو Montague[2].

وفي أواخر عام ١٩٦٠ تبنى علم اللغة التحديدات التي قال بها كارناب؛ خاصة خلال الحركة التي عرفت باسم «علم الدلالة التوليدي» Generative Semantics، وقد تم تحديد مصطلح البراجماتية في تلك الحركة على أنه يتصل بدراسة المعنى، وهذا الاهتمام بالمعنى نجده بصورة واضحة في كتابات تشومسكي Chomsky سنة ١٩٦٥ التي تتصل

---

(١) في مقال عنوانه Semantics منشور في دائرة المعارف الفلسفية، ص٣٤٨ ـ ٣٥٨ الجزء السابع سنة ١٩٦٧.

(٢) في مقال عنوانه Pragmatics منشور في كتاب الفلسفة المعاصرة، ص٩٥ ـ ١١٨ سنة ١٩٦٨، وهناك تفصيلات عن الكتاب في قائمة المراجع.

بالنظرية المعيارية أو القياسية، وفي الوقت نفسه ظهر اتجاه بين اللغويين يحاول التغلب على المشكلات المتصلة بالمعنى في ضوء آراء الفلاسفة ومحاولاتهم، وعلى الخصوص فيما يتصل بأبناء اللغة ومستعمليها؛ لذلك نجد اللغويين والفلاسفة يسيرون معاً في سبيل واحدة، وقد أدى هذا إلى وجود تحديد دقيق لمصطلح البراجماتية[١].

مفهوم مصطلح Pragmatics:

هناك الكثير من الصعوبات التي تحول دون وضع تعريف دقيق ومفهوم واضح لمصطلح Pragmatics، ويأتي على رأس تلك الصعوبات دخول هذا المصطلح ضمن الكثير من العلوم، واهتمام العديد من العلماء على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية وتخصصاتهم العلمية به؛ وذلك على الرغم من أن المصطلحات الثلاثة التي حددها موريس لا صعوبة في مفهومها أو تحديدها من وجهة النظر التقليدية؛ فالنظم يهتم بالحديث عن اتحاد الكلمات وأجزاء الكلمات في جمل، وعلم الدلالة يهتم بدراسة المعنى، والبراجماتية تدور حول استعمال اللغة. وقد حاول بعض العلماء تقديم تعريفات للمصطلح، ويمكن العرض لها على النحو الآتي:

١ ـ البراجماتية هي دراسة العناصر الأساسية التي تعلل وجود مجموعة من الجمل الشاذة أو الخارجة عن القياس anomalous أو التعبيرات غير المحتملة، ومن أمثلتها الجمل الآتية[٢]:

(1) ?? come there please!

(2) ?? Aristotle was Greek, but I don't believe it.

---

(١) Levinsons, Pragmatics, P.P.1-4.

(٢) تشير تلك العلامة؟؟ إلى أن الجملة غير صحيحة من الناحية البراجماتية، وهناك علامة أخرى هي * تشير إلى الجمل غير الصحيحة نحويًا. انظر كتاب Pragmatics ص٦.

(3) ?? Fred's children are hippies, and he has no children.
(4) ?? Fred's children are hippies, and he has children.
(5) ?? I order you not to obey this order.
(6) ?? I hereby sing.
(7) As everyone knows, the earth please revolves around the sun.

ويمكن شرح الخروج عن القياس أو الشذوذ في تلك الجمل في ضوء خروجها عن المألوف في السياقات الخاصة بها، ولكن التعليل الدقيق لذلك في ضوء البراجماتية يعتريه الكثير من الصعوبات، إذا فهمنا البراجماتية على أنها المقابل للدلالة أو التركيب أو علم اللغة الاجتماعي؛ لذلك نستطيع أن نقول إن تلك الجمل بها خروج عن القياس دون الخوض في شرحه وإيضاحه بالتفصيل.

٢ ـ هناك تعريف ثانٍ للبراجماتية يقول إنها دراسة اللغة خلال الجانب المعياري الوظيفي الذي يحاول أن يشرح ملامح التركيب اللغوي عن طريق الإشارة إلى الأسباب غير اللغوية.

ولكن مثل هذا التعريف للبراجماتية لن يستطيع التمييز بين علم اللغة البراجماتي وفروع أخرى من المعارف تهتم بالجوانب الوظيفية في اللغة على نحو ما هو موجود في علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي. وعلاوة على ذلك فإن تبني هذا التعريف يؤدي إلى الخلط بين الحافز أو الباعث على دراسة البراجماتية والأهداف العامة للنظرية اللغوية.

٣ ـ وهناك تعريف ثالث للبراجماتية يقول إنها يجب أن تهتم بعناصر استخدام اللغة حسب، ولا شأن لها بوصف التركيب اللغوي.

ويمكن أن نمثل لهذا التعريف بالتفريق الذي أشار إليه تشومسكي بين الكفاءة Competence والمقدرة Performance اللغوية؛ فالبراجماتية تتصل بعناصر المقدرة على استخدام اللغة بواسطة أبنائها. وقد تبنى كاتز Katz هذا التعريف الذي أشرنا إليه، وأوضح أن النظريات النحوية تدور

حول الأنماط المتصلة بتركيب الجملة، في حين أن البراجماتية على العكس تماماً؛ فليس من شأنها إيضاح التراكيب اللغوية أو العلاقات والروابط النحوية، وإنما تبحث عن العلاقة المتبادلة بين المتكلم والسامع في سياق الجملة؛ لذلك تعد النظرية البراجماتية جزءاً من المقدرة اللغوية[1].

٤ - وهناك تعريف رابع للبراجماتية يشير إلى أنها عبارة عن دراسة تلك العلاقات التي تنشأ بين اللغة والسياق بطريقة نحوية[2]. أو يمكن التعبير عن هذا التعريف بطريقة أخرى فنقول إن البراجماتية هي دراسة أوجه العلاقة بين اللغة والسياق، وتلك العلاقة لها صلة وثيقة بالقواعد النحوية المكتوبة. ومثل هذا التعريف للبراجماتية يجعلها تدرس أوجهاً معين من التراكيب اللغوية، ويقف في مقابل اقتراح كاتز الذي أشرنا إليه، والذي يجعل من البراجماتية شيئاً لا صلة له بالجوانب النحوية في استعمال اللغة.

٥ - وهناك تعريف خامس للبراجماتية يقول إنها دراسة تلك الأوجه المختلفة للمعنى التي لا نستطيع التوصل إليها خلال النظرية الدلالية.

وقد أوضح جازدر Gazdar[3] أن المقصود بهذا التعريف قصر البحث في علم الدلالة على الجمل المتصلة بحالات الصدق في اللغة، في حين أن البراجماتية تبحث في تلك الأوجه من المعنى الخاصة بالتعبيرات التي لا يمكن حصرها بالإشارة الواضحة إلى حالات الصدق في الجمل، وقد عبر عن ذلك كما يأتي:

---

(١) Katz, Propositional Structure, P.19.

(٢) المقصود بالنحو هنا مفهومه الواسع الذي يشمل المفردات والصرف والنظم والأصوات.

(٣) Gazdar, Pragmatics, P.2.

Pragmatics = Meaning - Truth conditions

لذلك نستطيع أن نقول بناء على هذا التعبير أو الإيضاح إن البراجماتية تساوي المعنى مع إخراج ما يتصل بحالات الصدق.

ونشير إلى أن حالات الصدق في الجمل المنطوقة أو المكتوبة نستطيع التوصل إليها في ضوء العديد من الأشياء، ومن أمثلة ذلك أن إنساناً لو قال لي:

Letizia de Romalino was the mother of Napoleon

فإن صدق هذه الجملة يعود إلى حقائق التاريخ الذي يخبرنا باسم أم نابليون، وهو الفيصل في صدق تلك الجملة أو عدم صدقها. ولكن حين تحليل جملة تقول:

I am the mother of Napoleon

فلا نستطيع التوصل إلى صدقها إلا في ضوء معرفة شخصية المتكلمة، والحالة الوحيدة للحكم على صدق تلك الجملة أن تكون المتكلمة أم نابليون فعلاً؛ لذلك يقال إن المشكلة تكمن في الضمير I، ويضاف إلى ذلك معرفة التفصيلات الدقيقة المتصلة بالسياق الذي قيلت فيه الجملة.

٦ - وهناك تعريف سادس للبراجماتية يقول إنها دراسة العلاقات بين اللغة والسياق؛ لأن تلك العلاقات أساسية في فهم اللغة.

ومصطلح «فهم اللغة» Language Understanding من المصطلحات المفضلة لدى المشتغلين بـ«الذكاء الاصطناعي» على أنه وسيلة لجذب الانتباه إلى الحقيقة القائلة بأن فهم أية جملة يتوزع في الكثير من الاتجاهات التي تفيد في معرفة معاني الكلمات والعلاقات النحوية القائمة بينها أكثر من غيرها.

٧ - وهناك تعريف سابع للبراجماتية يقول إنها عبارة عن دراسة مقدرة أبناء اللغة على ربط الجمل بالسياقات التي يجب أن تكون ملائمة لها.

وهذا التعريف يناسب تماماً وجهة نظر الذين يجعلون البراجماتية تتساوى مع أوجه اللغة الأخرى، وإذا اعتبرنا البراجماتية أحد أوجه المقدرة اللغوية عند تشومسكي؛ فإنها يجب أن تحتوي على القوة الإدراكية المجردة[1].

٨ ـ وهناك تعريف ثامن للبراجماتية يقول إنها علم يهتم بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، وتأثير هذا الاختيار في الآخرين. إننا نستطيع من حيث الناحية النظرية استعمال ما يحلو لنا من الألفاظ والعبارات والجمل، ولكن من حيث الناحية العملية نجد أنفسنا مقيدين بالعديد من القوانين الاجتماعية التي تحكم هذا الاستعمال، ومن أمثلة ذلك أن الإنسان يجد المتعة في أن يحكي للآخرين قفشة أو نكتة، ولكن ليس من المستحب أن يفعل ذلك حين يكون في تشييع جنازة؛ لأن الموقف لا يحتمل مثل هذه الأشياء. وتؤثر العوامل البراجماتية دائماً في اختيارنا للأصوات، والأبنية الصرفية، والتراكيب النحوية، والمفردات من المنابع المتصلة باللغة الأم، والدليل على ذلك أن هناك فرقاً بين استخدام كلمات من نحو Please وThank you وMerci حين الإجابة عن بعض الأسئلة في المناسبات الاجتماعية المختلفة؛ فإذا قيل لك وأنت في زيارة أحد الأصدقاء: would you like some more cake? وأجبت بقولك: Thank you فهذا معناه Yes؛ أي أريد المزيد من الكعك، بينما الإجابة عن السؤال نفسه بالكلمة الفرنسية Merci معناه No؛ أي لا أريد المزيد.

ويرى دافيد كريستال David Crystal[2] أن هناك عدة علوم لغوية وغير لغوية تشترك فيما بينها حين دراسة ما يتصل بالتحليل البراجماتي،

---

(١) وردت تلك التعريفات مع التعليق عليها في كتاب Pragmatics لمؤلفه Levinson ص٥ ـ ٢٤.

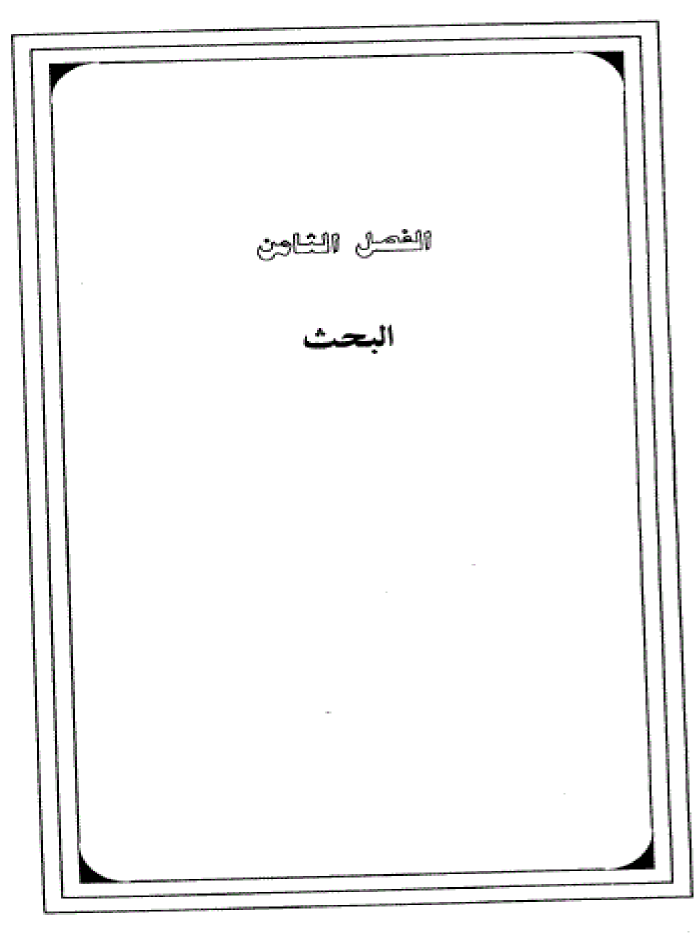
(٢) Crystal, The cambridge encyclopedia of language, P.P.120-122.

ومن تلك العلوم:

- علم الدلالة Semantics.
- علم الأسلوب Stylistics.
- علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics.
- علم اللغة النفسي Psycholinguistics.
- تحليل الخطاب Discourse analysis.

وبعد هذا الحديث عن الأصول التاريخية، والتعريفات المختلفة للبراجماتية نشير إلى أن السنوات الأخيرة قد شهدت الكثير من الدراسات التي اتخذت من البراجماتية وأصولها المنهجية مجالًا للتطبيق في التحليل اللغوي، وقد كانت تلك الدراسات رد فعل لموقف تشومسكي من اللغة؛ إذ إنه - على حد قول أحد الذين كتبوا في علم اللغة البراجماتي - درسها على أنها فكرة مجردة، أو مقدرة عقلية دون الاهتمام باستخداماتها وبالمتحدثين بها وبوظائفها، وكان هذا الموقف من تشومسكي محاولة لإزاحة الأفكار التي طرحها بلومفيلد، وسيطرت على الدراسات اللغوية في أمريكا، وتبناها الذين أتوا بعد بلومفيلد؛ خاصة في الفترة التي سبقت ظهور «النحو التحويلي التوليدي» الذي سيطر على مناهج البحث اللغوي في أنحاء العالم كافة.

❀ ❀ ❀



الفصل الثامن

البحث

تعريف البحث

هناك الكثير من التعريفات الدقيقة، والتحديدات النافعة للبحث، قال بها المحدثون من أساتذتنا وباحثينا، ونقدم بعضها، وهي على النحو الآتي:

١ - «البحث: بذل الجهد في موضوع ما، وجمع المسائل التي تتصل به. والجمع: بحوث، وأبحاث»[١].

٢ - «تقرير وافٍ يقدمه باحث عن عمل تعهده وأتمه، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة، منذ كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة، مرتبة، مؤيدة بالحجج والأسانيد»[٢].

٣ - «البحث: طلب الحقيقة وتقصيها وإذاعتها في الناس... وفي كلمة الحقيقة ما يبين المعنى الإنساني للبحث. ويدخل في هذا المعنى الشمول فيما يتصل بالفكر البشري وعاطفته وخياله، دون أن يمنع هذا الشمول في القصد أن يرى باحث بارع عناصر الإنسانية بمعناها الواسع خلال موضوع محلي يبدو ضيقاً جداً. ومن هنا يلتقي الباحثون من كل صنف: الفلاسفة والنقاد ودارسو الأدب، ويجب أن يلتقوا، أو أن يكون اللقاء - في الأقل - من أهدافهم ومما لا يغيب عن بالهم»[٣].

---

(١) المعجم الوسيط: مادة (بحث).

(٢) الدكتور أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة ص١٣.

(٣) الدكتور علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي ص٢٥.

٤ - «البحث والكتاب والنشرة العلمية الدورية والتقرير العلمي وعرض الكتب أنواع من المطبوعات، وهذه المطبوعات هادفة إلى التواصل العلمي، ولكل نوع خصائصه وأهدافه ووظائفه ويسمى البحث الواحد أيضاً بالورقة البحثية، ويسميه بعض الجامعيين باسم المقال العلمي. وهذه التسميات مترادفة للدلالة على مفهوم واحد أخذ يستقر في الجامعات ومراكز البحوث في كل مجالات المعرفة، ومنها علوم اللغة. والبحث يهدف إلى تقديم معلومات أو فكرة أو تفسير جديد، ومن ثم ينبغي أن يكون العرض واضحاً وهادفاً ودقيقاً في التوثيق واللغة. والبحوث اللغوية نوع من البحوث، موضوعاتها تتناول اللغة من حيث أصواتها أو أبنيتها أو أنماط الجملة أو الدلالة بمنهج من المناهج المعترف بها بين اللغويين»[1].

ونلاحظ، في ضوء تلك التحديدات والتعريفات السابقة، أن البحث، أيّاً كان المجال العلمي الذي يدور في إطاره، عمل علمي يمتاز بما يأتي:

١ - بذل الجهد في تتبع الموضوع الذي تم تحديده خلال قراءة كل ما يتصل به في المصادر والمراجع والمقالات والبحوث والدوريات والرسائل الجامعية والمخطوطات؛ بالإضافة إلى طلب النصيحة من الذين سبقوا في اقتحام الميدان.

٢ - جمع المسائل والآراء والأفكار التي تتصل بالموضوع الذي تم اختياره خلال الاستقصاء المنظم الدقيق للوصول إلى القوانين والقواعد والعلل والأسباب التي تفسر هذا الموضوع، وتقدم الحلول للمشكلات التي تندرج تحته.

٣ - وجود مجموعة من الأساليب والإجراءات التي يمكن أن

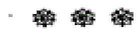
---

(١) الدكتور محمود فهمي حجازي: البحث اللغوي ص١٤٧.

تسميها بالمنهج، وهو يساعد العقل في الوصول إلى الحقيقة التي يفضل عدم التفكير فيها دون منهج.

٤ ـ الوصول إلى حقائق جديدة أو تفسيرات علمية دقيقة لموضوع الدراسة، ويقدم البحث في اللغة بعض التعليلات لظاهرة صوتية، أو لاستعمال الصيغ الصرفية، أو لبناء الجملة وتركيبها النحوي، أو لدلالة ألفاظها والتطور الذي يطرأ عليها وغير ذلك من الأمور التي يفترض أن يقدم بعضها البحث اللغوي.

ونشير إلى أن مفهوم البحث عند المحدثين ينصرف، في الأغلب الأعم، إلى بحوث الماجستير والدكتوراه، ويطلق على البحث اسم «الرسالة» أو «الأطروحة».



مادة البحث اللغوي

من المعروف أن «اللغة» Language عبارة عن مجموعة من الأصوات التي تأتلف فيما بينها حتى تتكون الكلمات، ومن مجموع الكلمات تتكون الجمل التي لا بد أن تدل كل واحدة منها على معنى مفيد. ومن هنا نستطيع أن نقول إن عناصر أية لغة، في الأغلب الأعم، أربعة هي:

١ ـ الأصوات، أو ما يسمى بحروف الهجاء، أو حروف المباني؛ أي الحروف التي تبنى منها الكلمات المفردة.

٢ ـ الأبنية الصرفية أو الصيغ Forms وتدخل في إطارها الكلمات Words أو المفردات التي هي عبارة عن مجموعة من الأسماء والأفعال والحروف.

٣ ـ التراكيب النحوية، أو العبارات، أو الجمل، التي تنشأ من ضم بعض الكلمات فيما بينها؛ حتى يكون لدينا سياق نحوي أو لغوي ذو معنى مفيد.

٤ ـ المعنى Meaning أو الدلالة.

واللغة العربية لها عدة نظم؛ فلها النظام الصوتي الذي تتوزع فيه الأصوات دون وجود أدنى تنافر بين صوت وآخر. فلها النظام الصرفي الذي يحتوي على مجموعة من القوانين الصارمة التي تفيد من صياغة المصدر، أو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو التصغير، أو النسب أو غير ذلك. ولها النظام النحوي الذي لا نجد فيه تعارضاً بين قاعدة

وأخرى، ويؤدي اتباع هذا النظام إلى عدم الخطأ حين القراءة أو الكتابة أو الإعراب للكلمات وأشباه الجمل والجمل. وتلتقي تلك النظم فيما بينها للتوصل إلى معنى مفيد من الكلام.

والمادة الأساسية لأي بحث لغوي هي «اللغة» التي عرفها ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، واللغة لها جانبان، أو قسمان:

١ - اللغة المكتوبة Written language.

٢ - اللغة المنطوقة Spoken language.

وتدور معظم الدراسات اللغوية التي يجريها الباحثون حول اللغة المكتوبة، والمادة اللغوية التي يمكن إجراء بحوث ودراسات عليها، أو اتخاذها مادة للبحث والتحليل اللغوي تؤخذ من:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الحديث الشريف.

٣ - الخطب والرسائل النبوية.

٤ - الشعر العربي في مختلف عصوره.

٥ - النثر القديم والحديث.

❋ ❋ ❋

اختيار البحث اللغوي

إن اختيار البحث اللغوي ليس أمراً سهلاً؛ فلا بد أن يكون البحث صاحب ثقافة واسعة في مجال الدراسات اللغوية، ومعرفة بالبحوث التي سبقته؛ حتى يمكنه التوصل إلى بحث لغوي جديد.

وقد كان اختيار موضوع للماجستير أو الدكتوراه في السنوات الثلاثين الماضية من بدء الحياة الجامعية فيه سهولة ويسر؛ لوجود الكثير من الظواهر والقضايا واللغوية والنحوية التي لم يدرسها أحد من قبل؛ بالإضافة إلى أن الأعلام الذين أقاموا صرح النحو والتصريف كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء وأبي علي الفارسي وابن جني وابن هشام والسيوطي وسواهم كانوا بحاجة إلى من يتناول آراءهم بالجمع والتحليل والدراسة، وكذلك كانت هناك عشرات المخطوطات التي كانت في حاجة إلى التحقيق والدراسة. ولكن بعد انتشار الجامعات في أنحاء الوطن العربي كافة، ووَضْع برامج للدراسات العليا، وجد الباحث صعوبة شديدة في اختيار موضوع لم يسبق إليه، ومع ذلك فالأمر لا يعني أن الأول لم يترك للآخر شيئاً؛ لأن القراءة الواعية للتراث والمراجع الحديثة تساعد الباحث كثيراً في اختيار الجديد؛ لذلك لا ينفعك أن تقول مع عنترة:

هل غادر الشعراءُ من متردم

أو تقول مثلما قال زهير:

ما أرانا نقولُ إلا معاراً … أو معاداً من قولنا مكروراً

بل لا بد من المحاولة الجادة للتوصل إلى موضوع جديد، لم يطرقه أحد من الباحثين، وهناك أشياء كثيرة تساعد في هذا الاختيار سوف نسجلها فيما بعد؛ لذلك من الأفضل أن نقول:

كـــــم تـــــرك الأولُ لـــــلآخـــــر

ومن الأمور التي تعود عليها بعض الباحثين في بداية حياتهم العلمية الذهاب إلى أحد الأساتذة حتى يختار له موضوعاً للبحث، وهذا أمر فيه الكثير من الخطورة؛ لأن الباحث يمكن أن يأخذ موضوعاً من أحد الأساتذة لبحثه ودراسته ولا يستطيع أن يواصل الطريق فيه لعدم اتفاقه مع ميوله الحقيقة؛ فيؤدي هذا إلى تعثره، أو تقديم عمل لغوي فيه الكثير من أوجه الضعف، أو ليس على درجة عالية من الجودة والإتقان، وربما يلجأ إلى تغيير الموضوع بعد مضي فترة من تسجيله لم يفعل فيها شيئاً، أو ينصرف عن مواصلة الطريق في الدراسات العليا.

ونذكر أن أحد الباحثين أراد أن يسجل موضوعاً للحصول على درجة الدكتوراه، وحينما طلب مني مساعدته في اختيار موضوع نصحته بأن يختار موضوعاً يتفق مع ميوله، ويفيد من خبرته في دراسة بحثه للماجستير، ولكنه ألح في الطلب؛ لذلك اخترت له موضوعاً يدور حول إجراء دراسة لغوية لكتاب عنوانه (النكت في تفسير كتاب سيبويه)[1] لمؤلفه الأعلم الشنتمري (٤١٠ ـ ٤٧٦هـ) يحلل خلالها المادة الصوتية والتركيبية والدلالية التي فسر بها الأعلم كتاب سيبويه، مع الكشف عن «المنهج» الذي سار عليه في ضوء علم اللغة الحديث، ولكن مضى عام بأكمله دون أن يفعل الباحث شيئاً له قيمته في موضوعه؛ لذلك لجأ إلى تغيير الموضوع واختيار آخر نابع من رغبته الشخصية في بحثه ودراسته.

(١) صدر محققاً عن معهد المخطوطات، دولة الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

والطريقة التي يجب اتباعها هي أن يعكف الباحث على القراءة والاطلاع المستمر، مع النظر في البحوث السابقة، والوقوف على تفصيلات موضوعاتها للتعرف على ما يتفق مع ميوله. وتؤدي هذه الطريقة إلى ابتعاد الباحث عن الموضوعات المعدة، واختياره موضوعاً اكتشفه بنفسه، واستطاع التوصل إليه بعد معاناة بين الكتب والمصادر والمراجع والدوريات والبحوث اللغوية؛ لأن القراءة المستمرة تولد الكثير من المعاني، والعديد من الأفكار، وتفتح أمام ناظري الباحث آفاقاً واسعة من التأمل والتدبر.

وهناك عدة عوامل تساعد الباحث في اختيار الموضوع الذي سيدرسه؛ بالإضافة إلى ما ذكرناه من عكوفه على القراءة المستمرة، وتلك العوامل هي:

١ ـ حضور مناقشة إحدى رسائل الماجستير أو الدكتوراه والاستماع إلى فكرة يمكن أن يجد فيها الباحث مجالاً للبحث والدرس الموسَّع.

٢ ـ القراءة لموضوع أثناء الدراسة في مرحلة الليسانس أو السنة التمهيدية للماجستير، وأعجب هذا الموضوع الباحث، وقادهُ فكره إلى أنه يحتاج إلى الكثير من التفصيلات.

٣ ـ قراءة الباحث إحدى الإشارات العابرة إلى أحد الموضوعات، واعتقد صلاحيته لأن يكون بحثاً في ضوء تلك الإشارة.

وهناك بعض الشروط التي يجب توافرها في البحث المختار، من بينها ما يأتي:

١ ـ **الجدة**: لا بد أن يكون موضوع البحث جديداً، لم يطرقه أحد من قبل، مع ابتعاده عن الابتذال، حتى تكوّن الفرصة سانحة أمام الباحث للابتكار والإبداع والإتيان بالمفيد النافع. وهناك موضوعات

عالجها باحثون دون أن تكون بالمستوى المطلوب من حيث المنهج والتحليل اللغوي؛ بالإضافة إلى حصول صاحبها على تقدير «جيد» - في الأغلب الأعم - بعد المناقشة، ويرى بعض الأساتذة أنه يمكن إعادة دراستها على أساس أن الموضوع يحتمل ذلك، وإن كنا نفضّل الابتعاد عن مثل تلك الدراسات.

٢ - **الوضوح والدقة**: يجب أن يبتعد الباحث عن اختيار موضوع يكتنفه الغموض، ويحيط به الإبهام، والعكس هو الصحيح؛ إذ يجب أن يكون الموضوع دقيقاً واضحاً. ولا بد من وضوح العنوان ودقته، مع تمثيله الصادق للموضوع والخطة التي صممها الباحث، واتصافه بالصبغة العلمية، والابتعاد عن الأساليب والتراكيب النحوية ذات الإثارة على نحو ما نجد في لغة الصحافة.

٣ - **تحديد الموضوع**: لا بد من تضييق مجال البحث حتى يمكن الإلمام بأطرافه، والوقوف على التفصيلات الخاصة به، والتعمق في أغواره؛ لذلك كلما كان الموضوع ضيقاً ومحدداً صار أكثر صلاحية للبحث والدراسة، ونشير إلى أن اتساع الموضوع وتشعبه فيه الكثير من المخاطر. ومن هنا فإنه يجب على الباحث في بداية مشواره العلمي ألا يتصدى لأحد الموضوعات الكبيرة الشاملة؛ لأن ذلك سيؤدي إلى دخول الباحث في الكثير من الشرح والإسهاب والتطويل والنقل من المصادر، وتكرار البديهيات والمعلومات المعروفة، والبحث العلمي الجيد هو الذي يحتوي على الأفكار والمناقشات والآراء التي يحسن الباحث ترتيبها وتنظيمه واستخلاص النتائج منها، ولا دخل لضخامة البحث وكثرة صفحاته بذلك.

٤ - **مناسبة الموضوع للمرحلة والوقت**: يجب أن يحرص الباحث على اختيار موضوع يناسب المرحلة التي يدرسها؛ لذلك هناك الكثير من الفروق الدقيقة بين البحث الذي بمستوى الماجستير، والبحث الذي

بمستوى الدكتوراه؛ لأن الأول عبارة عن إعداد الباحث لرسالة الدكتوراه التي يشترط في البحث المقدم لها الجدة والأصالة والاستقصاء والوصول إلى نتائج وحقائق، وإن كان هذا لا يعفي الباحث من الابتكار والإبداع في بحث الماجستير، ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى أن الكثيرين من أساتذة اللغة العربية لهم مؤلفات رصينة، وأعمال علمية دقيقة، كان بعضها في الأصل رسالتي الماجستير والدكتوراه.

وتؤدي مناسبة الموضوع للدرجة العلمية المقدم لها إلى إنجازه في الفترة الزمنية التي تحددها لوائح الدراسات العليا، وإن كان بعض الباحثين يضطر - أحياناً - إلى تقديم طلب لمدِّ فترة التسجيل؛ لأن الموضوع الذي اختاره لم يستطع إنجازه في تلك الفترة المحددة.

٥ - الموضوع وميول الباحث: «يستحسن أن يأخذ الطالب ما هو أقرب إلى نفسه ورغبته وتجربته ليدفعه ذلك إلى العمل والتضحية وليشعره بالمتعة وليعينه على الفهم والتفهيم. ولكن هذا لا يمنع أن يقبل موضوعاً لا رغبة له فيه، ولا علم له به سابقاً؛ فقد يحس برهبة إزاء هذا النوع من الموضوعات، ولكنه ما يكاد يبدأ ويسير حتى تولد فيه رغبة كانت كامنة، فيعمل منسجماً، وتزيده لذة الاكتشاف سعياً، واجتهاداً، ومن المناسب أن يتعود المرء ركوب الصعاب في مرحلة التدريب. ولا بأس في أن تحمل نفسك على المكاره لتتعود تذليلها، ولتعد نفسك لشيء يمكن أن يقع عليك يوماً ما؛ بل إن الموضوع السهل أصعب من غيره؛ لأنك في الموضوع السهل لا تحقق شيئاً، وتضيع أنت وموضوعك، أما في الموضوع الصعب فتكسب تجربة ورأياً ومكانة»[1].

(١) الدكتور علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي ص٦٢ وما بعدها.

٦ ـ **وفرة المصادر**: قبل تسجيل الموضوع في الدراسات العليا يجب الاطمئنان إلى وفرة مصادره الأساسية التي يمكن الاعتماد عليها في معالجته ودراسته وتتبع خطوطه العريضة. وربما تؤدي قلة المصادر إلى عدم إتمام البحث، أو يكون البحث معتمداً على الفرضيات والتوسع الإنشائي، أو يلجأ الباحث إلى الإكثار من النقل عن المصادر القليلة المتاحة؛ فيصبح العمل في النهاية عبارة عن تلخيص لما ورد فيها، وهذا يؤدي إلى عدم اكتساب الباحث للخبرة في التعامل مع المصادر، ولا يقدم له الفرصة للتقصي والمراجعة.

٧ ـ **عرض الموضوع على الأستاذ**: حين تذهب إلى الأستاذ الذي اتفقت معه على الإشراف على بحثك يجب أن تكون متمثلًا له تمثلًا صادقاً، ويظهر هذا من حسن تقسيمك له، ومن معرفة بعض خطوطه الأساسية، وفي ذكرك المصادر والمراجع المقترحة، ولا يصح أن تذهب لمقابلة أستاذك بالعنوان وحده؛ لأنه سيناقشك فيه وسيتحدث معك حوله، ومن المهم أن تبدو عارفاً بأسس الموضوع، وبذلك تكتسب ثقته وحسن ظنه بك.

❁ ❁ ❁

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) توقف أمام التأليف، ورأى أنه على سبعة أقسام. قال: «إن التأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي:

١ ـ إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه.

٢ ـ أو شيء ناقص يتممه.

٣ ـ أو شيء مغلق يشرحه.

٤ ـ أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه.

٥ ـ أو شيء متفرق يجمعه.

٦ ـ أو شيء مختلط يرتبه.

٧ ـ أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه.

ثم قال: «وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سُبق إليه أن لا يخلو من خمس فوائد:

١ ـ استنباط شيء كان معضلاً.

٢ ـ أو جمعه إن كان مفرقاً.

٣ ـ أو شرحه إن كان غامضاً.

٤ ـ أو حسن نظم وتأليف.

٥ ـ أو إسقاط حشو وتطويل.

وشرط في التأليف إتمام الغرض الذي وضع الكتاب لأجله من غير زيادة ولا نقص، وهجر اللفظ الغريب وأنواع المجاز.... وزاد المتأخرون اشتراط حسن الترتيب، ووجازة اللفظ، ووضوح الدلالة»[1].

والتأليف عند القدماء هو الذي يحفظ الأدب، وينقل ضروب المعارف بين الأجيال، وقد عبر عن ذلك الجاحظ بقوله: «إن لكل شيء من العلم، ونوع من الحكمة، وصنف من الأدب سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً. ومتى أغفل حملة الأدب، وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار وضم كل جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى أهله ـ

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١/ ٣٥.

بطلت الحكمة وضاع العلم وأميت الأدب ودرس مستور كل نادر. ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر، لبطل أول العلم، وضاع آخره»[1].

وحرصوا على تقييد كل ما يسمعونه؛ لذلك قال بعضهم: كنتُ عند بعض العلماء، فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً، فقال لي: اكتب كل ما تسمع؛ فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض[2].

❃ ❃ ❃

---

(١) الحنين إلى الأوطان: ص٣.

(٢) الجاحظ: الحيوان ١/١٩ وما بعدها.

خطة البحث

خطة البحث عبارة عن بيان الخطوط العريضة التي سيسير عليها الباحث في دراسة موضوعه، وتوضيح الصورة المجملة التي سيكون عليها. أو هي عبارة عن مجموعة من الأشياء العامة لما سيكون عليه البحث في ضوء المعلومات الأولية التي استطاع الباحث التوصل إليها في ضوء قراءاته. ولا بد أن تحتوي الخطة على وصف دقيق للأبواب والفصول، مع إعطاء فكرة عن الموضوع في أولها فيما لا يقل عن صفحة، ويشترط في الخطة احتواؤها على قائمة بالمصادر والمراجع والدوريات ذات الاتصال المباشر بالموضوع.

والخطة هي الأساس الذي سيبنى عليه البحث، وتعد المحك الحقيقي الذي يدل على الرغبة في البحث، والتهيؤ له، والاستعداد لخوض غماره؛ بالإضافة إلى دلالتها على الدراية بالموضوع، والعلم بخطوطه العريضة، وهي أول نشاط علمي للباحث بعد انتهاء السنة التمهيدية للماجستير، أو بعد انتهائه من المقررات التي يجب اجتيازها بنجاح، وهذا يرتبط ببرنامج الدراسة في الجامعة أو المعهد العلمي.

ويجب على الباحث تقديم الخطة إلى الأستاذ الذي اتفق معه على الإشراف على بحثه، وهي ثمرة قراءات مستمرة في المصادر والمراجع التي تتصل بالموضوع اتصالاً مباشراً؛ لذلك يجب على الباحث ألا يتعجل في صياغة الخطة وكتابتها.

والخطة هي الخطوة الأولى في التسجيل لدرجة الماجستير أو

الدكتوراه، ويتم توزيعها مطبوعة، بعد إجازة المشرف لها، على أعضاء مجلس القسم العلمي، والمدرسين المساعدين، والمعيدين، وطلاب الدراسات العليا الذين ينتظرون دورهم في التسجيل، وتتم المناقشة العلنية لتلك الخطة، ويجري الباحث التعديلات عليها بناءً على المناقشة التي دارت داخل القسم، وبعد ذلك يجيز مجلس القسم الخطة، وتقدم إلى شؤون الدراسات العليا في الكلية أو المعهد لاتخاذ الإجراءات الرسمية، إلى أن يتم تسجيل الموضوع باسم الباحث، بعده يبدأ رحلته في دروب العلم والمعرفة.

ومن الأهمية أن يحتفظ الباحث بنسخة من الصورة النهائية للخطة حتى يقدمها لأستاذه المشرف على البحث إذا طلب منه ذلك، وربما يحتفظ الأستاذ بنسخة منها في ملف خاص يعدّه لخطط بحوث الماجستير والدكتوراه التي يشرف عليها. وخطة البحث، في صورتها النهائية، ليست قيداً على الباحث، يحد من حرية التفكير والإبداع لديه؛ لذلك تتعرض الخطة بعد اتصال الباحث بالموضوع بعد عام أو أكثر، إلى الكثير من التعديلات والإضافات، وتلك ظاهرة صحيحة في البحث العلمي.

❁ ❁ ❁

أجزاء البحث

يجب الاهتمام بتنسيق المادة اللغوية وتوزيعها على الأبواب والفصول المناسبة لها، ولا بد من وجود الترابط أو التسلسل المنطقي بين الفصول والأبواب واطراده؛ حتى يبدو البحث كحلقات سلسلة مترابطة.

ويعد توزيع المادة التي جمعها الباحث من المصادر والمراجع والدوريات من أهم الخطوات وأدقه في البحث العلمي، والنجاح في ذلك يؤدي إلى إخراج بحث محكم متناسق.

وهناك بعض المصطلحات التي نسمعها حين تقسيم البحث إلى أجزاء، وتلك المصطلحات هي:

١ ـ المقدمة Preface.

٢ ـ التمهيد Introduction.

٣ ـ الفصل chapter.

٤ ـ الباب Tome.

٥ ـ الخاتمة Conclusion.

٦ ـ الفهرس Index.

٧ ـ الملحق Appendix.

٨ ـ قائمة المصادر والمراجع Bibliography.

ونشير إلى أن تجزئة الموضوع وتقسيمه يساعد في تنسيق المادة التي جهزها الباحث، ويمكنه من توزيع الأفكار التي انبثقت عنها في مكانها المناسب من البحث، وتحقيق الارتباط والتماسك بين الفصول والأبواب؛ بالإضافة إلى المقدمة والتمهيد والخاتمة؛ حتى نجد البحث في النهاية بأجزائه المختلفة وأقسامه المتنوعة عبارة عن كيان حي متكامل يشد بعضه بعضاً، وكل جزء أو قسم فيه يؤدي إلى النتيجة.

ونحاول، في الصفحات التالية، التعريف بالأجزاء أو المصطلحات السابقة.

❁ ❁ ❁

١ ـ مقدمة البحث:

كان القدماء من العلماء العرب يطلقون على المقدمة اسم «خطبة الكتاب»، ويطلق عليها باللغة الإنجليزية مصطلح Perface، وهي واجهة البحث العلمي، وأول ما يطالعه القارئ؛ لذلك لا بد أن تتضمن المعلومات الآتية:

١ ـ تحديد الموضوع الذي تم اختياره، وبيان طبيعته العلمية.

٢ ـ أهمية الموضوع وفائدته وقيمته في مجال التخصص.

٣ ـ الأسباب التي دفعت الباحث إلى اختيار هذا الموضوع دون غيره.

٤ ـ المنهج Method أو المناهج التي سار عليها الباحث في معالجة الموضوع.

٥ ـ عرض الفصول والأبواب التي دار حولها البحث.

هذه هي المعلومات التي يجب على الباحث أن يتحدث عنها في

«المقدمة»، وهناك بعض الأمور الأخرى التي تفيد في كتابة المقدمة، من وجهة نظرنا، وهي على النحو الآتي:

١ ـ لا بأس من توجيه الشكر إلى الأستاذ المشرف على البحث في نهاية المقدمة، وكذلك إلى من ساعدك أو ساعدوك.

٢ ـ يميل بعض الباحثين إلى كتابة «إهداء» في صدر الماجستير أو الدكتوراه، والأفضل ـ من الناحية العلمية ـ الابتعاد عن هذا؛ بل لا تهدِ البحث إلى أستاذك المشرف، والإهداء في العمل العلمي بعد طباعته وتداوله في الأسواق.

٣ ـ يذكر بعض الباحثين في المقدمة الصعوبات التي واجهته مثل صعوبة الموضوع، وندرة المصادر والمراجع، ورحلته بين المكتبات المختلفة، وسفره من بلد إلى آخر، ويتجاوز ذلك ـ أحياناً ـ إلى الحديث عن سهر الليالي من أجل التوصل إلى الحقيقة، أو المعاناة في كتابة فصل من الفصول. والأفضل الابتعاد عن ذكر هذه الأشياء وما يماثلها، والدخول في الموضوع مباشرة، وعلينا أن نعرف أن البحث صبر، ولن نستطيع تحقيق الرغائب إلا بركوب الأهوال.

٤ ـ لا يصح في المقدمة أن يتحدث الباحث عن حبه لعلوم اللغة وشغفه بها منذ فترة طويلة، وكيف قاده هذا الحب إلى التخصص في الأصوات أو النحو أو الدلالة أو غيرها، والأفضل الدخول في الموضوع مباشرة أيضاً. ويقودنا هذا إلى الحديث عن بعض الباحثين الذي يختار شخصية لغوية أو نحوية، ويتحدث في المقدمة عن مكانة تلك الشخصية في نفسه، وسيطرتها على تفكيره، وحبه الشديد لها؛ لذلك اختارها مجالاً للبحث والدرس، فالحب والكراهية لا صلة لهما باختيار إحدى الشخصيات للدراسة العلمية.

٥ ـ يفضل، من وجهة نظرنا، أن تكون المقدمة هي آخر ما يكتبه الباحث، على الرغم من أنها أول ما يطالعه القارئ؛ وذلك حتى

يتكمن من الوصف الدقيق لبحثه، وهذا لا يتيسر له إلا بعد الانتهاء منه تماماً.

٦ ـ من نافلة القول التأكيد على وجوب بدء المقدمة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)؛ لأن «كل عمل لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»، والمقصود بذلك أنه مقطوع البركة. ويميل الكثير من الباحثين إلى تخصيص صفحة قائمة بذاتها، ويكتب عليها آية من آي الذكر الحكيم، وهذا أمر محبب إلى نفوسنا. كما يميل الكثيرون أيضاً إلى الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ في صدر المقدمة، وهذا أمر محبب إلى نفوسنا كذلك.

❋ ❋ ❋

٢ ـ التمهيد:

التمهيد Introduction له عدة أسماء نحو: التوطئة، والمدخل وقد يسميه بعض الباحثين «بين يدي البحث». ولا يحتاج البحث العلمي دائماً إلى التمهيد، وإنما يرتبط هذا بطبيعة الموضوع الذي اختاره الباحث. ونقدم أمثلة للموضوعات التي تحتاج إلى تمهيد، في رأينا، خلال النقاط الآتية:

١ ـ هناك بعض البحوث التي تدور حول أحد أعلام الدراسات اللغوية والنحوية، وربما يساعد العرض للمناخ الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي للعصر الذي عاش فيه هذا العَلَم في فهمه والتعرف على تفكيره اللغوي والنحوي؛ لذلك يمكن الحديث عن العصر بإيجاز، ولا يحاول الباحث أن يجعل من نفسه مؤرخاً.

٢ ـ إذا كان البحث يدور حول إحدى الظواهر النحوية كالحذف ـ مثلاً ـ يمكن للباحث التوقف أمام مفهوم «الجذر المعجمي» Lexical root (ح ذ ف) في اللغة والاصطلاح قبل الدخول في دراسة ظاهرة الحذف وحصر قوانينها في الجملة العربية.

٣ ـ هناك بعض البحوث التي تتخذ من إحدى «النظريات اللغوية» المعاصرة مجالًا للتطبيق في العربية؛ لذلك يمكن للباحث التعريف بالنظرية قبل الدخول في الدراسة التطبيقية؛ فإذا كنت أعد بحثاً عن «بناء الجملة في شعر ابن الرومي في ضوء النظرية التحويلية» يمكن في التمهيد التعريف بـ «النظرية التحويلية» transformational Theory وطريقة التطبيق لها في شعر ابن الرومي للتعرف على أنماط الجملة فيه.

٤ ـ من البحوث التي يمكن إجراؤها تحليل المادة اللغوية في أحد دواوين الشعر العربي؛ لذلك يستطيع الباحث أن يصف الديوان من حيث عدد القصائد، وعدد الأبيات المفردة، وتحقيق الديوان، واسم المحقق، ومكان طباعته، وإن كانت هناك نشرة أخرى فلا بد من ذكرها ووصفها بدقة أيضاً.

٥ ـ اتسعت آفاق البحث في علم اللغة، وتعددت الموضوعات والقضايا والظواهر التي يمكن دراستها في ضوئه، ونشأت الكثير من العلوم اللغوية اعتماداً على مناهج البحث فيه، ومن تلك العلوم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ «علم الحركة الجسمية» Kinesics ويمكن للباحث المعاصر دراسة مادة لغوية في ضوئه نحو «الدلالة اللغوية للحركة الجسمية في الشعر الجاهلي»؛ لذلك يجب على الباحث أن يعقد تمهيدًا يعرضه فيه لعلم الحركة الجسمية، ونشأته، وتطوره، وطريقة الإفادة منه حين التطبيق في الشعر الجاهلي.

ونشير إلى أن طبيعة البحث وموضوعه هي التي تحدد حاجته إلى تمهيد من عدمها، ونشير أيضاً إلى أن عدد صفحات التمهيد لا ينبغي أن تتضخم، ويقترح بعض الأساتذة ألا تزيد على ثلاثين صفحة، ولكن إذا امتدت إلى مائة صفحة أو أكثر يخرج التمهيد عن الهدف، ويصبح بحثاً داخل البحث الأصلي.

❀ ❀ ❀

٣ ـ الفصول والأبواب:

يحتاج تنسيق المادة اللغوية ووضعها في الفصول والأبواب المختلفة إلى التفكير الدقيق المنظم، والتحلي بالكثير من الصبر والأناة؛ حتى تكون تلك المادة في مكانها الصحيح اللائق بها في البحث.

ويحدث ـ أحياناً ـ أن يجد الباحث في المادة العلمية التي جمعها جزءاً لا يجوز أن يسرد في البحث، ولكن يعز عليه الجهد الذي بذله في قراءته وجمعه، وبدلاً منه أن يستغنى عنه فإنه يحاول أن يجد له فصلاً يناسبه في البحث فيضعه فيه، ولكن الفحص الدقيق يظهر ما في هذا الفصل من نشاز وعدم ترابط؛ لذلك يجب على الباحث ألا يضع في الفصل كل ما جمعه، وتذكر دائماً قولهم: «اقرأ الكثير واكتب القليل».

ويمكن تقسيم البحث إلى أبواب، ويحتوي كل باب على عدد من الفصول، أو يمكن تقسيم البحث إلى عدد من الفصول دون وجود أبواب، وهذا كله يخضع لطبيعة الموضوع والمادة العلمية التي جمعها الباحث، وطريقة تنسيقها وتجزئتها.

وهناك بعض الضوابط المتصلة بالفصول والأبواب، يمكن الإشارة إليها في النقاط الآتية:

١ ـ يجب على الباحث أن يوازن بين الفصول والأبواب في عدد الصفحات ولا يصح أن نجد فصلاً يقع في ثلاث صفحات، وآخر يقع في خمس وعشرين صفحة...

٢ ـ لا يصح أن نجد باباً في البحث يحمل العنوان الرئيسي للبحث نفسه، أو فصلاً يحمل عنوان أحد الأبواب.

٣ ـ لا بد من وجود علاقة منطقية بين عنوان الفصل والمادة

العلمية الموجودة داخله، وكذلك بين الباب والفصول التي يضمها، وما فيها من مادة علمية.

٤ ـ الفصل في البحث ليس مكاناً نجمع فيه أكواماً من المعارف اللغوية والقواعد والشواهد النحوية دون تنسيق أو تصنيف دقيق، وإنما هو مكان يعرض فيه الباحث قضية لغوية محددة مع التعليل لها والتأييد بالأدلة والحجج المنطقية والأسانيد القوية والبراهين المقنعة.

٥ ـ لا بد أن تأتي فصول البحث وأبوابه خالية من الحشو والاستطراد والعبارات التي لا تتصل به ولا تخدم أية فكرة من أفكاره، وعلينا أن نعلم أن البحوث اللغوية والنحوية تكاد تقترب في دقتها من البحوث العلمية التي تعتمد على التجارب المعملية لإقامة الأدلة والبراهين واستخلاص النتائج، والبحث اللغوي والنحوي الدقيق هو الذي يصاب بالاضطراب والخلل إذا حذفنا إحدى عباراته أو جمله أو فقراته.

❀ ❀ ❀

٤ ـ الخاتمة:

والخاتمةConclusion عبارة عن إيجاز لمضمون البحث، وحصر لأهم النتائج التي استطاع الباحث التوصل إليها بعد الرحلة الطويلة التي قضاها مع الموضوع قراءة لمصادره ومراجعه، وجمعاً لمادته، وصياغة دقيقة لها في الفصول والأبواب.

ويميل بعض الباحثين حين صياغة الخاتمة إلى تلخيص البحث أو تقديم عرض شامل للقضايا المختلفة التي عالجها في ثناياه، ولكن التلخيص أو العرض الشامل لا يصلحان خاتمة؛ إذ لا بد من الإشارة فيها إلى النتائج الجوهرية التي كانت ثمرة البحث، وتمثل إضافة حقيقية تحسب للباحث.

ويجنح بعض الباحثين إلى حصر أهم النتائج التي استطاع التوصل إليها في نهاية كل فصل، أو نهاية كل باب، فتبدو وكأنها خاتمة مصغرة للفصل أو الباب، ولكن الأفضل جمع تلك النتائج في خاتمة البحث معاً؛ لأن الباحث ربما يذكرها أو يذكر بعضها في الخاتمة الرئيسية أو الأساسية للبحث، وهذا يعد من قبيل التكرار للأفكار.

ويتخذ بعض الباحثين من الخاتمة مجالاً لعرض الأفكار الجديدة، وتقديم المقترحات، وتفجير الموضوعات، وإثارة المشكلات المتصلة بالبحث، ولا بأس عليه في هذا، بشرط أن تكون الأفكار والمقترحات التي يعرضها مؤيدة بالأدلة والبراهين والحجج المنطقية القولية، وأن تكون الموضوعات والمشكلات المثارة لها حلول.

❀ ❀ ❀

٥ ـ الفهرس:

ورد في المعاجم اللغوية: «الفهرس: الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب مرتبة بنظام معين، ولَحَقٌ يوضع في أول الكتاب أو في آخره، يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الموضوعات والأعلام، أو الفصول والأبواب، مرتبة بنظام معين. والفهرست: لفظة فارسية دخلت العربية منذ المراحل الباكرة، والفهرس والفهرست كلاهما جائز، والجمع فهارس».

ولا بد من وجود فهرس تفصيلي للموضوعات التي اشتمل عليها البحث، ويقع هذا الفهرس في نهرين؛ أولهما لاسم الموضوع والآخر لرقم الصفحة الخاصة به.

ويلجأ بعض الباحثين إلى وضع الفهرس في بداية البحث، وقد يطلق عليه بعضهم اسم «المحتويات».

وللفهارس أنواع كثيرة، ولكن ليس شرطاً أن تتوافر تلك الأنواع

في البحوث العلمية؛ لأن هذا يرتبط بطبيعة البحث وموضعه، ومن تلك الفهارس ما يأتي:

١ ـ فهرس الآيات الكريمة.

٢ ـ فهرس الأحاديث الشريفة.

٣ ـ فهرس الأمثال.

٤ ـ فهرس الشواهد الشعرية.

٥ ـ فهرس الأرجاز.

٦ ـ فهرس الأعلام.

٧ ـ فهرس المواضع والبلدان.

٨ ـ فهرس الكتب الواردة في الكتاب.

٩ ـ فهرس المصطلحات الفنية والألفاظ الحضارية.

١٠ ـ فهرس المفردات اللغوية.

ونشير إلى أن تلك الفهارس لا يمكن الاستغناء عنها حين تحقيق أحد كتب التراث وإعداده للنشر.

❀ ❀ ❀

٦ ـ الملحق:

يأتي الملحق Appendix في آخر البحث لأداء وظيفة محددة، ومن أمثلة ذلك أن البحث ربما يشتمل على مجموعة من المصطلحات الإنجليزية المتداولة في علم اللغة؛ لذلك يستطيع الباحث جمع تلك المصطلحات في قائمة على هيئة ملحق مع ترجمتها إلى العربية. وربما يريد الباحث التعريف ببعض الأعلام في الدراسات اللغوية والنحوية فيلجأ إلى جمعها في ملحق مستقل للتعريف بها. وربما يتضمن البحث بعض

الجداول والاستبانات والرسوم والخرائط، وهذا يمكن وضعه في ملحق أيضاً.

والملحق أو الملاحق التي نجدها في نهاية البحث تخضع لطبيعة الموضوع وما يحتاجه من الملاحق؛ لذلك ليس شرطاً أن يحتوي البحث على ملحق أو ملاحق.

* * *

٧ ـ قائمة المصادر والمراجع:

يميل بعض الباحثين إلى تقسيم الأعمال العلمية التي اعتمد عليها في بحثه إلى ما يأتي:

١ ـ المصادر.

٢ ـ المراجع.

٣ ـ الدوريات.

٤ ـ المراجع الأجنبية.

وربما يلجأ الباحث إلى تصنيف المصادر والمراجع حسب قدمها ومعاصرتها وموضوعها كما يأتي:

١ ـ المصادر اللغوية والنحوية.

٢ ـ المعجمات.

٣ ـ دواوين الشعر.

٤ ـ المراجع.

٥ ـ الكتب المترجمة.

٦ ـ الدوريات.

٧ ـ المراجع الأجنبية.

ومهما كان الترتيب الذي اتبعه الباحث والتقسيم الذي ارتضاه فلا بد أن نبدأ بذكر المخطوطات، ومع كل مخطوط مكان وجوده ورقمه؛ وذلك في حالة انتفاع الباحث ببعض المخطوطات.

وهناك بعض المصادر والمراجع التي عالجت موضوع البحث من زوايا مختلفة، وانتفع بها الباحث على وجه العموم، واستطاع في ضوئها تحديد موضوعه؛ لذلك يميل بعض الباحثين إلى ذكر تلك المصادر والمراجع في المقدمة[1].

وحين ترتيب المصادر والمراجع في قائمة يمكن الانتفاع بالملاحظات الآتية:

١ ـ ترتيب المصادر والمراجع حسب أسماء المؤلفين، لا حسب أسماء الكتب، وهذا الترتيب هو المعمول به بين معظم الباحثين في أنحاء العالم كافة.

٢ ـ العلم المسبوق بكلمة «ابن» أو «أب» أو «ال» يوضع في مكانه من الترتيب الهجائي بعد توهم حذفها؛ لذلك:

ابن جنى = في حرف الجيم.

أبو علي الفارسي = في حرف العين.

الكسائي = في حرف الكاف.

٣ ـ إذا كان المؤلف له أكثر من كتاب فإنه يراعى الترتيب الهجائي لها بعد ذكر اسم المؤلف، نحو:

ابن جني:

---

(١) سوف نتوقف أمام المصادر بالدراسة التفصيلية، مع بيان طرق الانتفاع بها، والفرق بين المصدر والمرجع.

- الخصائص.

- سر صناعة الإعراب.

- المحتسب.

٤ - لا بد من إعطاء معلومات وافية عن المصدر أو المرجع من حيث ذكر اسم المؤلف، والعنوان، ومكان النشر، وسنة النشر أو الطبع، وإذا كان الكتاب من كتب التراث المحقق فلا بد من ذكر اسم المحقق، وإذا كان له أكثر من طبعة ينص على الطبعة التي تم الاعتماد عليها، ويفضل أن تكون الأخيرة، نحو:

الدكتور إبراهيم أنيس:

دلالة الألفاظ، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٦م.

٥ - يمكن ذكر اسم العالم القديم كاملًا، وسنة وفاته، وذلك بعد ذكر اسمه الذي عرف به، مع وضع الاسم الكامل، وسنة وفاته بين قوسين، نحو:

ابن الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم ت٣٢٨هـ).

الأضداد، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات وزارة الإعلام، دولة الكويت، ١٩٦٠م.

٦ - يميل بعض الباحثين إلى ترتيب أسماء المحدثين حسب اسم الشهرة أو اللقب الذي عرف به بين أهل التخصص، نحو:

بشر (الدكتور كمال).

الراجحي (الدكتور عبده).

عابدين (الدكتور عبد المجيد).

....

٧ ـ حين الرجوع إلى بحث في إحدى الدوريات والمجلات العلمية ينص على اسمها، والعدد الذي رجعت إليه، وسنة الإصدار، وذلك بعد ذكر اسم المؤلف والمقال، نحو:

الدكتور محمود حجازي:

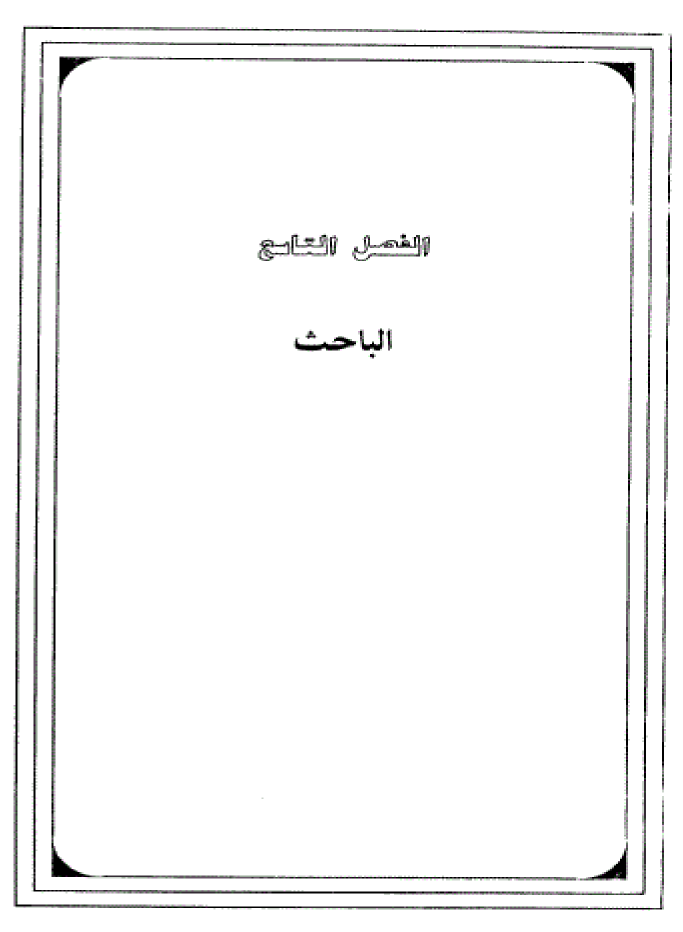
من أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الإثنولوجية، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، دولة الكويت، المجلد الثالث، ١٩٧٢م.

٨ ـ هناك بعض المصادر القديمة التي تم تصويرها دون تعديل أو إضافة، ودون أي هدف سوى الربح المادي الوفير؛ لذلك يجب على الباحث ذكر الطبعة الأصلية، ومن أمثلة ذلك أن الطبعة المعتمدة من كتاب (الخصائص) لابن جنى هي الصادرة عن دار الكتب المصرية بين عامي ٥٢ ـ ١٩٥٦ بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار، وقد صورت إحدى دور النشر البيروتية تلك الطبعة دون ذكر تاريخ النشر أو أي شيء يدل على اختلافها عن الطبعة الأولى؛ لذلك طبعة دار الكتب المصرية هي المعتمدة في هذا المجال.

٩ ـ ترتب المراجع الأجنبية على حسب الاسم الأخير Surname للمؤلف نحو:

Bloomfield, Leonard.
Chonsky, Noam.

❁ ❁ ❁



الفصل التاسع

الباحث



صفات الباحث

هناك بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها الباحث الذي يشرع في إعداد إحدى الرسائل العلمية، وهي مجموعة من الشروط والخصائص والمهارات التي يمكن اكتسابها عن طريق المران والدربة والممارسة، ويضاف إلى ذلك الاستعداد الفطري لدى الباحث الذي يساعده كثيراً في تقديم عمل علمي يفيد منه الذين يأتون بعده من طلاب العلم والمعرفة. وهناك بعض الطلاب الذين حصلوا على أعلى التقديرات في مرحلة الليسانس أو البكالوريوس؛ لأنهم يستطيعون الإحاطة بالمادة العلمية التي تقدم لهم في قاعات الدرس، ويملكون موهبة التحصيل والقدرة على حفظ المقررات، ولكنهم حين يلتحقون بالدراسات العليا يخفقون في إكمال مشوار البحث العلمي؛ لأنهم لا يملكون موهبة الخلق والإبداع التي تمكنهم من البحث والتأليف.

«وموهبة البحث عندما توجد يمكن تنميتها بالمعرفة والمثابرة؛ فكثرة الاطلاع على الأعمال الجيدة، وعمق التفكير فيها وفي خطواتها الفكرية، ثم الاستمرار على محاولات البحث والدراسة، والتعرف على أخطاء المحاولة كما يبرزها الأساتذة والمشرفون والنقاد، والاتجاه لتحاشي هذه الأخطاء في الأعمال الجديدة... كل ذلك ينمي موهبة البحث ويبرز شخصية الباحث».

«ولكن عندما تكون موهبة البحث ضئيلة أو معدومة يكون من الصعب، وربما من الخطأ، السير في طريق البحث؛ فإن الطالب في

هذه الحالة لن يستطيع أن يخلق عملاً علميًا ذا بال، وكثيراً ما نصادف طلاباً يحبون القراءة، ويميلون للجد والاجتهاد، ولكن قدراتهم في عالم البحث ضعيفة أو محدودة، فتكون أعمالهم جسداً لا روح فيه، ومجموعة اقتباسات لم تسيطر عليها عبقرية الدارس، فتبدو كالأشلاء والرقاع، دون جوهر طيب وقوة نفاذة»[1].

ونقدم مجموعة من الصفات التي يجب أن يتمتع بها الباحث، من وجهة نظرنا، وهي على النحو الآتي:

١ ـ لا بد أن يكون الباحث محبًا للاطلاع، يذهب إلى دور الكتب والمكتبات العامة؛ بل إنها المكان الطبيعي لتواجده؛ لأن إمكاناته المادية، مهما بلغت، لن تسعفه في أن يحصل على كل ما يحتاج إليه من الإنتاج العلمي ذي الصلة بموضوع بحثه؛ بالإضافة إلى وجود طبعات قديمة أو نادرة ليست موجودة في الأسواق، أو مراكز بيع الكتب.

٢ ـ الإلمام بالبحوث والدراسات والآراء التي كتبت عن الموضوع الذي تم اختياره، وإذا كانت هناك بعض المخطوطات التي تفيد الباحث في موضوعه فلا بد من الرجوع إليها؛ لأنه من عيوب البحث العلمي وجود رأي أو مقال أو دراسة أو كتاب يتصل بالموضوع، ويفيد في معالجته، ولا يرجع إليه الباحث.

٣ ـ يجب أن يتمتع الباحث بـ «الموضوعية» objectivity ويظهر ذلك في معالجة الدراسة التي اختارها، ويجب أن يبتعد عن «الذاتية» Subjectivity؛ لأن البحث الجيد هو الذي يبتعد صاحبه عن التعصب لموضوعه أو يقف ضده، ويعالج أفكاره ونقاطه الأساسية في ضوء التفكير العلمي المنظم الذي يقوم على العقل، لا على العاطفة والهوى،

---

(١) الدكتور أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة ص١٩ وما بعدها.

وتؤدي الموضوعية في البحث إلى الابتعاد عن إصدار أحكام غير صحيحة، وتجنب الباحث الشطط والزلل.

٤ - يجب أن يتمتع الباحث بالنزاهة والعدالة والأمانة العلمية في نقل الأفكار وعرضها، ونسبتها إلى أصحابها، ولا بد أن يشير إليها في مصادره ومراجعه. كما يجب أن يتمتع الباحث بصفاء الذهن والقدرة على الحوار، وعدم التعصب لرأي على حساب الآخر، وأن يبتعد عن الانفعال والتأثر بالآراء المحيطة به؛ حتى لا يقع فريسة لتعدد الآراء وتضاربها، وأن يحرص على المران والدربة لاكتساب الخبرة التي تؤهله للقيام ببحثه على الوجه الأكمل، ويجب أن يسعى وراء خدمة العلم، مع الابتعاد عن الغرور، والتمتع بالتواضع الجم.

٥ - لا بد أن يتمتع الباحث بالصبر الذي يجعله يشعر بالسعادة حين الجلوس بين المصادر والمراجع والمقالات والبحوث والدوريات؛ لذلك صدق من قال إن «البحث صبر»، ويضاف إلى ذلك بذل الوقت والجهد في سبيل البحث العلمي دون الشعور بالتأفف أو التذمر أو الضجر.

٦ - ربما يكون المرء ملمًّا بقواعد اللغة العربية، عارفاً بأعلام الدراسات اللغوية والنحوية من القدامى والمحدثين، ولكنه ليس قادراً على القيام ببحث منهجي في اللغة؛ لأنه لا يتمتع بالمقدرة على تنظيم أفكاره، وهذا يذكرنا ببعض الباحثين الذي يعرف علمي «العروض والقافية» معرفة جيدة، ولكنه ليس قادراً على نظم بيت واحد من الشعر، ومع ذلك فإن هذا المرء الملم باللغة وقواعدها وأعلامها يمكنه أن يعاشر الكتب، ويحرص على لقاء المتخصصين في الدرس اللغوي، ويتعود على حضور المناقشات وحلقات البحث؛ لأنه ربما يتعلم المنهج خلال ذلك.

٧ - تحري الدقة في نقل النصوص التي تتصل بالبحث، وعدم

التسرع في قراءتها؛ لأن ذلك يؤدي إلى سوء فهمها، والتوصل إلى أحكام خاطئة، ونتائج غير صحيحة؛ بالإضافة إلى الابتعاد عن الاستهانة بآراء بعض الباحثين ومؤلفاتهم؛ لأنها ربما تقدم للباحث قطرة ضوء في طريق عمله العلمي.

٨ ـ «الرغبة، وهي شرط للنجاح في كل عمل، وشرط في البحث، فإذا فرض عليك البحث فرضاً ضقت ذرعاً، وكنت كالمضطهد، ويصعب في هذه الحال أن ينجلي ليلك عن نهار، أما إذا كنت راغباً في أن تبحث، أنست بعملك ولازمتك خلاله نشوة، فبذلت بسبب ذلك الجهد واستهنت بالوقت، ولم يشغلك شاغل، ولا يعني هذا حجة رخيصة يتوسل بها الطالب الذي يؤثر الراحة؛ فقد يحسب امرؤ أنه غير راغب على التوهم، أما إذا بدأ وسار قليلاً فإنه يكتشف حقيقته فيحس بمتعة البحث، ويسير ويسير»[1].

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف في مواضع متفرقة من كتابه (البحث الأدبي)[2] إلى بعض الصفات التي يجب أن يتمتع بها الباحث في الأدب، وهي تفيد في الوقت نفسه الباحث في اللغة والنحو ومن أهم تلك الصفات ما يأتي:

١ ـ التخلص من الخضوع والانقياد لأفكار الباحثين السابقين له نافذاً إلى عالم حر في البحث؛ فهو لا يدون ما دونه السابقون، شأنه شأن آلة التصوير الحديثة، دون أية مناقشة أو محاولة للتحوير والتعديل بل هو يدون أفكارهم، ولكن ليناقشها وليضيف بجانبها أفكاره.

٢ ـ ينبغي ألا يهجم ناشئ على البحث في الأدب (أو اللغة والنحو) قبل أن يتسلح له بقراءات كثيرة فيه، وفي مباحثه؛ حتى يجد نفسه، وحتى تتكون شخصيته تكوناً أولياً.

---

(١) الدكتور علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي ص٤٣.

(٢) البحث الأدبي: صفحات ١٨ و٢٢ و٢٥ و٢٧ و٣٠ على سبيل المثال.

٣ ـ ينبغي أن ينقب الباحث الناشئ عن جانب من جوانب النشاط الأدبي (أو اللغوي والنحوي) لم يُعْنَ به الدارسون من قبل، ويحاول أن يتبينه في أضواء غامرة بحيث ينكشف له من جميع جهاته انكشافاً تامًّا.

٤ ـ لا بد للدارس الناشئ للأدب من ثقافة واسعة بعلوم العربية من النحو والصرف والبلاغة والبيان وبالأخبار والتاريخ؛ لذلك «من الناس من يحسب أن البحث لا يقتضي من العلم إلا ما اتصل بالموضوع مباشرة، وهذا خطأ يجر صاحبه إلى ضيق الأفق، وجفاف المادة، والصحيح أن يكون الباحث ملمًّا بأمور كثيرة، وعارفاً بكل ما يتصل بالمادة من بعيد؛ ليكتسب السعة، وليسير في ثقة، والقراءة الكثيرة لا تعني شيئاً كثيراً ما لم يبق الأساس من المادة في الحافظة، ويبقى معه اسم الكتاب واسم المؤلف وأمور أخرى تتصل بالأعلام والأحداث والسنوات ونصوص الأقوال»[1].

٥ ـ المعرفة بتاريخ الأدب العربي (أو تاريخ النحو العربي وأعلامه ونصوصه ومصادره) معرفة توقف الباحث في وضوح على تطوره وتحوله من زمن إلى زمن؛ بحيث يستقر في وعيه تيار ماضينا الأدبي من مصادر انحداره الأولى إلى الزمن الذي يعمل فيه.

٦ ـ ينبغي أن يستقر في أذهان الباحثين الناشئين أنهم يتعاملون في كلامهم مع علاقات منطقية محكمة؛ فالكلام لا يلقى عفواً، ولا يسرد سرداً بدون إحكام علاقاته المنطقية بما قبله وبما بعده. وكل عبارة في بحث أدبي (أو لغوي ونحوي) ليست مستقلة بنفسها؛ بل هي خاضعة لما قبلها، تتمم معناه ودلالته، وكأنها عضو في جسم البحث العام، يكمل هيئته وصورته.

---

(١) انظر: منهج البحث الأدبي ص٤٤.

٧ ـ من الخطأ الشديد أن يظن باحث ناشئ أن المعارف المرتبطة بموضوع جميعاً متساوية القيمة في الدلالة العلمية؛ فيورد فيه جميع المعارف المتصلة به بدون تفرقة بين معرفة مهمة ومعرفة غير مهمة، والمعارف بطبيعتها تختلف، كما تختلف صلتها بالموضوع ودلالتها الخاصة، ولذلك ينبغي أن يجرى فيها ضرباً من الاختيار والانتخاب؛ فليس كل ما قرأه خليقاً بالتسجيل؛ بل ينبغي أن يأخذ ويدع، وأن يدوِّن ما هو خليق بالتدوين، ويحذف ما هو خليق بالحذف.

٨ ـ ينبغي أن تتوفر في البحث الأدبي (أو اللغوي والنحوي) دقة التفسير، وهي صفة ترجع في حقيقة الأمر إلى ملكة الباحث ومدى قدرته على تبين العلل الكلية للظواهر الأدبية (أو اللغوية والنحوية)؛ إذ ما يزال يدرس العلل والأسباب الفرعية حتى ينتهي في الظاهرة إلى أسباب وعلل عامة، تضم حقائق الظاهرة الجزئية وتفسِّرها تفسيراً دقيقاً.

❁ ❁ ❁

ولعله مما يفيد في الحديث عن صفات الباحث أن نتوقف عند آداب البحث عند القدماء من العلماء العرب.

آداب البحث عند القدماء

من الموضوعات التي اهتم بها العلماء الذين أتوا بأخرة ما يسمى بـ «آداب البحث»، وقد تضمنت تلك الآداب الإشارة إلى القواعد والأسس التي يجب اتباعها في التأليف، وأدب العالم والمتعلم، أو المفيد والمستفيد. ومن الكتب المهمة في هذا المجال (تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم)[1] من تأليف بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن جماعة (ت٧٣٣هـ)، و(المعيد في أدب المفيد والمستفيد)[2] من تأليف عبد الباسط بن موسى بن محمد المعروف بالعلموي (ت٩٨١هـ) وهو اختصار لكتاب من تأليف البدر الغزي (ت٩٨٥) عنوانه (الدر النضيد).

ونبدأ الحديث عن آداب البحث عند القدماء بالتوقف أمام ما يتصل بآداب اللغوي، وهي على النحو الآتي:

١ ـ أول ما يلزمه الإخلاص وتصحيح النية.

٢ ـ التحري في الأخذ عن الثقات مع الدأب والملازمة عليهما.

٣ ـ ليكتبْ كل ما رآه وسمعه؛ فذلك أضبط له.

٤ ـ ليرحل في طلب الغرائب والفوائد كما رحل الأئمة.

٥ ـ ليعتن بحفظ أشعار العرب، مع تفهم ما فيها من المعاني

---

(١) طبع في حيدر آباد، الهند ١٣٥٣هـ.

(٢) طبع في مطبعة الترقي، دمشق ١٣٤٩هـ.

واللطائف؛ فإنَّ فيها حكماً ومواعظ وآداباً يستعان بها على تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف.

٦ ـ إذا سمع من أحد شيئاً فلا بأس أن يتثبت به.

٧ ـ ليترفق بمن يأخذ عنه ولا يكثر فيه، ولا يطول بحيث يضجر.

٨ ـ الرواية والتعليم، ومن آدابهما الإخلاص، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه، والصدق في الرواية والتحري والنصح والاقتصار على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم.

٩ ـ الإفتاء في اللغة، وليقصد التحري والإبانة والإفادة والوقوف عندما يعلم، وليقل فيما لا يعلم «لا أعلم»؛ لذلك يقول العلموي: «تعلم (لا أدري) فإنك إن قلت (لا أدري) علموك حتى تدري، وإن قلت (أدري) سألوك حتى لا تدري»[1].

١٠ ـ أن يمسك عن الرواية إذا كبر ونسي وخاف التخليط.

١١ ـ لا بأس من امتحان من قدم؛ ليعرف محله في العلم، وينزل منزلته، لا لقصد تعجيزه وتنكيسه؛ فإن ذلك حرام[2].

وبعد هذا الحديث عن آداب اللغوي، نحاول التعرف على آداب البحث عند القدماء على وجه العموم، معتمدين في ذلك على ما كتبه ابن جماعة والعلموي اللذين أشرنا إليها من قبل، ويمكن تنظيم تلك الآداب على النحو الآتي:

١ ـ تحصيل الكتب:

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في

---

(١) المعيد: ص٥٧.

(٢) انظر تلك الآداب في (المزهر) للسيوطي ٢/ ٥٧ وما بعدها، و(تاج العروس من جواهر القاموس) للزبيدي ١/ ٢٩ وما بعدها من المقدمة.

العلوم النافعة ما أمكنه، شراءً أو إجارة أو إعارة؛ لأن الكتب هي آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرته حظَّه من العلم ونصيبه من الفهم، وقد أحسن القائل:

إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفعُ

٢ ـ إعارة الكتب:

يستحب إعارة الكتب لما فيها من الإعانة على العلم؛ لذلك قال سفيان الثوري: «من بخل بالعلم ابتلى بإحدى ثلاث: أن ينساه، أو يموت فلا ينتفع به، أو تذهب كتبه». وقال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره. وكتب الشافعي إلى محمد بن الحسن رضي الله عنهما:

قولا لمن لم تر عينا من رآه مثله
ومن كأن من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله
لعله يبذله لأهله لعله

وإذا استعار كتاباً فلا يبطئ به من غير حاجة، وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه، ويصير غاصباً له، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظماً ونثراً، ومن ذلك: «إياك وغلول الكتب، وهو حبسها عن أصحابها» وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها.

٣ ـ ترتيب الكتب:

يجب أن يراعى طالب العلم والمعرفة الأدب في وضع الكتب وترتيبها باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت كتب في فن فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، وليجعل المصحف الكريم

أعلى الكل، ثم كتب الحديث كالبخاري ومسلم، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض وما في معناه، ونحو ذلك.

٤ ـ آداب النسخ:

إذا نسخ شيئاً من كتب العلم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق.

ويبتدئ كل كتاب بكتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وإن كان مصنفه تركها كتابة فليكتبها هو.

وكلما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتعظيم مثل: تعالى، سبحانه، عز وجل، تقدس، تبارك، ويتلفظ بذلك.

وكلما كتب اسم النبي ﷺ كتب بعده الصلاة عليه والسلام، ويصلي هو عليه بلسانه أيضاً، ولا يختصر الصلاة في الكتابة، ولا يسأم من تكريرها، ولو وقعت في السطر مراراً، كما يفعله بعض المحرومين من كتابة صلعم، صلع، صلم، صم، صلسم؛ فإن ذلك مكروه ولا يليق بحقه ﷺ.

وإذا مر بذكر أحد من الأئمة، لا سيما الأعلام وهداة الإسلام، كتب رحمه الله، أو رحمة الله عليه، أو تغمده الله برحمته. ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة، إلا تبعاً لاختصاص ذلك عرفاً وشرعاً بالأنبياء والملائكة عليهم السلام.

٥ ـ صحة الخط وحسنه:

لا يهتم المشتغل بالمبالغة في حسن الخط، وإنما يهتم بصحته وتصحيحه، ويجتنب خلط الحروف التي ينبغي تفرقها، ويبتعد عن المشق، وهو سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف، وقد قال عمر رضي الله عنه: «شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبينه».

ويُراعى من آداب الكتابة ما ورد عن بعض السلف، فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاوية، ألِق الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسّن الله، ومد الرحمان، وجود الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى؛ فإنه أذكر لك».

٦ ـ ما يضاف إلى لفظ الجلالة:

كرهوا في الكتابة فصل مضاف اسم الله تعالى منه؛ كعبد الله، أو عبد الرحمن أو رسول الله؛ فلا يكتب عبد أو رسول آخر السطر، والله أو الرحمن أول السطر الآخر؛ لقبح صورة الكتابة.

٧ ـ المقابلة والضبط والنقط:

على المشتغل بالعلم مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به، وإذا صحح الكتاب بالمقابلة على أصل صحيح أو على شيخ فينبغي أن يعجم المعجم، ويشكل المشكل، ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيف، ويجب التأكد من ضبط الملتبس من الأسماء؛ إذ لا يدخلها قياس، ولا قبلها ولا بعدها شيء يدل عليها.

٨ ـ علامات التصحيح والشك:

ينبغي أن يكتب على ما صححه وضبطه في الكتاب وهو في محل شك عند مطالعته أو تطرق احتمال «صح» صغيرة.

ويكتب فوق ما وقع في التصنيف أو في النسخ وهو خطأ «كذا» صغيرة؛ أي هكذا رأيته.

ويكتب في الحاشية «صوابه كذا» إن كان يتحققه، أو «لعله كذا» إن غلب على ظنه أنه كذلك.

ويكتب على ما أشكل عليه ولم يظهر له وجهه «ضبة»، وهي

صورة رأس صاد مهملة مختصرة من «صح هكذا»: «صـ»؛ فإن صح بعد ذلك وتحققه فيصلها بحاء فتبقى «صح»، وإلا كتب الصواب في الحاشية.

وأشاروا بكتابة الصاد أولًا إلى أن الصحة لم تكمل، وإلى تنبيه الناظر فيه على أنه متثبت في نقله غير غافل؛ فلا يظن أنه غلط فيصلحه.

٩ ـ الاختصارات والرموز:

لا بد من معرفة الاختصارات والرموز التي تدور في كتب الأدب والحديث والتاريخ والفلك، نحو:

نا، ثنا، دنا	=	حدثنا
أنا، أرنا، أبنا	=	أخبرنا
ثنى، دثنى	=	حدثني
ا. هـ	=	انتهى
بط	=	باطل
المصـ	=	المصنف

وهناك بعض الاختصارات الخاصة برجال الفقه والحديث، ومن أهمها ما يأتي:

خ	=	البخاري
ت	=	الترمذي
ن	=	النسائي
حب	=	ابن حبان
م	=	الإمام مالك.
ش	=	الإمام الشافعي.
ح	=	الإمام أبو حنيفة
أ	=	الإمام أحمد بن حنبل

م	=	مسلم
د	=	أبو داود
جه، ق	=	ابن ماجه القزويني
ط	=	الدارقطني

وقد لجأ بعض أصحاب المعجمات إلى نسبة الاختصارات أو الرموز، ومن أولئك الفيروزأبادي في (القاموس المحيط) وهي:

ع	=	موضع
ة	=	قرية
م	=	معروف
د	=	بلد
ج	=	جمع

هذه هي بعض آداب البحث عند القدماء، ويمكن أن نضيف إليها ما حرص عليه القدماء من الدقة في النقل والأمانة في نسبة الأفكار إلى أصحابها؛ ففي مقدمة (معجم البلدان) يقول لنا ياقوت: إنه كان ينقل عن المصادر بكل دقة وأمانة، وسواء أكان المنقول حقًّا أم باطلًا فإن الصدق في إيراده، كما يقول ياقوت، له أهميته في البحث العلمي عند العلماء؛ لأنه ييسّر للطالب اطلاعه على آراء أهل الخبرة في ذلك العلم[1].

وإذا كان المحدثون يقولون: إن الذين يدّعون معرفة كل شيء، ويحاولون تعليل كل شيء، يظلون جاهلين أشياء كثيرة، ولو كانوا - أقل غرورًا لوجدوا من يعلمهم إياها عن قدرة ورغبة - إذا كان المحدثون يقولون ذلك فإن القدماء نبهوا على أهمية قول العالم أو المتعلم «لا أدري» إذا سئل ولم يكن يعرف الإجابة، ولا تضع تلك

(١) روزنتال: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص١٢١.

العبارة من قدره؛ بل إنها دليل عظيم على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه وكمال معرفته.

ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر الجزازات التي كانوا يدونون عليها الملاحظات التي كانت تلقى عليهم في الدرس، أو ينسخون فيها المقتبسات عن الكتب التي كانوا يقرأونها، وكانت تصبح فيما بعد المادة الأولية في تأليفهم؛ لذلك يرى ابن جماعة أن طلاب العلم الذين تقدموا في طلب المعرفة ينبغي لهم أن يدونوا في حلقة الأستاذ ملاحظاتهم والفوائد التي يرون أنه يجب تدوينها على جزازات[1].



(١) السابق: ص٢٤.

علامات الترقيم

عرف القدماء من المؤلفين العرب بعض العلامات حين الكتابة، ومن ذلك أن ناسخ الأحاديث الشريفة كان يلجأ إلى وضع دائرة مجوفة بين كل حديثين، وهي بمثابة علامة على الفصل بينهما. قال العلموي: «وينبغي أن يفصل بين كل كلامين أو حديثين بدائرة، أو قلم غليظ، ولا يصل الكتابة كلها على طريقة واحدة، لما فيه من عسر استخراج المقصود، ورجحوا الدائرة على غيرها، وعليها عمل غالب المحدثين وصورتها هكذا: ٢»[١].

ونشير إلى أن «علامات الترقيم» punctuation بصورتها الحالية لم تكن معروفة لدى القدماء من العلماء العرب، وقبل الدخول في بيان المقصود بتلك العلامات وطريقة استخدامها حين الكتابة في اللغة العربية، نقدم جدولًا يحتوي على اسم كل علامة وصورتها، وهو كما يأتي:

مسلسل	اسم العلامة	صورتها
١	الفصلة	،
٢	الفصلة المنقوطة	؛
٣	النقطة (الوقفة)	.
٤	النقطتان	:
٥	علامة الاستفهام	؟
٦	علامة التأثر	!
٧	القوسان	( )
٨	علامة التنصيص	« »
٩	الشرطة (الوصلة)	-
١٠	علامة الحذف	...

---

(١) المعيد: ص١٣٠، والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: ص١٥١.

نأتي، بعد ذلك، إلى التعريف بالترقيم.

يعرف الترقيم بأنه وضع علامات بين أجزاء الكلام المكتوب، وقد دلت المشاهدة، وعززها الاختبار على أن السامع والقارئ ويكونان على الدوام في أشد الاحتياج إلى نبرات خاصة في الصوت، أو رموز مرقومة في الكتابة يحصل بها تسهيل الفهم والإدراك، عند سماع الكلام أو قراءة المكتوب.

ولقد شعرت الأمم التي سبقت في ميادين الحضارة بهذه الحاجة الماسة فتواضع علماؤها على علامات مخصوصة لفصل الجمل وتقسيمها، حتى يستعين القارئ بها ـ عند النظر إليها ـ على تنويع الصوت بما يناسب كل مقام من مقامات الفصل والوصل أو الابتداء إلى ما هنالك من المواضع الأخرى التي يجب فيها تمييز القول بما يناسبه من تعجب أو استفهام أو نحو ذلك من الأساليب التي تقتضيها طبيعة المقال.

ولا بد من الالتزام باستخدام تلك العلامات في كتابة البحوث والرسائل الجامعية لدورها المهم في فهم المعنى بدقة، ووضوح العبارة، وصحة الفهم. ونحاول التعرف على مواضع استعمال تلك العلامات[1].

---

(١) نستعين في معالجة موضوع علامات الترقيم بما يأتي.
ـ الترقيم وعلاماته في اللغة العربية لأحمد زكي طبعة ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م.
ـ حروف التاج وعلامات الترقيم ومواضع استعمالها، رسالة صدرت عن وزارة المعارف العمومية آنذاك وبها قرارات الوزارة في ١٩٣٠/٧/٢٦ وطبعت سنة ١٩٣١.
ـ الإملاء والترقيم في الكتابة العربية لعبد العليم إبراهيم.
ـ مناهج تحقيق التراث للدكتور رمضان عبد التواب.

الفصلة:

وتسمى أيضاً «الفاصلة»[1] وتستعمل لفصل بعض أجزاء الكلام عن بعض؛ لذلك توضع بين الجمل أو أجزائها المتصلة المعنى، ويقف القارئ عندها قليلًا، وتوضع في المواضع الآتية:

١ - بين الجمل التي يتركب من مجموعها كلام تام في معنى معين، نحو: يذهب الطالب إلى الكلية، ويحضر المحاضرات بانتظام، ويحرص على الذهاب إلى المكتبة في الفراغ بين المحاضرات.

٢ - بين الجملتين المرتبطتين في المعنى والإعراب، نحو: خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولم يطل فيمل.

٣ - بين أنواع الشيء وأقسامه، نحو: التقديرات الجامعية هي: ممتاز، وجيد جدًّا، وجيد، ومقبول، وضعيف، وضعيف جدًّا.

الوظائف الجامعية هي: معيد، ومدرس مساعد، ومدرس، وأستاذ مساعد، وأستاذ.

الشعراء عند القدماء: جاهلي، ومخضرم، وإسلامي، ومولَّد.

٤ - بين الكلمات المفردة المتصلة بكلمات أخرى تجعلها شبيهة بالجمل في طولها، نحو: يجب على كل فرد أن يخلص في عمله: الأستاذ في كليته، والمدرس في مدرسته، والفلاح في حقله، والعامل في مصنعه.

ونحو: محمد رجل فاضل، لا يخذلُ صديقاً، ولا ينكثُ عهداً، ويبرُّ أهلَه وإخوانه.

٥ - بعد لفظ المنادى نحو: يا خالدُ، اجتهد في دروسك.

٦ - بين الشرط والجزاء، وبين القسم والجواب إذا طالت جملة الشرط أو القسم، مثل:

---

(١) أطلق عليها شيخ العروبة أحمد زكي اسم «الشولة» ومعناها في اللغة: ما ترفع العقرب من ذنبها، وهذا الاسم غير معروف في البلدان العربية.

إذا كنت في مصر ولم تك ساكناً على نيلها الجاري، فما أنت في مصر

٧ ـ يجوز وضع الفاصلة بعد الحرف لمنع اللبس، نحو: سألته إن كان يريد مساعدة، فقال: لا، أكرمك الله.

ويمكن وضع واو بعد «لا» لأمن اللبس، ويروي أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ مر برجلٍ معه ثوب، فقال له: أتبيعُه؟ فقال له الرجل: لا، رحمك الله، فقال له أبو بكر: يا هذا، هلا قلت: لا، ورحمك الله.

الفصلة المنقوطة:

وتوضع بين الجمل، ويقف القارئ عندها وقفة أطول من تلك التي تكون مع الفصلة، ومواضعها على النحو الآتي:

١ ـ أن توضع بين جملتين تكون الثانية منهما مسببة عن الأولى، نحو: نجح محمد وحصل على أعلى التقديرات؛ لأنه لم يتهاون في حضور المحاضرات.

٢ ـ أن تكون بين جملتين الثانية منهما سبب في الأولى، نحو: مصطفى يبذل جهداً كبيراً في عمله؛ فلا غرابة أن يحظى بإعجاب رئيسه.

٣ ـ أن توضع بين جمل طويلة، يتكون من مجموعها كلام مفيد؛ لذلك يكون الغرض من الفصلة المنقوطة إمكان التنفس بين الجمل، وتجنب الخلط بينها بسبب تباعدها، نحو: إن الناس لا ينظرون إلى الزمن الذي عمل فيه العمل؛ وإنما ينظرون إلى مقدار جودته وإتقانه.

ونشير إلى أن الفصلة المنقوطة يأتي، عادة، بعدها ألفاظ مثل: لأن، ذلك أن، من أجل أن، حيث إن.

النقطة (الوقفة):

وتكون في نهاية الجملة التي تم معناها، واستوفت كل مقوماتها اللفظية، نحو: الساكت عن الحق شيطان أخرس. ونحو: من توانى عن نفسه ضاع، ومن حاول قهر الحقّ قهر.

النقطتان:

وتفيدان في التوضيح والتبيين لما بعدهما وتمييزه مما قبله، واستعمالهما في المواضع الآتية:

١ ـ توضعان بعد لفظ القول والكلام المقول، أو ما يشبههما في المعنى، نحو: دخل سعيد بن مرة على معاوية، فقال له: أأنت سعيد؟ فقال: أنا ابن مرة، وأمير المؤمنين السعيد.

وقال النبي ﷺ للعباس: «أنت أكبر مني»، فقال العباس: أنا أسن، ورسول الله أكبر.

ومما يشبه القول في المعنى: «من الحكم المأثورة: لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد».

٢ ـ توضعان بين الشيء وأنواعه، أو أقسامه، نحو: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

وكذلك: «الخط الهندسي ثلاثة أنواع: مستقيم، ومنكسر، ومنحنٍ».

وكذلك: «اثنان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال».

٣ ـ توضعان قبل الكلام الذي يوضح السابق عليه، نحو: «الاستيقاظ مبكراً له فوائده: ينشّط العقل، ويوسّع في الأرزاق، ويعود بالخير على المجتمع».

٤ ـ توضعان قبل الأمثلة التي توضح قاعدة من القواعد، نحو:

يُجْزَمُ الفعل المضارع المعتل الآخر بحذف حرف العلة، مثل: لم يسع خالد في الشر، ولم يدع إلا إلى الخير، ولم يرمِ أحداً بسوء».

٥ - توضعان بعد العناوين الفرعية التي توضع في أول السطر، ويبدأ الحديث عنها في السطور التالية.

٦ - توضعان بعد كلمة مثل، أو فيما يلي، أو كالآتي، وما شابه ذلك.

علامة الاستفهام:

وتوضع في نهاية أسلوب الاستفهام، نحو: هل جاء خالد؟ أين المحاضرةُ؟ متى السفرُ؟

وتوضع أيضاً مع الاستفهام المقدر، نحو: كتابك هذا؟

علامة التأثر:

وتوضع في نهاية الجملة التي يعبر بها عن التعجب أو الفرح أو الحزن أو الدعاء أو الدهشة كما في الأمثلة الآتية:

ما أجمل السماء!
يا بشراي!
وا أسفاه!
ويل للظالم!
النار النار!

ويطلب عليها أيضاً «علامة الانفعال» أو «علامة التعجب».

القوسان:

١ - يوضع بنيهما الألفاظ المفسِّرة لما قبلها، وتلك الألفاظ ليست من أركان الكلام الأساسية، نحو:

- الجمل الاعتراضية التي يراد بها الدعاء مثل: كان عمر بن

الخطاب (رضي الله عنه) مثال الخليفة العادل. والقاهرة (حرسها الله) أكبر مدينة في إفريقية[1].

- عبارات التفسير التي تستعمل مع الكلمات الصعبة أو الغريبة مثل: وعرف من الحُمس (وهم المتشددون في الدين) في الجاهلية قريش وكنانة. وتستعمل مع تفسير بعض العبارات نحو: خامس الراشدين (عمر بن عبد العزيز) من خلفاء الدولة الأموية.

- ألفاظ الاحتراس، نحو: اللغوي (بضم اللام المشددة) أساس عمله دراسة اللغة.

٢ - توضع بينهما سنوات الميلاد أو الوفاة، نحو: سيبويه (ت١٨٠هـ) صاحب أول كتاب في النحو.

٣ - توضع بينهما أسماء الكتب، كأن تقول مثلاً: يعد كتاب (الخصائص) لابن جني (ت٣٩٢هـ) موسوعة لا يستغنى عنها المشتغلون بالدراسات اللغوية والنحوية.

علامة التنصيص:

وقد أطلق العلامة أحمد زكي على تلك العلامة اسم «التضبيب»، وهو من اصطلاحات علماء الحديث، ومعناه عندهم وضع الحديث الشريف بين علامتين تشبهان الضبة، لكي يتميز عما عداه من الكلام، وتوضع بين تلك العلامة ما ينقل بنصه دون تغيير. ويطلق عليها - أحياناً - اسم «علامة الاقتباس».

الشرطة أو الوصلة:

١ - توضع بين العدد والمعدود إذا وقعا عنواناً في أول السطر مثل:

---

(١) يمكن استعمال الشرطتين مع الجمل الاعتراضية، نحو: الأحنف بن قيس - رحمه الله - من حكماء العرب، والإمام علي - كرم الله وجهه - رابع الخلفاء الراشدين.

أولًا ـ أو ١ ـ

ثانياً ـ أو ٢ ـ

ثالثاً ـ أو ٣ ـ

٢ ـ توضع قبل الركن الثاني من الجملة، إذا طال الركن الأول بواسطة الفصل بينهما بالوصف أو العطف أو الإضافة أو غير ذلك، نحو: الطالب الذي يستيقظ من نومه مبكراً، ويستذكر دروسه بجد ونشاط، ويذهب إلى الكلية في المواعيد المحددة ـ يحظى بإعجاب أساتذته وزملائه.

٣ ـ في أول السطر في المحاورة بين اثنين، إذا استغنى الكاتب عن ذكر اسميهما، مثل:

قال معاوية لعمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟

ـ ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه.

ـ أما أنا فما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه.

٤ ـ قبل الجملة الاعتراضية وبعدها، مثل:

يجب أن تكون الألفاظ ـ كما يقول علماء البلاغة ـ على قدر المعاني.

نحن ـ العرب ـ أقرى الناس للضيف.

علامة الحذف:

وتوضع مكان ما حذف من الكلام للدلالة على هذا الحذف، وهي تفيد في التأليف العلمي؛ إذ إن بعض الباحثين ربما يريد أن ينقل نصًا، ولكن ليس كاملًا، عن طريق إسقاط بعض الجمل داخل هذا النص؛ لذلك يلجأ إلى وضع نقط أفقية، أقلها ثلاث نقاط، مكان الكلام المحذوف.

وتفيد تلك العلامة حين إسقاط ما يستقبح ذكره من الكلام،

نحو: سمعتُ رجلين يتشاتمان ويتبادلان أقسى أنواع السباب، فيقول أحدهما: . . . . ، ويقول الآخر: . . .

❀ ❀ ❀

بقي أن نشير إلى نوعين من «علامات الترقيم» هما:

١ ـ الأقواس العزيزية:

وهي تستعمل لحصر آي الذكر الحكيم، نحو قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢ ـ القوسان المعقوفان:

وهما قوسان تحصران ما زاد على النص الأصلي، وتحصر الزيادات اللازمة لإقامة النص، وليست في مخطوطاته، أو أية زيادة قد يدخلها الباحث في جملة اقتبسها، ورسمهما [ ].

❀ ❀ ❀

الفصل العاشر

مصادر البحث اللغوي ومراجعه



مصادر البحث

يجب على الباحث أن يهتم بقراءة المصادر والمراجع الأساسية ذات الاتصال المباشر بالموضوع الذي يبحثه، وتدوين المعلومات التي تعرض له، و تطرأ على ذهنه في بطاقات مستقلة.

ويطلق على البطاقة اسم «الجزازة» أو «الجذاذة»، والجمع جزازات، وهي «الكارت» Card بالإنجليزية، و «الفيشة» Fiche بالفرنسية، وهي ورقة مستطيلة الشكل بحجم ١٠ x ١٤ سم، وقد تزيد أو تقل، من النوع السميك، مخططة أو غير مخططة، تباع جاهزة في المكتبات، أو يمكن للباحث أن يصنعها بنفسه، ويفضل أن يكون حجم البطاقات واحداً، مما يحقق النظام والدقة واليسر في الرجوع إليها وترتيبها.

ومن المفيد أن يحتفظ الباحث بالبطاقات طيلة حياته، ولا يلجأ إلى التخلص منها بعد انتهاء بحث الماجستير أو الدكتوراه؛ لأن تلك البطاقات ثروة علمية يمكن أن ينتفع بها في بحوثه المقبلة. وهناك الكثيرون من الباحثين الذين استطاعوا التوصل إلى بعض الموضوعات التي تصلح للدراسة، ويوجد جزء من المادة العلمية الخاصة بها في تلك البطاقات. وعلينا ألا ننسى أن طلاب العلم والمعرفة يكونون أكثر نشاطاً في جمع المادة، وفي قراءة أكبر قدر من المصادر والمراجع، وفي الرجوع إلى الدوريات والبحوث والمقالات في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، ويؤدي هذا إلى جمع مادة علمية وفيرة قد يكون بعضها بعيداً عن موضوع بحثه.

المصدر والمرجع:

مصادر البحث منها ما هو أصيل، ومنها ما هو فرعي ثانوي؛ لذلك إن كان الباحث يريد - مثلًا - التعرف على التفكير اللغوي عند الفراء، فإن كتاب (معاني القرآن) الذي ألفه هذا العالم الجليل هو أكثر المصادر أصالة حين التعرف على تفكيره اللغوي؛ لذلك ترتبط الأصالة بما كتبه المؤلف بيده، أو ما أملاه وأجاز روايته عنه، ويضاف إلى ذلك قدم المصدر. أما الكتب التي أخذت نصوصاً من (معاني القرآن) وشرحتها وعلقت عليها فهي «مراجع»، ولها دور مهم في فهم النصوص والتوصل في ضوئها إلى بعض الظواهر اللغوية والنحوية.

وتؤدي طبيعة الموضوع وصلة المصدر الزمنية به إلى وصفه بالأصالة، ومن أمثلة ذلك أن محاولة التعرف على تاريخ علم اللغة في الوطن العربي، وأثره في اتجاهات البحث العلمي للغة، وأشهر مصطلحاته وترجمتها إلى العربية ورواده من الغربيين - تجعل من كتابات الأساتذة المعاصرين مصادر أصيلة؛ لأن «علم اللغة» صغير السن حديث الميلاد.

وتعد المصادر المتأخرة، عن المصادر الأصيلة، من المصادر الثانوية، ومن أمثلة ذلك أننا حين نريد التعرف على تراجم أشهر اللغويين والنحاة في القرنين الثاني والثالث للهجرة لا بد من الاعتماد على كتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي (ت٣٤١هـ) وكتاب (طبقات النحويين واللغويين) لأبي محمد بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت٣٧٩هـ). أما كتاب (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) فيعد من المصادر الثانوية؛ لأن مؤلفه جلال الدين السيوطي توفي سنة ٩١١هـ؛ لذلك تعد الكتب القديمة التي يأخذ منها الباحث المادة اللغوية التي يجري عليها دراسته «مصادر»Sources، أما «المراجع» Refernces

فهي الأعمال العلمية التي وضعها المحدثون، وتشمل كذلك الدراسات المتأخرة التي تدور حول موضوع قديم للدلالة على قلة قيمتها العلمية مقارنة بالمصدر.

ويرى بعض المحدثين من الذين درسوا المصادر الأدبية واللغوية أن المصدر هو الكتاب الذي تناول أحد الموضوعات بالدراسة العميقة والبحث الشامل، دون أن يترك شاردة ولا واردة إلا عرض لها؛ حتى يجد فيه المادة الأصيلة التي يحتاج إليها، نحو (الكتاب) لسيبويه، و(معاني القرآن) للفراء، و(المقتضب) للمبرد، و(الخصائص) لابن جني؛ فهي أصول ومصادر في اللغة والنحو؛ لذلك يحتوي المصدر على المادة الأصيلة.

أما المرجع فهو الكتاب الذي رجع فيه صاحبه إلى المادة في مصدرها وأفاد منها، أوهو الكتاب الذي يساعد في فهم النصوص اللغوية التي تعود إلى المراحل الباكرة وتوضيحها وتقويمها وتفسيرها حتى يمكن الإفادة منها[1].

ويمتاز التراث اللغوي والعلمي والفكري والأدبي الذي خلفه الأوائل من العلماء المسلمين بالضخامة في العدد، والتنوع في الحجم، ابتداء من الرسائل اللغوية الصغيرة التي تدور حول الخيل والمطر والإبل والنبات والشجر وسواها، إلى الموسوعات الضخمة في اللغة والأدب والنحووالبلاغة وغيرها. ويعود السبب في ضخامة التراث الذي وصل إلينا إلى حب المسلين وشغفهم بالكتب من حيث الاقتناء والتأليف؛ بالإضافة إلى كثرة المشتغلين بالعلم والمعرفة؛ لذلك يقول أحد مؤرخي الحضارة: «إن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة

(١) انظر: دراسة في مصادر الأدب للدكتور الطاهر أحمد مكي، والمصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي للدكتور عز الدين إسماعيل.

في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة»[1].

استخدام القدماء للمصادر:

عرف العرب الذين عاشوا في مراكز التحضر المختلفة في العصر الجاهلي الكتابة، وكانت قلة من الذين قطنوا البادية تقرأ وتكتب، وكانوا يكتبون على الحجارة والعظم والخشب والأديم والعسيب والقماش الأشياء التي تنظم حيواتهم الاجتماعية والاقتصادية كالأحلاف والمواثيق والعهود والصكوك، وكانت بعض القبائل تسجل الشعر الذي يوضح مآثرها ومفاخرها ومكانتها بين القبائل الأخرى، وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول، وما مُدح وأهل بيته به[2].

ولكن الكتابة لم تكن منتشرة بصورة واسعة حتى يمكن تسجيل كل المعارف، ومظاهر الحياة، والشعر، والنثر في العصر الجاهلي؛ لذلك نشطت حركة الرواية، وأصبحت الذاكرة وقوة الحافظة الأساس في اختزان المعلومات واستدعائها عن الضرورة؛ حتى إن بعض الباحثين يكاد ينفي تدوين العرب شيئاً قبل ظهور الإسلام. يقول الدكتور عمر الدقاق: «لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة؛ فقد غلبت عليهم البداوة، واستغرق حياتهم التنقل، ففشت فيهم الأمية، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري؛ حتى إن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها، حيث توجد الأحجار والصخور، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوباً وصحارى

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ص٤٥.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص٢٢ وما بعدها.

لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض التي عاشوا فيها أحقاباً مديدة»[1].

ولقد ظلت الرواية الشفوية مسيطرة على أسلوب التأليف أجيالاً متعاقبة، ولم تتخلَّ عن دورها بعد انتشار التدوين واستقراره، وبقيت المصدر الأول الذي يعتمد عليه في التلقي عن العلماء، ولا بد أن يستمع التلميذ إلى أستاذه ويروى عنه.

وظهرت الحاجة ماسة إلى التدوين في إبان الدعوة الإسلامية، ودوِّن القرآن الكريم كله تفاريق في البداية على يد طائفة من الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ عُرفت باسم «كتَّاب الوحي»، وكان زيد بن ثابت أكثرهم كتابة لكثرة ملازمته للرسول ﷺ. أما الحديث النبوي فقد ظلت الرواية الشفوية هي الأساس في نقله، وقد استشار الصحابةُ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في أمر كتابة الحديث النبوي، وأشار عليه عامتهم بذلك، ولبث شهراً يستخير الله فيما يصنع، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال للصحابة: «إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة الحديث ما قد علمتم، ثم تذكرت، فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني ـ واللَّهِ ـ لا ألبس كتاب الله بشيء». وظلت الرواية الشفوية الأساس في نقل الحديث النبوي أكثر من مائة عام حتى تصدى جماعة لتدوينه وعلى رأسهم ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة.

وقد اتسعت حركة التدوين منذ العصر الأموي في الحديث والتفسير والمغازي والسير والأمثال والفقه والتشريع واللغة والشعر، ولكن ما زالت الرواية والنقل الشفوي هو الغالب عليها جميعاً؛

---

(١) مصادر التراث العربي: ص٢٤.

لصعوبة الحصول على أدوات الكتابة، ويعد أوائل العصر العباسي الذي بلغت فيه الدولة الإسلامية القمة في التفكير والثراء البداية الحقيقية لتدوين المعارف المختلفة، بعد أن عرف العرب في هذا العصر صناعة الورق الصيني؛ إذ كان الصينيون في العصر القديم هم أول من مهر في ابتداع الورق وإتقان صناعته، وقد أنشأ أول مصنع له في بغداد لعهد الرشيد، وأدى هذا إلى انتشاره بعد أن رخص ثمنه، وأصبح في متناول يد الكثيرين.

وتعد الرواية الشفوية أو المصادر الحية الأساس الذي قام عليه التأليف اللغوي عند القدماء؛ لأن أي نص لغوي، أو رأي ينسب إلى أحد العلماء، أو خبر ورد عن أحد اللغويين لا بد أن تجد رواته ومن سمعوه من شهود العيان مذكورين مع النص أو الرأي أو الخبر؛ لذلك نجد الرواية تحظى بعناية القدماء واهتمامهم وظهر ذلك في شدة التحري في السماع، ودقة الضبط للألفاظ التي ينقلونها، وللغة التي يسجلونها، وللأشعار التي يأخذونها عن القبائل المختلفة؛ بالإضافة إلى الحرص على التلمذة على الأساتذة النابهين، وكلنا يعرف تلك الصحبة العلمية الطيبة التي كانت بين الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، وتلك التي كانت بين أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني، ولذلك حمل التلامذة ـ بصفة عامة ـ فكر أساتذتهم وعلمهم ومحصولهم اللغوي والنحوي، وصاروا يُذكرون بهذا العلم على مر العصور، ونحن جميعاً نعرف المكانة الرفيعة التي يحتلها سيبويه وابن جني وسواهما في تاريخ التفكير اللغوي عند العرب.

وهذا الاهتمام بنسبة الخبر أو الرواية أو النص إلى المصدر يدل على تنبه العرب منذ المراحل الباكرة إلى فكرة المصادر؛ بل تجاوزوا ذلك إلى نسبة الألفاظ المفردة إلى الرواة الذين أخذوها عن الأعراب في مواطنهم بالبادية، وتحدثوا عن هؤلاء الرواة وجامعي اللغة من

حيث الثقة فيما رووه أو الطعن فيه. وقد تكوّن في اللغة والأدب طبقات مثل تلك الموجودة عند المحدثين، وتحدث السيوطي عن الحافظ في اللغة ووظائفه، وجعل «الإملاء» على رأس تلك الوظائف، كما أن الحافظ من أهل الحديث أعظم وظائفه الإملاء، وقد أملى حفّاظ اللغة من المتقدمين الكثير، وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين، يكتب المستملي أول القائمة: مجلس أملاه شيخنا فلانٌ، بجامع كذا، في يوم كذا، ويذكر التاريخ، ثم يورد المملي بإسناده كلاماً من العرب والفصحاء، فيه غريب يحتاج إلى التفسير، ثم يفسر، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد، مما يختاره، وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً، ثم ماتت الحفاظ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد، واستمر إملاء الحديث. وأشار السيوطي إلى أن آخر مَنْ علمه أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي الذي توفّى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وله الكثير من الأمالي في مجلد ضخم. ولكن ما ذكره السيوطي من اختتامه لطبقة اللغويين بالزجاجي يحتاج إلى توجيه؛ فهناك«الأمالي» لأبي علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ، و«الأمالي» للمرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ.

وقد اهتم الأوائل من روّاد الدراسات اللغوية والنحوية بذكر المصادر التي اعتمدوا عليها، ويأتي على رأسها مؤلفات السابقين عليهم، ونحاول التعرف على طريقة أولئك في ذكر المصادر، متخذين من العلماء الذين اهتموا بصناعة «المعجمات اللغوية» مثالاً لذلك.

من المعجمات المهمة في تاريخ التفكير اللغوي عند العرب (تهذيب اللغة) لمؤلفه أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠هـ)، ولكن هذا المعجم لم يحظ بالشهرة الواسعة بين الدارسين

والباحثين مثلما حدث مع (لسان العرب) لابن منظور؛ لصعوبة الترتيب الذي سار عليه الأزهري في جمع ألفاظ اللغة وحصرها وترتيبها.

صرح الأزهري في مقدمته بالذين اعتمد عليهم في جمع ألفاظ اللغة قائلًا: «وكنت منذ تعاطيتُ هذا الفن في حداثتي إلى أن بلغت السبعين مولعاً بالبحث عن المعاني والاستقصاء فيها، وأخذها من مظانها، وإحكام الكتب التي تأتّى لي سماعها من أهل الثبت والأمانة للأئمة المشهّرين، وأهل العربية المعروفين»؛ لذلك عقد الأزهري باباً عنوانه: «ذكر الأئمة الذين اعتمادي عليهم فيما جمعت في هذا الكتاب»[1].

وقد بدأ بأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، وقال عنه الأزهري: «أخذ عنه البصريون والكوفيون من الأئمة الذي صنفوا الكتب في اللغات، وعلم القرآن والقراءات، وكان من أعلم الناس بألفاظ العرب ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم وسائر أمثالهم». وذكر - بعد ذلك - خلفاً الأحمر (١٨٠هـ) الذي قالوا عنه إنه معلّم الأصمعي وأهل الكوفة، وبعده المفضل بن محمد الضبي الكوفي (ت١٧٨هـ) الذي غلب عليه رواية الشعر، وحفظ الغريب. وهؤلاء العلماء الثلاثة يشكلون الطبقة الأولى من الذين اعتمد عليهم الأزهري.

ويبدأ الأزهري في الحديث عن «الطبقة الثانية»، وقدم لها بقوله: «ومن الطبقة الذين خلفوا هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم، وأخذوا عن هؤلاء الذين تقدموهم خاصة، وعن العرب عامة، وعُرفوا بالصدق في الرواية، والمعرفة الثاقبة، وحفظ الشعر، وأيام العرب...». ويبدأ بأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت٢١٥هـ) الذي قال عنه: «سمع من أبي عمرو بن العلاء القراءات وجمعها،

(١) تهذيب اللغة: ١/٨.

ورواها عنه أبو حاتم الرازي وغيره، وهو كثير الرواية عن الأعراب، وقرأ دواوين الشعراء على المفضل بن محمد الضبي، وجالس الدُّقيش الأعرابي، ويونس النحوي، وأبا خيرة العدوي، والغالب عليه النوادر، والغريب، وله فضل معرفة بمقاييس النحو، وعلم القرآن وإعرابه...». ويذكر، بعد ذلك، أبا عمرو الشيباني (ت٢١٣هـ). وأبا عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ) وأبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٠هـ).

وافتتح الأزهري حديثه عن «الطبقة الثالثة» بأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) الذي قال عنه: «وكان ديِّناً فاضلاً عالماً أديباً فقهياً صاحب سُنة، معنياً بعلم القرآن وسنة رسول الله ﷺ، والبحث عن تفسير الغريب والمعنى المُشْكِل». ومن علماء تلك الطبقة أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (ت٢٣٠هـ).

وبعد أن ينتهي من حديثه عن تلك الطبقة، يتوقف أمام طبقة أخرى من العلماء الذين أدركهم في عصره، وعلى رأسهم أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج النحوي (ت٣١١هـ) وأبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري النحوي (ت٣٢٨هـ) وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الملقب بنفطويه (ت٣٢٣هـ). ثم يقول: «ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صح لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي، اللهم إلا حروفاً وجدتها لابن دريد والليث بن المظفر في كتابيهما[1]، فبينتُ شكي فيها وارتيابي بها، وستراها في مواقعها من الكتاب ووقوفي فيها».

---

(١) يقصد بالكتابين (الجمهرة) لابن دريد، و(كتاب العين) الذي حدث خلاف بين العلماء حول نسبته؛ فقال بعضهم: إنه من تأليف الليث، ومنهم الأزهري.

وقد وقع الأزهري في أسر القرامطة، وأتاح له ذلك أخذ اللغة عن الأعراب، وشافه الكثيرين منهم، وهذا المصدر يُعرف في الدراسات اللغوية المعاصرة باسم Informant؛ أي الراوي أو الرواية أو المصدر البشري.

ومن العلماء الذين وقفوا حياتهم على صناعة المعجمات علي بن إسماعيل المشهور بابن سيده (٣٩٨ ـ ٤٥٨هـ) الذي اهتم بذكر المصادر التي اعتمد عليها في التأليف؛ فقد نص في مقدمة معجمه (المحكم والمحيط الأعظم) على الكتب التي رجع إليها فقال: «وأما ما ضمناه كتابنا هذا من كتب اللغة فمصنف أبي عبيد (يقصد الغريب المصنف أول معجم موضوعي وصل إلينا) والإصلاح (يقصد إصلاح المنطق لابن السكيت) والألفاظ (لابن السكيت أيضاً) والجمهرة وتفاسير القرآن، وشروح الحديث، والكتاب الموسوم بالعين ما صح لدينا منه وأخذناه بالوثيقة عنه...»، ويستمر ابن سيده في ذكر المؤلفات والعلماء الذين اعتمد عليهم.

ومن المعجمات التي وضعها ابن سيده أيضاً (المخصص) الذي يعد أشمل معجم موضوعي وصل إلينا، وقد طبع في سبعة عشر جزءاً، واعتمد فيه ابن سيده على المصادر اللغوية والنحوية المهمة في تاريخ التفكير اللغوي عند العرب.

ومن المعجمات التي لا يستغنى عنها المشتغلون بالدراسات اللغوية والنحوية (لسان العرب) الذي يحتل مكانة فريدة متميزة في تاريخ التفكير المعجمي عند العرب، وهو من تأليف محمد بن مكرم المشهور بابن منظور المصري الإفريقي المتوفى بالقاهرة سنة ٧١١ للهجرة. وقد اعتمد في تأليفه على خمسة مصادر أساسية هي:

١ ـ تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ).

٢ ـ تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري من

علماء القرن الرابع الهجري، توفي بنيسابور في حدود سنة ٤٠٠ للهجرة.

٣ ـ المحكم لابن سيده (ت٤٥٨هـ).

٤ ـ حواشي ابن برّي أو أماليه على صحاح الجوهري، ومؤلفها أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش برّيّ بن عبد الجبار بن برّي المولود بمصر سنة ٤٩٩ للهجرة، والمتوفى بها سنة ٥٨٢ للهجرة.

٥ ـ النهاية في غريب الحديث لمؤلفه أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ).

وبعد هذه المحاولة للتعرف على طريقة بعض المعجمات في جمع المادة والمصادر التي اعتمدت عليها، نشير إلى أن معظم المصادر الأدبية واللغوية التي احتلت مكانة فريدة ومتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي حرصت في مقدماتها على ذكر مصادرها؛ لذلك يمكن للباحث المعاصر اختيار أحد المصادر المهمة في مكتبة التراث العربي للتعرف على الكتب التي اعتمد عليها ومصادره والعلماء الذين رجع إليهم وغير ذلك.

الباحث المعاصر والمصادر:

تمتاز مكتبة الدراسات اللغوية التي خلفها القدماء من العلماء العرب بالثراء والتنوع، ابتداء من الرسائل اللغوية الصغيرة التي تدور حول الخيل والمطر والإبل وسواها إلى الموسوعات في مختلف فروع اللغة مثل (الكتاب) لسيبويه و(معاني القرآن) للفراء و(الخصائص) لابن جني و(لسان العرب) لابن منظور و(الأشباه والنظائر) للسيوطي وغيرها وبذل المحدثون من المشتغلين بالدراسات اللغوية والنحوية جهوداً ضخمة في سبيل وَصْل القديم بالحديث، وظهر ذلك في تلك

المؤلفات التي حاول فيها أساتذتنا وباحثونا ربط الكثير من الظواهر في العربية بمناهج البحث في علم اللغة المعاصر، وبرز ذلك في أعمال الجيل الأول من رواد الدرس اللغوي على نحو ما نجد في مؤلفات إبراهيم أنيس ومحمود السعران وتمام حسان وكمال بشر وغيرهم؛ بالإضافة إلى جهود بعض العلماء الذين حاولوا إعادة تصنيف النحو العربي وشرحه بطريقة علمية وافية على نحوما نجد في موسوعة عباس حسن (النحو الوافي).

ويجب على الباحث في بداية اتصاله بالدراسات اللغوية وتخصصه فيها للحصول على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه أن يحاول تكوين مكتبة خاصة به، تضم المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها، وتعد من المعالم الرئيسية في حياة التفكير اللغوي عند القدماء؛ فاقتناء المصادر أمر واجب.

وهناك مجموعة من الأشياء التي يمكن أن ينتفع بها الباحث حين اتصاله بالمصادر والمراجع، نقدمها خلال النقاط الآتية:

١ ـ احتفظ في الدفتر الخاص بك بأرقام الكتب التي استعرتها من المكتبة؛ حتى يسهل الرجوع إليها عند الحاجة.

٢ ـ لا بد من تدوين المعلومات الخاصة بكل مصدر في البطاقة الخاصة به، أو في الدفتر الذي جعلته وقفاً لذلك، وتشمل تلك المعلومات اسم المؤلف كاملًا، وتاريخ وفاته، واسم المصدر، واسم المطبعة، ومكان الطبع، وسنة الطبع، ودار النشر، واسم المحقق إن كان الكتاب محققاً، وعدد الأجزاء.

٣ ـ المصدر الذي له عدة طبعات، وتولّى تحقيقه أكثر من محقق، يحسن الأخذ بأفضلها في التحقيق، وأدقها في إخراج النص الأصلي للكتاب، ويمكن استشارتك لأحد الأساتذة لتعريفك بالطبعة الأفضل، والتحقيق الأكثر دقة.

٤ - تفيد المصادر المتأخرة في التعريف ببعض المصادر المفقودة، ومن ذلك كتاب (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) للسيوطي (ت٩١١هـ) الذي احتفظ فيه بالكثير من النصوص اللغوية المأخوذة من كتب مفقودة؛ لذلك يحسن الرجوع إليه للتعريف بها، أو للتعرف عليها.

٥ - هناك بعض العلوم التي يحتاج الباحث إلى الاستعانة بها في دراسته، وهذا تابع من طبيعة الموضوع الذي اختاره؛ فالباحث في «علم الأصوات» يستعين بالمعامل الأصواتية وعلم التشريح؛ لذلك لا يجب الاقتصار حين معالجة الموضوع على المادة التي جمعها؛ لأنها في النهاية محدودة، ولن تكتسب الدراسة صفة الإحاطة والشمول.

٦ - يجب تنوع المصادر التي يرجع إليها الباحث حسب طبيعة الموضوع أيضاً، ومن أمثلة ذلك أن يعرض للباحث اسم بقعة، ويريد التعريف بها، وهذا يحتم عليه الرجوع إلى «معاجم البلدان»، أو يعرض له أحد الشواهد الخاصة بالبلاغة العربية، ويريد التعليق عليه، وهذا يحتم عليه مطالعة أحد المصادر البلاغية مثل (دلائل الإعجاز) أو (أسرار البلاغة) للإمام عبد القاهر الجرجاني، أويعرض له بيت من الشعر لأحد الشعراء، وهذا يتطلب منه الرجوع إلى ديوان الشاعر لتوثيقه... وهكذا.

٧ - كل فكرة تعرض للباحث، أو تطرأ على ذهنه، أو يقرؤها في أي عمل آخر، عليه أن يضعها في بطاقة مستقلة؛ لأنه إذا لم يسجلها ربما ينساها، أو لا يتذكر المصدر الذي قرأها فيه.

٨ - يجب على الباحث استعمال العناوين التوضيحية التي تساعد في الكشف عن المعلومات الواردة في البطاقة؛ حتى يسهل تصنيفها بعد ذلك حسب الفصول والأبواب.

٩ - هناك عدة طرق لاقتباس النصوص من المصادر والمراجع المختلفة، ومن تلك الطرق ما يلي:

- النقل الكامل للنص دون تغيير.

- تلخيص فكرة في كتاب تقع في عدة صفحات؛ لذلك يقول الباحث في الهامش «راجع» أو «انظر»، وبعدها المرجع أو المصدر.

- حين إضافة تعليقات تخص الباحث داخل النص يجب وضعها بين قوسين (   ).

١٠ - المصدر المتقدم يلغي المصدر المتأخر؛ فالفكرة الموجودة في (الخصائص) لابن جني لا يجوز نقلها من (المزهر) للسيوطي إذا ذكرها هو الآخر، والفكرة الموجودة في (معاني القرآن) للفراء لا يجوز نقلها من (الكشاف) للزمخشري... وهكذا.

١١ - إذا كنت تحتاج إلى نص مذكور في كتاب (المقتضب) للمبرد - مثلاً - لا يجوز الرجوع إلى كتب أحد المحدثين لنقل النص؛ أي لا يجوز الرجوع إلى مصدر وسيط في تلك الحالة؛ خاصة إذا كان المصدر الأصلي موجوداً.

١٢ - تدوين المصادر التي يتكرر ذكرها في الهوامش يكون عن طريق استعمال عبارة: المصدر نفسه، أو نفسه، أو السابق؛ بشرط عدم وجود مصدر آخر بينهما تم الاقتباس منه.

١٣ - تُدوَّن النصوص أو الاقتباسات على عرض البطاقة، وعلى وجه واحد فقط؛ لأن الباحث إذا كتب على وجهي البطاقة ربما نسي ما هو مكتوب على أحدهما.

١٤ - يجب أن تكون قائمة المراجع الأجنبية معبرة عن الكتب التي رجع إليها الباحث تعبيراً صادقاً، ولا تحتوي على مراجع وهمية لا يعرفها أو لم يرها على الإطلاق؛ لذلك لا يجوز أن يسجل الباحث

في تلك القائمة مراجع عن اللغة الفرنسية، وهو لا يعرف تلك اللغة أساساً، وكل ما في الأمر أنه اعتمد على كتاب وسيط في نقل النص عن المرجع المؤلَّف بتلك اللغة. وإذا كان الباحث في حاجة إلى هذا النص وما يماثله فينص على اسم الكتاب الذي اعتمد عليه في نقل الترجمة، دون أن ينسب ذلك إلى نفسه.

١٥ - حين الرجوع إلى بعض المخطوطات لابد من إعطاء معلومات كافية عن كل مخطوط رجع إليه الباحث، مع إفراد قسم خاص بها في قائمة المصادر والمراجع، ويحسن الابتداء بالمخطوطات في تلك القائمة.

المصدر البشري (الراوي):

هناك بعض البحوث التي تدور حول «اللغة المنطوقة»، وأكثر ما تكون اللغة مأخوذة من اللهجات العامية المعاصرة؛ لذلك يلجأ الباحث إلى اتخاذ ما يسمى بالراوي أو المصدر البشري Informant ويسجل لهجته ويحللها بعد ذلك، وقبل أن نقدم نموذجاً من تلك البحوث وطرق إجرائها نحاول التعرف على الشروط التي يجب توفرها في الراوي البشري خلال النقاط الآتية:

١ - أن يكون من الأشخاص الذين يمثلون لهجة Dialect البلدة التي يعيشون فيها تمثيلاً صادقاً صحيحاً، ونستطيع التعرف على ذلك حين يكون من صميم أبناء تلك البلدة.

٢ - يحدث - أحياناً - أن يكون الشخص قد ترك بلدته إلى بلدة أخرى؛ لذلك حين يعود إليها لا يصلح لاتخاذه رواية أو مصدراً بشريًا؛ لأنه تعرض للمؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى التأثير في لهجته من حيث استعمال ألفاظ أو تراكيب غير موجودة في لهجته الأصلية؛ بالإضافة إلى التأثير في النطق أو الأداء الصوتي.

٣ ـ أن يكون الأداء اللغوي الخاص بالراوي البشري فطريًا في كل شيء، بعيداً عن المواربة والخداع، منعزلًا عن التأنق في التعبير، مجيباً عن الأسئلة التي توجّه إليه بإخلاص.

٤ ـ أن يكون الراوي البشري سليم مخارج الأصوات، غير مصاب بعيوب النطق وأمراض الكلام.

٥ ـ لا بد أن يكون قادراً على الفهم، وحسن التعبير عن نفسه. ومن الباحثين الذين درسوا العامية في بداية مشوارهم العلمي الدكتور تمام حسان أحد رواد الدرس اللغوي الحديث، وله دراستان هما:

١ ـ لهجة الكرنك مركز أبي طشت مديرية قنا، وقد اتخذ الدكتور تمام حسان من نفسه مساعداً لنفسه؛ لأن تلك لهجته الخاصة، وكان طالب البحث، وكانت تلك رسالة ماجستير.

٢ ـ أصوات لهجة عدن وتشكيلها الصوتي، وكانت تلك رسالة الدكتوراه وقد أشار الدكتور تمام حسان إلى الإجراءات الخاصة برسالته للدكتوراه قائلًا: «فلما سجّلت رسالتي للدكتوراه في دراسة أصوات لهجة عدن وتشكيلها الصوتي، حدث أن اتخذت مساعداً لي عدنيًا، كان يدرس القانون في لندن.

وقد كان أول عملي معه أن أستمليه بعض القصص والحكايات باللهجة العدنية، وأن أسجّل بعض ذلك على أسطوانات في معهد الأصوات بمعهد اللغات الشرقية في لندن».

«وكنت إذا تم التسجيل أدرت هذه الأسطوانات جملة جملة، وربما كررت إدارة الأسطوانة للجملة الواحدة عشرين إلى ثلاثين مرة أو أكثر، حتى أحصل منها على الأثر الصوتي المرضي، فأسجله بكتابة أصواتية مضبوطة محددة الرموز، ويتم ذلك عادة بحضور المساعد؛ حتى يصحح لسمعي ما قد تدغمه الأسطوانة حين سماعها؛ فإذا

وجدت كلمة غامضة في سماعها من الأسطوانة طلبت إلى المساعد أن يكررها؛ فلا يزال يكررها حتى أطلب إليه أن يكف، ثم أدير هذه الكلمة بخصوصها على الأسطوانة، وأقارن بين السماعين حتى يتضح ما في الأسطوانة لأذني. ومع أن لهجة عدن ولهجتي الخاصة بينهما وضوح متبادل؛ لأنهما كما يعلم القارئ ينتميان إلى لغة واحدة هي اللغة العربية، لم يكن من السهل عليَّ في بعض الحالات أن أحدد مفاصل الكلمات، فأعلم أين تبدأ الكلمة وأين تنتهي؛ ذلك لأن تحديد الكلمات في أية لهجة غير معتادة بالنسبة للباحث إنما يقوم على أسس معقدة أصواتية وتشكيلية وصرفية ونحوية»[١].

ولعل النص السابق يوضح الطريقة التي يتم بها جمع المادة حين دراسة إحدى اللهجات، وتحديد المنطقة التي سيدرسها الباحث، والتحليل اللغوي للهجة عن طرق النظر إليها في ضوء أصواتها المفردة وكيفية خروجها من الحلق، ونطقها، والتشكيل الصوتي للكلمات، وهذا يستوجب من الباحث الاستعانة بالمعامل الأصواتية، ولا بد أن يتعرف على بناء الجملة في اللهجة، ومعاني الكلمات؛ وذلك إذا تناول اللهجة في ضوء المستويات اللغوية كافة.



(١) مناهج البحث في اللغة: ص٦٨ وما بعدها.

الباحث ومراجع علم اللغة

لا يستطيع الباحث الاستغناء عن الاتصال بالدراسات اللغوية المعاصرة للأسباب الآتية:

١ ـ تمد الدراسات اللغوية الباحث بالكثير من المناهج الدقيقة التي تفيد في عملية التحليل اللغوي في جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ومن أهم تلك المناهج المقارن والتاريخي والوصفي والتحويلي والتقابلي.

٢ ـ فتحت الدراسات اللغوية الكثير من الموضوعات التي يمكن بحثها في العربية، انطلاقاً من الانتفاع بما في تلك الدراسات، وتكفي الإشارة إلى ما أحدثته النظرية التحويلية من تأثيرات في الدرس اللغوي في الجامعات العربية، وقد ظهر ذلك في إعادة دراسة عدة موضوعات في العربية في ضوء تلك النظرية كالحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والأصل والفرع، والبنية العميقة والبنية السطحية وسواها.

٣ ـ يؤدي الاتصال بالدراسات اللغوية المعاصرة إلى التعرف على أصالة التفكير اللغوي عند العرب القدماء؛ لأنهم عالجوا الكثير من الموضوعات التي تتفق مع أحدث النظريات في البحث والدرس والتحليل؛ ولذلك توصلت بعض البحوث إلى أن كتاب سيبويه ـ مثلاً ـ به تحليلات ومعالجات لغوية يمكن دراساتها في ضوء المناهج التي أشرنا إليها؛ بل إن هناك مقارنات عقدها الباحثون بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي.

ويستطيع الباحث الاتصال بالدراسات اللغوية الحديثة خلال عدة طرق، وهي:

١ ـ قراءة تلك الدراسات في لغتها الأصلية كالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وإن كان المؤلفات المكتوبة بالإنجليزية هي الأكثر غزارة وشهرة وتداولًا، ويلجأ بعض الباحثين إلى ترجمة تلك المؤلفات إلى الفرنسية والألمانية وسواهما.

٢ ـ قراءة تلك الدراسات مترجمة إلى العربية، وهناك أعمال كثيرة قام بعض الباحثين بنقلها إلى العربية؛ لأنها تحتوي على المعلومات الأساسية التي تفيد في الدرس اللغوي.

٣ ـ قراءة أعمال الأساتذة التي اتخذوا من مناهج البحث في علم اللغة مجالًا للتطبيق في العربية.

ونشير إلى أن الطريق الأول في الاتصال بالدراسات اللغوية هو أدقها وأكثرها إفادة للباحث؛ لذلك من نافلة القول التأكيد على وجوب معرفة الباحث المعاصر بإحدى اللغات الأجنبية التي تفيده في مجال عمله.

والذي دفعنا إلى التأكيد على أهمية اتصال الباحث بالدراسات اللغوية في مراجعها الأساسية التخبط الذي سيطر على ترجمات بعض المراجع من الإنجليزية والفرنسية، ونقدم مثالًا واحداً للدلالة على ذلك، وهو «ترجمة دروس دي سوسير إلى العربية». إن المحاضرات التي ألقاها اللغوي السويسري فردينانددي سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣م). Ferdinand de Saussure في جامعة جنيف Geneva ونشرها بعض تلاميذه بعد وفاته بثلاث سنوات؛ أي سنة ١٩١٦ تحت عنوان Cours de le linguistique générale ـ قد نالت اهتمام المشتغلين بالدرس اللغوي في أنحاء العالم كافة، وظهر ذلك في ترجمتها إلى عدة لغات كما يأتي:

١ - ترجمت إلى اليابانية ١٩٢٨.
٢ - ترجمت إلى الألمانية ١٩٣١.
٣ - ترجمت إلى الروسية ١٩٣٣.
٤ - ترجمت إلى الإسبانية ١٩٤٥.
٥ - ترجمت إلى الإنجليزية ١٩٥٩.
٦ - ترجمت إلى الإيطالية ١٩٦٧.

ونشير إلى أن تلك المحاضرات ألقاها دي سوسير في ثلاثة فصول دراسية فيما بين سنتي ١٩٠٦ و١٩١١، وقد أذاعها في الناس اثنان من تلاميذه هما شارل بالي Ch. Bally وألبار سيشهاي Alb Sechehaye اللذان أشارا إلى أنهما لما عادا إلى مذكرات دي سوسير لم يجدا شيئاً من هذه الدروس؛ لأن الرجل كان يرتجل، ثم يتلف ما كان يستعين به من جذاذات، ولم يبق لهما من وثيقة يعولان عليها إلا ما قيده طلبته.

فجمعا تقييداتهم، وقابلا بينها، وحققاها، وتوفرت عندهما مادة تلك الدروس، إلا أنها كانت غير قابلة للنشر على صورتها تلك لغلبة طابع الارتجال عليها، وبعد أخذ ورد قرّ قرارهما على أن يقدما انطلاقاً من الدرس الثالث، وبالاعتماد على كل ما توفر بين أيديهما من موادّ، بما في ذلك المذكرات الخاصة، صياغة جديدة لفكر معلمهم، وخلاصة تأليفية له، وهي كما يقولون خلق جديد له.

ولكنهما لم يوفقا دائماً في فهم فكر معلّمهم، وفي إعادة صياغته، وقد انعكس ذلك على متن الكتاب، فكان فيه بعض التردد في المصطلح، ولم يخلُ أحياناً من الغموض والتناقض[1].

(١) انظر مراجعة الأستاذ عز الدين مجدوب في حوليات الجامعة التونسية العدد (٢٦) لمحاضرات سوسير.

وحين نُقلت محاضرات دي سوسير إلى العربية عن الفرنسية، أو عن ترجمة الترجمة؛ أي الإنجليزية، وجدنا لها خمسة عناوين لخمس ترجمات هي:

١ ـ دروس في الألسنية العامة.

وهي ترجمة عن الفرنسية قام بها محمد الشاوش، ومحمد عجينة، برعاية الأستاذ صالح القرمادي. الناشر: الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٥.

٢ ـ محاضرات في الألسنية العامة.

وهي ترجمة عن الفرنسية قام بها يوسف غازي، ومجيد النصر. الناشر: دار نعمان للثقافة، لبنان ١٩٨٤.

٣ ـ علم اللغة العام.

وهي عن الترجمة الإنجليزية، قام بها أحمد نعيم الكراعين. الناشر: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥.

٤ ـ علم اللغة العام.

وهي عن الترجمة الإنجليزية، قام بها يوئيل يوسف عزيز. الناشر: دار آفاق عربية، العراق ١٩٨٥.

٥ ـ محاضرات في علم اللسان العام.

وهي ترجمة عن الفرنسية قام بها عبد القادر قنيني، ومراجعة أحمد حبيبي. الناشر: دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٧.

ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين الباحثين حول ترجمة الكلمة الأولى من العنوان Cours؛ فهي دروس، أو محاضرات، أو فصول، ولكن ترجمتها إلى «دروس» هي الصحيحة؛ لأن التلميذين اللذين جمعا المادة العلمية المنشورة كانا يعنيان دلالة كلمة «الدروس» تماماً.

ونشير إلى أن ترجمة Cours إلى «فصول» ليس لها أي مبرر؛ بالإضافة إلى أن الترجمة الرابعة التي اختار لها صاحبها عنوان «علم اللغة العام» أدت إلى إقصاء الفكرة الجوهرية التي قام على أساسها الكتاب.

نأتي، بعد ذلك، إلى ترجمة مصطلح linguistique الفرنسي، أو linguistics الإنجليزي؛ فهو الألسنية، أو علم اللسان، أو علم اللغة وسيظل الاختلاف في ترجمة هذا المصطلح بين الباحثين قائماً.

وإذا كان المترجمون قد اختلفوا حين صياغة عنوان الكتاب، فإنهم اختلفوا أيضاً في كتابة اسم دي سوسير على النحو الآتي:

١ - فرديناں دي سوسير.

٢ - فرديناں دي سوسر.

٣ - فرديناند دي سوسير.

٤ - فرديناں دي سوسور.

٥ - فرداناند دي سوسير.

أما السبب الثاوي خلف هذا الارتباك في الخط والكتابة فهو السلم المرجعي الذي يستند إليه كل مجتهد في رسم الحروف؛ فهو عند البعض المحاكاة الصوتية للاسم كما ينطق في لغته الأصلية الفرنسية.

وهو عند البعض الآخر المحاكاة الصوتية للاسم كما ينطق به أهل الإنجليزية التي نقل عنها بعض المترجمين ما ترجموا.

وهو عند البعض الثالث المحاكاة الخطية للاسم كما يكتب في لغته الفرنسية ذات النزوات الإملائية بين حروف تنطق ولا أثر لها في الخط، وحروف كثيرة ترسم ولا أثر لها في الأداء الصوتي.

وهو عند البعض الباقي مزيج وأخلاط[1].

ونشير إلى أنه من الأفضل أن يعتمد الباحثون على الأصل الفرنسي، أو الترجمة الإنجليزية التي قام Wade Baskin؛ لأن الترجمات الخمس السابقة لقيت انتقادات كثيرة من المشتغلين بالدراسات اللغوية، ويأتي على رأس تلك الانتقادات لجوء بعض المترجمين إلى ما أطلقوا عليه عبارة «الترجمة الحرفية»، ومن أولئك أحمد نعيم الكراعين صاحب الترجمة الصادرة تحت عنوان «فصول في علم اللغة العام» الذي قال: «أخذت فكرة الترجمة تراودني، ولكنني وجل من الإقدام على ترجمة كتاب يعد من أهم مصادر علم اللغة الحديث في العالم الغربي، على الأقل، ولا أجيد الفرنسية؛ فعملي سيكون ترجمة الترجمة، وسيكون في ذلك تحريف كبير وابتعاد عن الأصل. وهذه مسألة منهجية فيها خطر ومغامرة علمية».

ثم قال: «أما عملي في الترجمة فقد حاولت أن أكون دقيقاً، أو بمعنى أدق (حرفيًا)؛ لأني كنت دائماً أضع أمامي فكرة ترجمة الترجمة. وتصرفي في النص سيبعده عن الأصل ثلاث خطوات. الخطوة الأولى المبادرة الشجاعة التي قام بها شارل بالي وزميله في تجميع أفكار دي سوسير وإعادة صياغتها، ثم ما قام به المترجم الإنجليزي، ثم محاولتي هذه وقد عانيت الكثير أثناء ترجمته؛ لأن المترجم الإنجليزي أطال في جمله الإنجليزية بشكل كبير حتى يستطيع الوصول إلى المعنى الذي عبَّرتْ عنه الفرنسية، وقد أجاد وتصرف حتى يكون واضحاً، ولكنني لم أحاول التصرف، وحاولت المحافظة على الحرفية مع ما يسببه من ارتباك في صورة النص من ناحية الصورة التركيبية للغة العربية. ولكنه مع هذا العيب الواضح أقرب إلى الأصل

(١) الدكتور عبد السلام المسدي: ما وراء اللغة ص٢٥ وما بعدها.

من وجهة نظري مما لو حاولت التصرف فيه، فسيكون الكتاب فهمي لترجمة فصول دي سوسير، وليس كتاب دي سوسير».

ونجد الترجمة الحرفية أيضاً في الطبعة اللبنانية التي قام بها يوسف غازي ومجيد النصر.

ومن عيوب الترجمة الحرفية أنها تؤدي إلى صعوبة فهم المعنى، وعدم الدقة في الصيغة؛ لأن من يلتزم بتلك الترجمة في نقل النصوص يلجأ إلى رصّ الكلمات والعبارات والجمل دون الربط بينها؛ بالإضافة إلى عدم وجود صياغة عربية سليمة تحقق الفائدة المرجوة.

وقد حرص بالي وسيشهاي على وضع مقدمة للدروس في خمس صفحات حين صدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩١٦، وظلا حريصين على ذلك في الطبعات التالية؛ لأن تلك المقدمة تساعد في فهم تاريخ الكتاب ومعرفة واقعه التاريخي.

ولكن بعض الترجمات لم تهتم بتلك المقدمة، وأسقطتها تماماً حين نقل الكتاب إلى العربية، ونقصد بذلك الترجمة اللبنانية والترجمة المغربية.

ونشير إلى أن الاهتمام بنقل دروس دي سوسير إلى العربية بعد زهاء السبعين سنة، وقد ظهرت خمس ترجمات في الفترة من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٧، بعضُها يجهل بعضاً، وبعضها تجاهل بعضها، وهذا يدل على عدم وجود أي تنسيق بين الباحثين والدارسين في أنحاء الوطن العربي كافة.

ويقترح الدكتور عبد السلام المسدي أن تتكفل إحدى مؤسساتنا العلمية العربية، من الجامعات أو مراكز البحث، بإحكام مشروع متكامل لإعداد ترجمة نقدية تحقق شروط الاستيفاء المعرفي القاطع، ويعهد به إلى فريق عمل:

أ ـ ينكب على ترجمة دروس دي سوسير من نصها الفرنسي.

ب ـ ويعمل على ترجمة كل النصوص التوثيقية المرافقة كما جاءت بها طبعة الباحث الإيطالي توليودي مورو Tullio de Mauro المنشورة سنة ١٩٧٢.

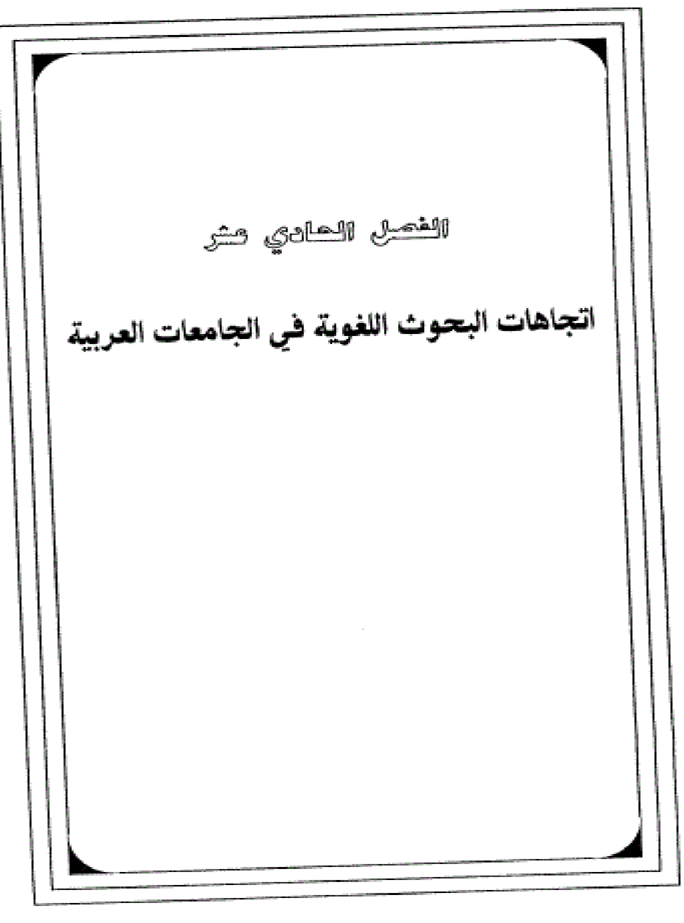
ج ـ ويقارن في كل خطوة الاجتهادات التي تضمنتها الترجمات العربية الخمس المتداولة الآن بين أيدينا.

د ـ ويجري الموازنات الدلالية الدقيقة التي تولدت عن حصول ترجمتين عربيتين عبر لغة وسيط هي اللغة الإنجليزية؛ وذلك بتبيان ما هو انزياح في النص الإنجليزي عن النص الفرنسي، وما هو عدول بالنص العربي عن النص الإنجليزي.

هـ ـ ثم يحسم الأمر في قضية المصطلحات المفاتيح؛ بحيث يستصفى من الترجمات الخمس، ومن القواميس المتخصصة التي باتت متوفرة في اللسانيات العربية ما يمثل القاسم المشترك الأعظم فيكون الاختيار إيذاناً بانبثاق سند مرجعي في المصطلحات اللسانية يمثل الاقتداء به انخراطاً في ميثاق الوحدة المعرفية بين أبناء اللغة العربية[1].

❀ ❀ ❀

(١) ما وراء اللغة: ص٤٦ وما بعدها.



الفصل الحادي عشر

اتجاهات البحوث اللغوية في الجامعات العربية

اتجاهات البحوث اللغوية في الجامعات العربية

شهد البحث اللغوي في الجامعات العربية نشاطاً ملموساً في السنوات الأخيرة؛ خاصة بعد إقبال الكثير من الطلاب على التخصص في «العلوم اللغوية» التي تشمل الأصوات والصرف والنحو والدلالة والمعجمات؛ وذلك بعد تخرجهم في قسم اللغة العربية، والتحاقهم بالدراسات العليا. وقد تنوعت البحوث اللغوية التي قدمها أصحابها إلى أقسام اللغة العربية لنيل درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه.

ويرى الدكتور محمود فهمي حجازي أن البحوث اللغوية بدأت بالدراسات المقارنة، وترجع بداية الاهتمام بـ «علم اللغة المقارن» Comparative Linguistics إلى فترة إنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨، وزاد هذا الاهتمام سنة **١٩٢٥** عندما تولت الدولة أمر الجامعة وجعلتها حكومية، لقد كان علم اللغة المقارن للغات السامية من المواد الأساسية التي تدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية؛ أي جامعة القاهرة. وارتبط التدريس والبحث آنذاك بالتقاليد الأوروبية في هذا الميدان؛ وذلك لأن أعلام الدراسة السامية المقارنة في أوروبا كانوا في الوقت نفسه يعملون في الجامعة المصرية، وأهم هؤلاء برجشتراسر وشاده وليتمان(Littmann, Shaade, Bergstrasser) كان هؤلاء الأعلام يدرسون بالمنهج الذي استقر في الجامعات الأوروبية عند نولدكهNöldeke وبروكلمان Brockelmann. لقد ألقى برجشتراسر وشاده وليتمان محاضراتهم باللغة العربية، وطبع قسم منها بالعربية أيضاً، ويعد كتاب (التطور النحوي للغة العربية) لبرجشتراسر تسجيلاً لمحاضراته التي ألقاها

بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٩، وفيه دراسة مقارنة لبنية العربية في ضوء علم اللغات السامية المقارن، وتناول ليتمان في دراساته بمصر أسماء الأعلام السامية، واللهجات العربية القديمة، والنقوش العربية الجاهلية.

وهناك عدة رسائل جامعية دارت في إطار المنهج المقارن، ومن بينها ما يأتي:

- المصدر في العربية والعبرية.
- التثنية والجمع في اللغات السامية.
- أزمنة الفعل في اللغات السامية.
- وزن (أفعل) ونظائره في اللغات السامية.
- التذكير والتأنيث في اللغات السامية.
- التعريف والتنكير في اللغات السامية.
- الفعل الناقص في اللغات السامية.

وقد تجاوزت بعض الرسائل مجال المقارنات اللغوية المباشرة بين اللغات السامية، وقدمت رسائل أخرى تتناول جهود مروان بن جناح القرطبي في النحو العبري، ودرست - أيضاً - الأمثال في الآداب السامية[1].

وإذا حاولنا التعرف على اتجاهات البحوث اللغوية المقدمة لنيل درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه، والموضوعات التي دارت حولها؛ فإنه يمكن تقديمها خلال النقاط الآتية:

١ - نالت «القراءات القرآنية» عناية القدماء من العلماء العرب واهتمامهم من حيث البحث والتأليف، وخلفوا مجموعة من المصادر

(١) الدكتور محمود فهمي حجازي: البحث اللغوي ص٨٠ وما بعدها.

المهمة التي يفيد منها الدارسون المحدثون فائدة عظيمة في مجال الدرس اللغوي للعربية، ومعرفة لهجاتها، واهتموا أيضاً بالقراءات الشاذة، ومن المصادر الأساسية في هذا المجال (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) لابن جني.

والقراءات من العلوم التي نستطيع خلالها التعرف على الواقع اللغوي الموجود في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وتقدم صورة واضحة عن اللهجات التي كانت سائدة؛ لذلك يقول الدكتور عبده الراجحي: «فالقراءات القرآنية هي المرآة الصادقة التي تعكس الواقع اللغوي الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ونحن نعتبر القراءات أصل المصادر جميعاً في معرفة اللهجات العربية؛ لأن منهج علم القراءات في طريقة نقلها يختلف عن كل الطرق التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشعر والنثر؛ بل تختلف عن طرق نقل الحديث»[1].

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين: «ومن العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى علم القراءات القرآنية مشهورها وشاذها؛ لأن رواياتها هي أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية واللغوية بعامة، في مختلف الألسنة واللهجات، بل إن من الممكن القول بأن القراءات هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساساً للدراسات الحديثة، والتي يلمح المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة»[2].

وللأستاذين بعض الدراسات حول القراءات، كانت الأصل لرسالتي الماجستير والدكتوراه؛ فألف الدكتور عبده الراجحي:

---

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية: ص١ و٨٤.

(٢) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: ص٧ وما بعدها.

ـ منهج ابن جني في (المحتسب).

ـ اللهجات العربية في القراءات القرآنية.

وألف الدكتور عبد الصبور شاهين:

ـ أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي.

ـ القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث.

وهناك بعض كتب القراءات القرآنية التي يمكن دراستها وتصنيف المادة اللغوية الموجودة فيها في ضوء «مستويات التحليل اللغوي» على نحوما نعرف في علم اللغة الحديث، ومن تلك الكتب (كتاب السبعة في القراءات) لمؤلفه أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي (٢٤٥ ـ ٣٢٤هـ)، وكتاب (حجة القراءات) لابن زنجلة الذي عاش في القرن الخامس الهجري.

٢ ـ اهتم الباحثون حين اختيار موضوعات لدرجتي الماجستير والدكتوراه بدراسة اللهجات في ضوء كتب التراث النحوي واللغوي، وقبل بيان طبيعة تلك الموضوعات نتوقف أمام المقصود بمصطلح «اللهجة» dialect. يقول الدكتور إبراهيم أنيس: «اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات».

«وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح المحدثون على تسميتها باللغة؛ فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات لكل

منها ما يميزها. وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات»[1]. ويقسم المحدثون تلك العادات أو الصفات اللهجية على ثلاثة فروع هي:

- ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها Phonetics.
- ما يتعلق ببنية الكلمات ونسجها Morphology.
- ما يتعلق بتركيب الجملة Syntax.

وهناك فرع رابع يعرض له الباحث في اللغات، وهو معاني الألفاظ ودلالتها Semantics[2].

وقد احتوت كتب اللغة والنحو على الكثير من النصوص التي تشير إلى لهجات القبائل العربية، ومن ذلك وضع علامة في الفعل تشير إلى أن الفاعل مثنى أو جمع؛ فيقال: قاما الرجلان، وقاموا الرجال، ومن شواهد تلك اللهجة قول عبيد الله بن قيس الرقيات في رثاء مصعب بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما:

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعدٌ وحميمُ[3]

وقال محمد بن عبد الله العتبي:

رأيت الغواني الشيبَ لاح بعارضي فأعرضْنَ عنّي بالخدودِ النواضرِ[4]

وقد أشار ابن مالك في ألفيته إلى تلك اللهجة العربية في قوله:

---

(1) اللهجات العربية: ص١١.

(2) السابق: ص١٣.

(3) المارقين: الخارجين عن الدين، ومبعد: أراد به الأجنبي، وحميم: صديق، وأسلماه: خذلاه.

(4) الغواني: جمع غانية، وهي المرأة الجميلة دون زينة، ولاح: ظهر، والنواضر: جمع ناضر، وهي الجميلة.

وجرّد الفعلَ إذا ما أسندا   لاثنين أو جمع كفاز الشهدا
وقد يقال: سعدا وسعدوا   والفعل للظاهرِ ـ بعدُ ـ مسندُ

وتنسب تلك اللهجة إلى طائفة من العرب، وهم بنوالحارث بن كعب، أو أزد شنوءة، أوطيء، على خلاف في النسبة.

وهناك الكثير من اللهجات التي وردت عن الأوائل من العلماء العرب في أعمالهم العلمية؛ لذلك من الرسائل التي اهتمت بذلك «اللهجات العربية كما تصورها كتب النحو واللغة».

٣ ـ اهتم بعض الباحثين في مرحلة الماجستير والدكتوراه بجمع الخصائص اللغوية التي تميز لهجة إحدى القبائل العربية؛ خاصة تلك التي ورد ذكرها كثيراً في كتب التراث النحوي واللغوي مثل قبيلة طيء التي قال عنها رابين Rabin: «أما أن طيئاً قد لعبت دورها في الحركة الأدبية التي عنها نتجت العربية الفصحى فهذا ثابت من العدد الكبير نسبيًّا للشعراء الطائيين الذين قبل اللغويون كلامهم مقياساً للصواب العربي»[1].

ومن لهجاتها التي أشار إليها النحاة، وقبلت باعتبارها نوعاً محليًّا من العربية الصحيحة استعمال «ذو» اسماً موصولاً بمعنى «الذي» وهي مبنية على السكون دائماً، ومن شواهد هذا الاستعمال قول منظور بن سحيم الفقعسي:

فإما كرامٌ موسرون لقيتهم   فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا

ومن القبائل التي أشار اللغويون إلى لهجتها كثيراً قبيلة هذيل، وقد خصص ابن جني كتاباً لشعرها، ولكنه مفقود، ويعتقد أن هذا الكتاب كان يهتم بصفة خاصة بلهجتهم التي نبغ شعراؤهم في استعمالها إلى درجة أسبغت على هذيل شهرتهم اللغوية. ومن لهجاتهم

(١) اللهجات العربية الغربية القديمة: ص٣٤٣.

استعمال «متى» حرف جر؛ لذلك يقولون في كلامهم «أخرجها متى كمّه»؛ يريدون: من كمه، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

شربْنَ بماء البحر ثم ترفعتْ   متى لججٍ خضرٍ لهن نئيج[1]

وبإشراف عدد من اللغويين الذين كانوا قد تخصصوا في دراسة اللهجات بجامعة لندن اتجهت دراسات محدودة إلى بحث اللهجات العربية المعاصرة؛ فقدمت رسائل تتناول «لهجة البدو في محافظة البحيرة في مصر» و«لهجات محافظة المنيا في ضوء الجغرافيا اللغوية»، وكانت بعض هذه الدراسات حول «اللهجات العربية في السودان». وقد ضعف الاهتمام في الآونة الأخيرة بدراسة اللهجات العربية، ولا يرجع هذا الإعراض عن بحوث اللهجات إلى الإدارة الجامعية، ولكن الدراسين يفضلون لأنفسهم صلة بالتراث مع إتقان مناهج البحث، على إتقان منهج البحث بتطبيق في إحدى اللهجات المعاصرة[2].

٤ - كانت العرب في العصر الجاهلي تتكلم باللغة العربية مستقيمة في أساليبها، نقية من الشوائب، بعيدة عن اللحن، سليمة من الأخطاء، تنطق بذلك سليقة وجبلة، ولذلك يقول أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ): «فأما اللحن، بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن وجهه الصحيح في العربية، يقال: لحن لحناً. وهذا عندنا من الكلام المولد؛ لأن اللحن محدث، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم».

وقد أجمع القدماء من العلماء العرب على أن السبب في تسرب اللحن والخطأ إلى اللغة العربية يعود إلى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس الأخرى، بعد انتشار الإسلام وظهوره على سائر

---

(١) اللجة: معظم الماء، ونئيج: هو الصوت العالي المرتفع.
(٢) البحث اللغوي: ص٨١.

الأديان، وقد أشار الزبيدي (ت٣٧٩هـ) إلى أن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين في عهد النبي ﷺ، وقد روى أن رجلًا لحن بحضرته فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»[١].

واللحن في اللغة له مظاهر كثيرة؛ فهو يصيبها في الأصوات وطريقة نطقها، والصيغ الصرفية، والتراكيب النحوية وما يتصل بالإعراب، والخلط في استعمال المفردات وعدم التفريق بين معانيها. ويعد الخطأ في الإعراب أول مظهر من مظاهر اللحن في نشأته الأولى؛ لذلك يقول أبوالطيب اللغوي (ت٣٧١هـ): «اعلم أن أولَ ما اختل من كلامِ العربِ فأحوج إلى التعلم الإعرابُ»[٢].

وقد اهتم القدماء من علماء اللغة والنحو بالتأليف في اللحن منذ المراحل الباكرة من حياة الدرس اللغوي عند العرب، وأشارت كتب الطبقات والتراجم إلى أعمال علمية كثيرة، وصل إلينا بعضها وفُقد بعضها الآخر، ومن أهمها ما يأتي:

- ما تلحن فيه العوام لعلي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ).
- ما يلحن فيه العامة لأبي زكريا الفراء (ت٢٠٧هـ).
- ما يلحن في العامة لأبي عبيدة (ت٢٠١هـ).
- ما يلحن فيه العامة للأصمعي (ت٢١٦هـ).
- ما خالفت فيه العامة لغة العرب لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ).
- ما يلحن فيه العامة لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت٢٣١هـ).

---

(١) مقدمة كتابه: طبقات النحويين واللغَويين.

(٢) مقدمة كتابه: مراتب النحويين.

- ما يلحن فيه العامة لابن السكيت (ت٢٣٤هـ).

- ما يلحن فيه العامة لأبي عثمان المازني (ت٢٤٨هـ).

- ما يلحن فيه العامة لأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ).

- اللحن ومن كان يلحن من النحويين لأبي زيد عمر بن شبة البصري (ت٢٦٢هـ).

- أدب الكاتب لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

- ما يلحن فيه العامة لأبي حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ).

- الفصيح لأبي العباس ثعلب (ت٢٩١هـ).

- ما يلحن فيه العامة لأبي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي (ت٣٠٠هـ).

- التنبيهات على أغاليط الرواة لعلي بن حمزة البصري (ت٣٧٥هـ).

- لحن الخاصة لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ).

- لحن العامة لأبي بكر الزبيدي (ت٣٧٩هـ).

- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي (ت٥٠١هـ).

- درة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ت٥١٦هـ).

- تقويم اللسان لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).

وبعد تكلم الإشارة إلى أهم الأعمال العلمية التي خلفها القدماء حول اللحن، نحاول التعرف على أهم الأهداف والاتجاهات التي سيطرت عليهم حين التأليف في اللحن.

من أهم الأهداف والاتجاهات الإشارة إلى الألفاظ والعبارات التي وردت على ألسنة العوام محرفة عما هو فصيح. يقول أحد

المؤلفين: «إن أول ما يجب على طالب العلم تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التي حرفتها العامة عن موضعها، وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب في ناديها ومجتمعها؛ فإذا صححها وأزال عنها التحريف، ونفى عنها التصحيف... كان ما وراء ذلك عليه أقرب وأسهل للطلب».

والذي يلفت النظر أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول جرياً منهم على عادتهم في لهجات خطابهم، وبعداً عن علم العربية. بل إن أخطاء العامة في اللغة تابعهم فيها الكثرة من الخاصة، حتى ضمنته الشعراء أشعارهم، واستعمله جلة الكتاب، وعليه الخدمة في رسائلهم، وتلاقوا به في محافلهم.

وتحتوي كتب لحن العامة على مادة لغوية تشير إلى ما كان يقع فيه العوام من الأخطاء، واللهجات العربية التي كانت منتشرة في عصر الحضارة الإسلامية وقد اتخذ بعض الباحثين من تلك الكتب مجالاً لإجراء دراسة عليها في ضوء علم اللغة الحديث.

٥ ـ عرف تاريخ التفكير النحوي عند العرب مجموعة من كبار العلماء الذين وضعوا اللبنات الأولى لصرح النحو والتصريف، ويأتي على رأس أولئك الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، والكسائي وتلميذه الفراء، وأبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني وسواهم من الأعلام الذين ما زلنا نعيش على فضلهم حتى الآن. وقد اهتم بعض الباحثين المحدثين حين تسجيل موضوع لدرجة الماجستير أو الدكتوراه باختيار أحد هؤلاء الأعلام لإقامة دراسة لآرائه النحوية والصرفية، وأثره في تاريخ النحو العربي، مع التوقف أمام حياته وتلاميذه وشيوخه والتعرف على طبيعة العصر الذي عاش فيه.

وحين اختيار أحد الأعلام لدراسة آرائه النحوية نجد ثلاثة مصادر يمكن الاعتماد عليها للحصول على المادة العلمية:

الأول: ما تركه المؤلف من أعمال علمية، ومن أمثلة ذلك أن الباحث المعاصر إذا أراد التعرف على التفكير النحوي عند ابن السراج؛ فلا بد أن يعتمد مباشرة على كتابه (الأصول في النحو)؛ لأنه يمثل مذهبه النحوي أصدق تمثيل.

الثاني: الآراء المتفرقة الموجودة في مصادر اللغة والنحو منسوبة إلى الشخصية التي اختارها الباحث للتعرف على تفكيرها النحوي؛ لذلك يمكن جمع تلك الآراء وتنظيمها وتحليلها بما يكفل الإفادة منها، ومن أمثلة ذلك أن يونس بن حبيب ليس له كتاب في النحو، ولكن يمكن التوصل إلى آرائه خلال بعض المصادر، وعلى رأسها كتاب سيبويه الذي نجد فيه روايات كثيرة منسوبة إلى يونس.

الثالث: هناك الكثير من المخطوطات التي تحتاج إلى تضافر جهود الباحثين المحدثين حتى ترى النور، ويمكن اختيار مخطوط مع تحقيقه والترجمة لصاحبه وإجراء دراسة عليه، ومن أمثلة ذلك أن بعض الباحثين اختار كتاب (الإيضاح في علل النحو) وحققه وأجرى دراسة عليه.

وقد أجريت دراسات كثيرة على بعض الشخصيات ذات المكانة الرفيعة في تاريخ النحو العربي مثل:

- الخليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله ومنهجه.
- أبو زكريا الفراء ومذهبه في اللغة والنحو.
- الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه.
- النكت في تفسير كتاب سيبويه للأعلم الشنتمري: تحقيق ودراسة.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن هناك بعض المصادر التي احتوت على مادة واسعة تتصل بالأصوات والصرف والنحو والدلالة؛

لذلك يمكن الاكتفاء بإحدى الظواهر لإجراء دراسة عليها، وقد سُجلت رسائل كثيرة تدور حول الأصوات، أو بناء الكلمة، أو الصيغ الصرفية، أو تركيب الجملة، أو الشواهد القرآنية والشعرية، أو دلالة الألفاظ، ومن أمثلة ذلك:

- شواهد الشعر في كتاب سيبويه.
- القراءات واللهجات في كتاب سيبويه.
- الأصل والفرع في كتاب (المقتضب) للمبرد.
- قضايا الخلاف النحوي في كتاب (الأشباه والنظائر) للسيوطي.
- أصول النحو في كتاب (الخصائص) لابن جني.

٦ - وضعت مدرسة البصرة قواعد النحو وأصوله ومصطلحاته، ولقيت الأعمال التي وضعتها مثل (الكتاب) لسيبويه و(المقتضب) للمبرد و(الأصول) لابن السراج رواجاً لدى المشتغلين بالدراسات النحوية. وقد اعتمد نحاة البصرة في إقامة بناء صرح النحو والتصريف على ما سجلوه من كلام العرب خلال الرحلة إلى البادية، ومشافهة الأعراب في ديارهم، وقد وضعوا شروطاً لصحة المادة التي عولوا عليها في التوصل إلى القاعدة، واهتموا بالشواهد التي تنوعت فكانت من آي الذكر الحكيم، والشعر حتى زمن معين، والأمثال والأقوال المأثورة، وقل الاستشهاد بالحديث الشريف.

وللكوفة مذهب مستقل في الدراسات النحوية، والدليل على ذلك أن القدماء من أصحاب المؤلفات النحوية الضخمة كابن يعيش وابن هشام والسيوطي حرصوا على تسجيل آراء الكوفيين جنباً إلى جنب مع آراء البصريين؛ بل إن بعض الأوائل كالمبرد وابن السراج ذكروا آراءهم أيضاً، وحين ألف أبو البركات الأنباري كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) كان هذا الخلاف بين علماء المدرستين.

واتبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري منهجاً جديداً في مؤلفاتهم النحوية، أساسه الانتخاب من آراء مدرستي البصرة والكوفة، ويعود السبب في ذلك إلى أن أوائل النحاة كانوا تلاميذ للمبرد البصري، وأبي العباس ثعلب الكوفي، وقد نتج عن ذلك ظهور جيل من النحاة يحمل آراء المدرستين، وأدى هذا إلى ظهور الكثير من الآراء النحوية الجديدة.

ويعد ولاد بن محمد التميمي أول نحوي مصري، وقد بدأ به الزبيدي حديثه عن الطبقة الأولى من النحويين واللغويين المصريين، وسمع ولاد بالخليل فرحل إليه فلقيه بالبصرة، وسمع منه ولازمه، ثم انصرف إلى مصر، وأخذ يعلم الطلاب ما أفاده من علم الخليل، ويحاضرهم فيما نقل معه من كتب. وإذا كان ولاد قد أخذ عن الخليل إمام مدرسة البصرة، فإن معاصره أبا الحسن الأعز أخذ عن الكسائي إمام مدرسة الكوفة، وبذلك يتضح أن الدرس النحوي في مصر قد اتصل في مراحله الباكرة بالمدرستين كلتيهما.

وشهد عصر بني أمية بالأندلس (١٣٨ ـ ٤٢٢هـ) نهضة علمية في التخصصات المختلفة، واهتم العلماء بالرحلة إلى المشرق ولقاء المشهورين من أعلام اللغة والنحو، ويعد جودي بن عثمان المعروف بجودي النحوي (ت١٨٩هـ) أول من اهتم بالدراسات النحوية، وقد رحل إلى المشرق ولقي الكسائي والفراء وغيرهما، وله تأليف في النحو اسمه «منبه الحجارة».

ونشير إلى أن البحث في المدارس النحوية من حيث نشأتها والترجمة لأعلامها وبيان مذهبها النحوي قد نال عناية الكثيرين حين التسجيل لدرجتي الماجستير والدكتوراه؛ لذلك كان هناك رسائل تدور حول مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، والدرس النحوي في مصر والشام، والدرس النحوي في الأندلس.

٧ ـ هناك الكثير من القضايا التي عرض لها القدماء من النحاة العرب في أعمالهم العلمية، وجاء المحدثون من الباحثين وحاولوا معالجة تلك القضايا من جديد في بحوث الماجستير والدكتوراه، عن طريق جمع آراء القدماء وإعادة تصنيفها وترتيبها بما يكفل الإفادة منها، وقد استعان بعض الباحثين في دراسته بمناهج البحث في علم اللغة المعاصر؛ حتى يكون العرض واضحاً، والمعالجة دقيقة، والتحليل اللغوي وافياً، في حين اكتفى بعضهم الآخر بترديد آراء القدماء، عن طريق المعالجة التقليدية للقضية التي تم اختيارها. وقد كانت هناك رسائل تدور حول القياس، والحذف، والتأويل، والعامل النحوي وغير ذلك.

وقد اتخذت بعض الرسائل من أحد أبواب النحو موضوعاً للدراسة، ومن تلك الأبواب النواسخ، والضمائر، وأسماء الإشارة، والحال، والإضافة، والعدد، والظروف... وغير ذلك.

ونشير إلى أن بعض الرسائل دارت حول دراسة أحد الأساليب النحوية كالنفي، والشرط، والاستفهام، والطلب، والنداء وسواها، والمنهج المتبع في تلك الرسائل يجمع بين النظر والتطبيق؛ لأن الباحث كان يشير إلى الإطار النظري للأسلوب الذي تم اختياره مع التطبيق في القرآن الكريم، أو الشعر حتى يصل في نهاية بحثه إلى الخصائص التركيبية والدلالية التي تطبع الأسلوب.

ومع التطور الهائل في علم اللغة الحديث حاول بعض الباحثين دراسة إحدى الظواهر النحوية التي وردت عند القدماء مع مقارنتها بما ورد عند المحدثين، ومن ذلك دراسة ظاهرة «الأصلية والفرعية» عند القدماء، وفي النظرية التحويلية، أو دراسة نظام ترتيب الكلام في الجملة العربية في ضوء النظرية التحويلية.

وقد كان موضوع رسالتي للدكتوراه التي سجلتها بإشراف الأستاذين الدكتور عبد المجيد عابدين، والدكتور عبده الراجحي هو

«قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين»، وجاءت أبوابها وفصولها على النحو الآتي:

الباب الأول: الأسس النظرية للتقدير النحوي عند القدماء.

الفصل الأول: في علم الكلام وأصول الفقه.

الفصل الثاني: في نظرية العامل والجدل حولها.

الفصل الثالث: في نتائج نظرية العامل.

الباب الثاني: التقدير النحوي عند المحدثين.

الفصل الأول: في علم اللغة الوصفي.

الفصل الثاني: في علم اللغة التحويلي.

الباب الثالث: قضايا التقدير النحوي في الجملة العربية.

الفصل الأول: الحذف.

الفصل الثاني: الأصلية والفرعية.

الفصل الثالث: الزيادة.

الفصل الرابع: إعادة الترتيب.

الباب الرابع: قضايا التقدير النحوي في (سورة البقرة) وعلاقتها بالمستوى الدلالي.

الفصل الأول: قضايا التقدير النحوي في (سورة البقرة).

الفصل الثاني: علاقة قضايا التقدير النحوي بالمستوى الدلالي.

٨ ـ كانت هناك بعض الرسائل التي اتخذت من إحدى نظريات علم اللغة مجالًا للتطبيق في العربية ونصوصها الشعرية والنثرية، وقد كان لنظرية «المجالات الدلالية» Semantic fields رواج خاص لدى

الباحثين؛ خاصة في مرحلة الماجستير، فماذا تقول تلك النظرية، وما الرسائل التي دارت حولها؟

تعد نظرية المجالات الدلالية من أهم النظريات التي فرضت نفسها على تحليل المفردات خلال بعض المجالات أو الحقول المتصلة بالمعنى. ويرى اللغويون أن الجذور المعجمية لأجزاء جسم الإنسان ـ مثلًا ـ كالرأس والرقبة والمنكبين وسواها تكون مجالًا دلاليًا، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجذور المعجمية المتصلة بالألوان والفواكه ووسائل النقل وغير ذلك. وتعد الموسوعة المعجمية التي وضعها بيتر مارك روجت Peter Mark Roget (١٧٧٩ ـ ١٨٦٩م) في عام ١٨٥٢م الأصل الذي تمخّض عنه الحديث في المجالات الدلالية؛ لأنه قسم مفردات اللغة إلى ستة مجالات رئيسة هي: المجردات، والفضاء، والأحداث، والذكاء، والإرادة، والعاطفة، وبعد ذلك أخذ روجت يقسم تلك المجالات الستة إلى ما يندرج تحتها من المعاني.

وقد تطور البحث في المجالات الدلالية بفضل الجهود التي بذلها علماء اللغة في ألمانيا، وعلى رأسهم ترير J. Trier، وتم وضع تحديد دقيق للمجال الدلالي والمقصود به؛ فهو عبارة عن مجموعة من ألفاظ اللغة التي بينها ارتباط في المعنى، ويتم تحديد دلالة الألفاظ خلال المجموعة الدلالية التي تقع في إطارها، دون عزل لفظة عن أخرى، عملًا بالمبدأ الذي يرى وجود علاقة بين الكلمات داخل العائلة اللغوية.

وهناك بعض المعجمات التي أعدت على أساس نظرية المجالات الدلالية، أشهرها معجم دورنزايف Dornsief الألماني، ونقدم مثالاً يوضح المقصود بتلك النظرية. من المعروف أن الدرجات الجامعية هي: معيد، مدرس مساعد، مدرس، أستاذ مساعد، أستاذ. إن تحليل كلمة «معيد» ـ مثلًا ـ يتم في إطار مجالها الدلالي الخاص بالدرجات الجامعية؛ لأننا لو انتزعناها منها لكان من معانيها مَن يعيد الثانوية العامة، وتحليل

كلمة «مدرس» تدل في الحياة الجامعية على من يحمل شهادة الدكتوراه، في حين أنها في مجال دلالي آخر تشير إلى من يعمل بالتدريس في مراحل التعليم العام وهكذا

وبعد هذا العرض نشير إلى نظرية لها اتصالها بالمجالات الدلاليه يطلق عليها اسم التحليل التكويني Componential analysis للمعنى، وهي عبارة عن منهج في الدرس الدلالي للمفردات، أساسه تحليلها إلى مجموعة محددة من العناصر الأساسية التي تكونها، ويؤدي هذا التحليل دوراً مهمًا في تحديد العلاقات الدلالية القائمة بين الوحدات المعجمية عن طريق تتبع التسلسل القائم بين تلك الوحدات من العام إلى الخاص.

وقد اتخذ بعض الباحثين من نظرية المجالات الدلالية، وما تفرع عنها من حديث عن التحليل التكويني للمعنى أساساً لدراسة بعض الكتب والمعجمات والنصوص في اللغة العربية، حين التسجيل لدرجتي الماجستير والدكتوراه، ومن أمثلة ذلك:

- (المخصص) لابن سيده في ضوء نظرية المجالات الدلالية.
- روميات أبي فراس: معجم ودراسة دلالية.
- ديوان زهير: معجم ودراسة دلالية.

٩ - كانت المعاجم العربية موضوعات للكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وقبل الدخول في الإشارة إلى عناوين تلك الرسائل نحاول التعرف على مفهوم «المعجم» لغة واصطلاحاً.

إن الجذر المعجمي (ع ج م) يدل في كلام العرب على الإبهام والإخفاء، وهو ضد البيان والإفصاح كما في قولنا: رجل أعجم، وامرأة عجماء؛ أي لا يفصحان ولا يبينان كلامهما.

ولكن إذا قلت: أعجمتُ الكتاب؛ فالمعنى: أوضحته وبينته

وأزلت غموضه بواسطة النقط، وهذا المعنى هو المقصود بالمعجم الذي هو عبارة عن كتاب يهدف إلى إزالة الغموض والإبهام الذي يعترى دلالة بعض ألفاظ اللغة.

أما المعجم في الاصطلاح فهو عبارة عن كتاب يحتوي على مجموعة من مفردات اللغة مرتبة ترتيباً هجائيًا، أو في نظام آخر محدد كنظام الموضوعات، أو نظام الصور، مع شرح لمعاني المفردات، ويضاف إلى ذلك أن بعض القواميس الكبيرة تتعرض لطريقة نطق الكلمات، واشتقاقاتها، والمترادفات، والاصطلاحات، مع ذكر الشواهد التوضيحية[١].

وقد أطلق اللغويون على «المعجم» لفظة أخرى هي «القاموس»، وكلاهما بمعنى واحد من الناحية الاصطلاحية، وقد وضع هذه التسمية مجد الدين الفيروز آبادي (ت٨١٦هـ) لمعجمه (القاموس المحيط) وتعنى «البحر المحيط». وقد لقى (القاموس المحيط) رواجاً بين طلاب العلم والمعرفة؛ لأنه يمتاز بصغر حجمه، ووضوح شرحه، وتنوع المادة المعجمية التي عرض لها؛ لذلك أصبح اسمه «القاموس» علماً على الكتب التي يرجع إليها الباحثون لمعرفة معاني الكلمات.

«أما في اللغات الأوروبية فتوجد عدة كلمات للأعمال المعجمية، أكثرها شيوعاً في اللغات الأوروبية فتوجد عدة كلمات للأعمال المعجمية، أكثرها شيوعاً في اللغة الإنجليزية كلمة Dictionary وفي الفرنسية Dictionaire، وكلتا الكلمتين ترجع إلى الكلمة اللاتينية الوسيطة Dictionarium، وتعنى مجموع ما يعلم، أو النصاب التعليمي. وفي اللغة الألمانية نجد كلمة Wörterbuch وتعنى حرفيًا «كتاب الكلمات». وقد استقرت دلالة هذه الكلمات في اللغات الأوروبية، فأصبحت دالة على

---

(١) انظر: دائرة المعارفة البريطانية، مادة Dictionary.

ذلك الكتاب المرجعي الذي يضم كلمات اللغة مرتبة ترتيباً هجائياً أو معنويًا، ويعطى مع كل كلمة هجاءها ودلالتها، وقد يضيف إلى ذلك نطقها واستخدامها ومرادفاتها واشتقاقاتها وتاريخها وبعض الصور الإيضاحية لها، أو أحد هذه الجوانب على الأقل»[1].

وقد اهتم الباحثون بالتراث المعجمي عند العرب، ووجدنا بعض الرسائل الجامعية التي اتخذت من المعاجم العربية مجالًا للعرض والتحليل والدراسة مثل (المعجم العربي: نشأته وتطوره) للدكتور حسين نصار، وكان في أصله رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة، ثم ألفت، بعد ذلك، مجموعة من الرسائل التي تناولت أحد المعاجم بالدراسة مثل:

- محمد بن دريد وكتابه (الجمهرة).
- ابن فارس ومعجمه (المجمل).
- الأزهري و(تهذيب اللغة).

وكان موضوع رسالتي للماجستير يدور حول «المعجم الموضوعي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري». ونشير إلى أن «معاجم الموضوعات» أو «معاجم المعاني» ـ عند بعض الباحثين ـ لون من ألوان التأليف المعجمي عند العرب، من شأنه أن ينظم ألفاظ اللغة حسب الموضوعات أو المعاني؛ أي إن المعجمي يجمع الألفاظ المتصلة بالخيل، أو النبات، أو المطر... وينظمها تحت عنوان يجمعها معاً؛ فنجد كتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب المطر. وقد ظهر هذا اللون من المعاجم في الرسائل اللغوية التي دارت حول مختلف الموضوعات، ثم وجدنا أول معجم موضوعي وصل إلينا وهو (الغريب المصنف) لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، أما أكثر

(١) الدكتور محمود حجازي: البحث اللغوي ص٤٨.

معاجم الموضوعات إحاطة وشمولًا فهو (المخصص) لابن سيده (ت٤٥٨هـ).

١٠ - اهتم عدد كبير من الباحثين حين التسجيل لدرجة الماجستير أو درجة الدكتوراه بدراسة مجال دلالي محدد، ويتم اتباع عدة إجراءات قبل البدء في تلك الدراسة، وهي:

- جمع المادة التي سيتم إجراء الدراسة عليها من نصوص اللغة العربية الفصحى.
- تصنيف المادة وتوزيعها في مجموعة من المجالات الدلالية الواضحة.
- تحليل العلاقات الدلالية للمادة داخل المجال الواحد.

وقد تم إنجاز مجموعة من الرسائل الجامعية، ومن أهمها ما يأتي:

- ألفاظ الحضارة في مؤلفات الجاحظ.
- ألفاظ الحياة الاجتماعية في رسائل القرن الثاني الهجري.
- ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات التوحيدي.
- ألفاظ الحضارة في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.

وتفيد تلك الرسائل في وضع اللبنات الأولى حين صناعة المعجم التاريخي للغة العربية الذي يعد أحد الطموحات التي تسعى المجامع اللغوية لتحقيقها في العصر الحديث، وهي تعرّف بالتطور الذي طرأ على دلالة الألفاظ عبر العصور المختلفة، أو في المرحلة التي تم إجراء الدراسة عندها، أوعند أحد الأدباء في فترة زمنية حددة، أو في أحد فنون العربية كالشعر أو النثر.

ولا بد من وجود تنسيق بين أقسام اللغة العربية في الجامعات

المختلفة؛ حتى يمكن الإفادة من الجهود السابقة، ولا نقع في خطأ التكرار لألفاظ سبق إعداد رسائل حولها، مع تبادل الرسائل بين المكتبات لتكون بين أيدي طلاب الدراسات العليا الذين يشرعون في اختيار أحد الموضوعات المتصلة بالألفاظ.

١١ ـ اهتم عدد كبير من الباحثين بإجراء دراسات حول آي الذكر الحكيم، ونصوص الشعر والنثر؛ للتعرف على الخصائص اللغوية للآيات الكريمة والنصوص، وكانت تلك الدراسات تدور حول «اللغة» بمستوياتها المختلفة كالأصوات والصرف والنحو والدلالة، ومن الرسائل التي تم إنجازها:

- لغة القرآن الكريم في (جزء عمَّ).
- اللغة في شعر بشار.
- اللغة في شعر مسلم بن الوليد.
- اللغة في مقامات الهمذاني.

وهناك بعض الرسائل التي دارت حول أحد كتب التراث للتعرف على لغة مؤلفه، ومن ذلك «لغة أبي العلاء في رسالة الغفران».

واهتم عدد آخر من الباحثين، فيما بعد، باختيار أحد أبواب النحو، أو أحد الأساليب للتعرف عليه في آي الذكر الحكيم، ونصوص الشعر والنثر، دون الخوض في اللغة بمستوياتها المختلفة، ومن تلك الرسائل:

- الجملة الفعلية في شعر شوقي الإسلامي.
- الجملة العربية في شعر عروة بن أذينة.
- بناء الجملة في شعر المعلقات.
- الجملة الاسمية في شعر الفرزدق.

- الجملة الشرطية في شعر المتنبي.

- أسلوب الشرط في القرآن الكريم.

واختار عدد آخر من الباحثين أحد أبواب الصرف للتطبيق، ومن ذلك:

- أبنية الصرف في ديوان امرئ القيس.

- أبنية المصدر في الشعر الجاهلي.

١٢ - هناك عدد من الرسائل الجامعية التي اختارت موضوعات للبحث والدراسة في ضوء «المنهج التقابلي» Contrastive Method أو «علم اللغة التقابلي» وهو العلم الذي يقوم على المقابلة بين لغتين أو لهجتين ليستا من أصل واحد، مع اختيار إحدى الظواهر الصوتية، أو الصرفية، أو النحوية، أو الدلالية للبحث والدرس والتحليل، ومن أمثلة تلك الرسائل «الضمائر في العربية والفرنسية» و «أسلوب الاستفهام في العربية والإنجليزية» و «أفعال الحركة بين العربية والألمانية».

«وقد بدأت الدراسات التقابلية بين العربية ولغة الهاوسا واللغة السواحلية في رسائل تعد بمعهد الدراسات والبحوث الأفريقية بجامعة القاهرة. وهناك اتجاه لدى الطلاب غير العرب الذين يعدون رسائل لغوية في أقسام اللغة العربية أن يختاروا موضوعات تقابلية بين العربية ولغتهم الأم، وقد أعد باحث ألباني اللغة رسالة تقابلية عن العربية والألبانية في مجال الأصوات. وأكثر هذه الدراسات المتصلة بالقضايا اللغوية في تعليم العربية لأبناء اللغات الأخرى رسائل قدمت إلى معهد الخرطوم الدولي للغة العربية لنيل درجة الدبلوم (أو الماجستير) أو إلى معهد تعليم اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أو إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، إلى جانب رسائل أخرى تتصل بهذا

المجال في جامعة القاهرة. عدد من هذه الرسائل يتناول المادة اللغوية، وفي رسائل معهد الخرطوم نجد اهتماماً خاصًا بتعليم العربية لأبناء لغات أفريقية وطنية أو محلية في السودان»[1].

١٣ ـ أكد القدماء والمحدثون على وجود صلة بين «النحو» و«علم المعاني» أحد فروع البلاغة، وقد استغل الباحثون تلك الصلة في تسجيل بعض رسائل الماجستير والدكتوراه التي تدور حول ظاهرة يهتم بها علماء النحو والبلاغة، وقبل الإشارة إلى تلك الرسائل نحاول الكشف عن تلك الصلة بين النحو وعلم المعاني.

قدم علماء البلاغة تعريفات كثيرة لعلم المعاني تدل على أنه يهتم بالخصائص التي تطبع التركيب النحوي للجملة، ومن تلك التعريفات ما يأتي:

ـ قال بدر الدين ابن مالك في تعريفه: «هو تتبع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالته؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره»[2].

ـ قال الخطيب القزويني: «هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[3].

ـ قال السكاكي: «هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره»[4].

---

(١) البحث اللغوي: ص٨٨.
(٢) المصباح: ص٧.
(٣) الإيضاح: ص٨٤.
(٤) المفتاح: ص١٦١.

ويتضح من تلك التعريفات أن أساس البحث في علم المعاني هو تتبع الخصائص التي تطبع التركيب النحوي كالحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والاتساع وسواها؛ ليكون هذا التركيب مطابقاً للحال التي يعبر عنها؛ لذلك يرتبط هذا العلم بالأداء اللغوي ارتباطاً مباشراً. وقد أشار أحد القدماء إلى أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك؛ بل هو يبين في كل باب ما يليق به؛ حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان[1].

وقارن العلماء بين موقف النحاة وموقف البلاغيين من التركيب؛ فالنحوي ينظر في التركيب من أجل تحصيل الإعراب لتحصل كمال الفائدة، وصاحب علم المعاني ينظر في دلالته، وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعاني وبلوغها في أقصى المراتب[2]. وأشار الدكتور تمام حسان إلى أن علم النحو تحليلي يبدأ بالمفردات وينتهي إلى الجملة الواحدة، وعلم المعاني تركيبي يبدأ بالجملة ويتخطاها إلى علاقاتها بالجمل الأخرى في السياق التي هي فيه[3].

ويعد حديث عبد القاهر الجرجاني عن «النظم» من ثمار الصلة بين النحو وعلم المعاني، يدلنا على ذلك قوله: «فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلاوهو معنى من معاني النحوقد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم

(١) الشاطبي: الموافقات في أصول الأحكام ٤/ ٦٠.
(٢) العلوي: الطراز ١/ ١٧.
(٣) الأصول: ص٣٤٦ وما بعدها.

وقد قدم عبد القاهر الكثير من التطبيقات لنظرية النظم في آي الذكر الحكيم والشعر، ومن ذلك توقفه أمام قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[2] بالتحليل الذي ركز فيه على المعاني النحوية الآتية:

- أن نوديت الأرض (يا أرض) ثم أمرت (ابلعي).

- أن كان النداء بـ (يا) دون «أي» نحو «يأيتها الأرض».

- إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) دون أن يقال: «ابلعي الماء».

- أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها.

- التعبير باستخدام الفعل المبني للمجهول. قال عبد القاهر: «ثم أن قيل (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر».

- التأكيد والتقرير بقوله: (وقضى الأمر).

- ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودى).

- إضمار السفينة قبل الذكر.

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٨٢ وما بعدها.

(٢) سورة هود: الآية ٤٤.

- مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة.

وهناك الكثير من الرسائل التي تم إنجازها في إطار تلك الصلة بين النحو وعلم المعاني، ومن بينها ما يأتي:

- أسلوب القصر بين النحويين والبلاغيين.
- التنكير وأثره البلاغي في السياق القرآني الكريم.
- ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين.

❀ ❀ ❀

المصادر والمراجع

إبراهيم أنيس:

اللهجات العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٢.

مسطرة اللغوي، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء التاسع والعشرون، سنة ١٩٧٢.

أحمد زكي:

- الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، طبعة مصر ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م.

أحمد شلبي:

- كيف تكتب بحثاً أو رسالة؟ القاهرة، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨.

الأزهري:

- تهذيب اللغة، الجزء الأول، حققه عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤.

الأصفهاني:

- الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية.

إقليمس يوسف داود:

- اللمعة الإلهية في نحو اللغة السريانية، طُبع في مدينة الموصل سنة ١٨٩٦م.

الأنباري (أبو بكر):

- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، حققه محيي الدين رمضان، دمشق ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

بروكلمان:

- تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف بمصر.

تمام حسان:
- الأصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٥.

الثعالبي:
- فقه اللغة وسر العربية، حققه مصطفى السقا وآخرون، البابي الحلبي، ١٩٧٢.

الجاحظ:
- البيان والتبيين، حققه حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
- الحيوان، حققه عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، الحلبي، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م/ ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

ابن جماعة:
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، حيدرآباد الدكن، ١٣٥٣هـ.

ابن جني:
- الخصائص، حققه محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٣٧١ - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٢ - ١٩٥٦م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، حققه علي النجدي ناصف وزميلاه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٣٨٩هـ.

الجواليقي:
- المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، حققه أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

جون ليونز:
- نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥.

أبو حاتم الرازي:
- الزينة، حققه حسين الهمداني، القاهرة، ١٩٥٧ - ١٩٥٨م.

حاجي خليفة:
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مطبعة المعارف، ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م.

حسن ظاظا

الساميون ولغاتهم، مطبعة المصري، توزيع دار المعارف، ١٩٧١.

أبو حيان الأندلسي

البحر المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

ابن خلدون

المقدمة، الطبعة الثالثة، مكتبة المدارس، ودار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٧

دوركايم

قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمه وقدم له محمود قاسم. راجعه السيد محمد بدوي طبعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩.

رابين

اللهجات العربية الغربية القديمة، ترجمة عبد الرحمن أيوب، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٨٦

رشدي لبيب ووهيب سمعان.

دراسات في المناهج، الطبعة الرابعة، ١٩٧٥، مكتبة الأنجلو المصرية.

ابن رشيق

العمدة في صناعة الشعر ونقده، الطبعة الأولى، حيدرآباد الدكن، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م.

رمضان عبد التواب:

- فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.
- المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

روزنتال:

- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، ووليد عرفات، دار الريحاني، بيروت، ١٩٦١.

الزُّبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن):

- طبقات اللغويين والنحويين، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

الزَّبيدي (السيد محمد مرتضى):

- تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الأول، حققه عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، وزارة الإعلام، دولة الكويت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

زكريا إبراهيم:
- دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٧٦.
زكي نجيب محمود:
- المنطق الوضعي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦.
ابن سلام الجمحي:
- طبقات فحول الشعراء، حققه محمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٥٢.
السيوطي:
- الإتقان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، الحلبي ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم وزميلاه، الحلبي ١٩٥٨.
الشافعي:
- الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، الحلبي ١٣٥٨هـ - ١٩٣٨م.
الشهرستاني:
- الملل والنحل، حققه أحمد محمد فهمي، الطبعة الأولى، مكتبة حجازي، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م.
شوقي ضيف:
- البحث الأدبي: طبيعته، مناهجه، أصوله، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٢.
- العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
الطاهر أحمد مكي:
- دراسة في مصادر الأدب، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٣.
أبو الطيب اللغوي:
- مراتب النحويين، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر ١٩٥٥.
ابن عباس:
- تفسير ابن عباس المسمى (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس)، طبعة القاهرة وبيروت ١٩٧٧.
ابن عبد ربه:
- العقد الفريد، حققه أحمد أمين وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

عبد الرحمن بدوي:

- مناهج البحث العلمي، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٣.

عبد السلام المسدي:

- ما وراء اللغة: بحث في الخلفيات المعرفية، طبعة مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٤.

عبد الصبور شاهين:

- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، طبعة الخانجي، القاهرة ١٩٦٦.

عبد القاهر الجرجاني:

- دلائل الإعجاز، حققه محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، الخانجي، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

عبده الراجحي:

- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
- النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩.

أبو عبيد (القاسم بن سلام):

- ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل، مطبوع على هامش تفسير الجلالين، طبعة الاستقامة.

عثمان أمين:

- ديكارت، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٥٧.

عز الدين إسماعيل:

- المصادر الأدبية واللغوية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٧.

علي جواد الطاهر:

- منهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٨.

علي عبد المعطي ومحمد السرياقوسي:

- أساليب البحث العلمي، مكتبة الفلاح، دولة الكويت، ١٩٨٧.

أبو علي القالي:

- الأمالي، طبعة بولاق ١٣٢٤هـ.

عمر الدقاق:

- مصادر التراث العربي، بيروت ١٩٧٤.

فؤاد زكريا:
- التفكير العلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦.
ابن فارس:
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، حققه السيد أحمد صقر، الحلبي ١٩٧٧.
فيشر:
- المعجم اللغوي التاريخي، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٧.
القرطبي
- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب، القاهرة ١٣٧٢هـ ١٩٥٢م.
القزويني:
- الإيضاح في علوم البلاغة، حققه محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤.
مجمع اللغة العربية:
- المعجم الكبير، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠.
- المعجم الوسيط، القاهرة، ١٩٦٠.
محمد مندور:
- المقدمة التي كتبها لترجمة (منهج البحث في الأدب واللغة) تأليف لانسون وماييه، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٦، ثم ألحق الدكتور مندور تلك المقدمة بكتابه (النقد المنهجي عند العرب) القاهرة ١٩٦٩.
محمود السعران:
- علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف بمصر ١٩٦٢.
محمود فهمي حجازي:
- البحث اللغوي، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٩٣.
- مدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٢.
محمود فهمي زيدان:
- وليم جيمس، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر.
مصطفى صادق الرافعي:
- إعجاز القرآن، مطبعة الاستقامة بمصر، الطبعة السادسة.
ابن منظور:
- لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ابن النديم:

- الفهرست، طبعة الرحمانية، مصر.

وزارة المعارف العمومية:

- حروف التاج وعلامات الترقيم ومواضع استعمالها، رسالة صدرت عن وزارة المعارف العمومية آنذاك، وبها قرارات الوزارة في ٢٦/٧/١٩٣٠، وطبعت بمصر سنة ١٩٣١.

يحيى العلوي:

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، طبعة المقتطف بإشراف سيد المرصفي ١٣٢٢هـ - ١٩١٤م.

❁ ❁ ❁

المراجع الأجنبية:

Bach, Emmon

- An introduction to transformational grammars, Holt, Rinehart and Winston, New York, 1963.

Bloomfield, Leonard

- Language, George Allen and Unwin Ltd, London, 1935.

Bornstein, Diane

- An introduction to transformational grammar, Cambridge, 1977.

Chomsky, Noam

- Aspects of the theory of syntax, MIT press, Cambridge, Mass, 1965.
- Essays on form and interpretation, North Holland, Amsterdam, 1977.
- Knowledge of language, It's nature, origin and use, Praeger, New york, 1986.
- Language and Mind, New York, Harcourt Brace, 1963.
- Syntactic Structures, The Hague: Mouton, 1957.

Crystal, David

- The Cambridge encyclopedia of language, Cambridge University press, 1989.

Firth, J.R

- Papers in Linguistics, Oxford University press, 1957.

Foss, Donald & Hakes, David

- Psycholinguistics, An introduction to the Psychology of language, Prentice-Hall. Inc. U.S.A, 1978.

Fromkin, Victoria & Rodman, Robert

- An introduction to language, Fifth edition, Halt, Rinehart and Winston, Inc. U.S.A, 1993.

Gleason, H.A

- An introduction to descriptive linguistics, U.S.A, 1956.

Haywood, J.A

- Arabic Lexicography, Leiden, 1960.

Levinson, Stephen

- Pragmatics, Cambridge university press, 1991.

Lyons, John

- Language and Linguistics, An introduction, Cambridge university press, 1995.

Morris, Charles

- Writings on the general theory of signs, the Hague, Mouton, 1971.

Palmer, Frank

- Grammar, Penguin Books, London, 1971.

Radford, Andrew

- Transformational grammare, A first course, Cambridge university press, 1995.

Robin, R.H

- A short history of linguistics, Longmans, 1969.

Sampson, Geoffrey

- Schools of linguistics, Competition and Evaluation, London, 1980.

Smith & Wilson

- Modern Linguistics, London, 1979.

Skinner, B.F

- Verbal Behavior, New York, Appleton-Century Crafts, 1957.

❀ ❀ ❀


مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com
أ. علاء الدين شوقى
lisanarabs.blogspot.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة